حضرموت الثقافية

ربيع الثاني ١٤٤٧هـ - Hadhramaut AL-Thaqafiah - September - 2025
مجلة فصلية - السنة التاسعة - العدد (37)

مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر
HADHRAMAUT CENTRE

هجرة الحضارمة لأريتريا ودورهم في المجالات الاقتصادية

مكتبة المعارف في غيل باوزير

من نقد السومحي: باكثير.. حياته من شعره

قراءة في الأدب النَسوي الحضرمي خديجة بنت علي الحبشي أنموذجاً

حوار مع الأستاذ حسين محمد باراس

رحلة تصحيح الأوضاع التجارية وتطوير مجتمع الأعمال الحضرمي في السعودية



الشيخ علي بن محمد بن زاكن باحنّان

من أعلام حضرموت



الشاعر

سالم عبدالقادر العيدروس

- ولد في منطقة بور حضرموت وتوفي بها 1887ـ 1968م.
- من أبرز شعراء الدان الحضرمي.
- صدر له ديوان بعنوان (راح النفوس) من جزأين.

العدد (37)
يوليو
سبتمبر
2025م

الهجرة أو الإحباط



أ. د. عبدالقادر علي باعيسى
رئيس التحرير

عندما يفرض على المجتمع الكثير من الأسوار يعيش في مأساة داخلية يشعر معها أفراده بالضيق والقيود، ولكن ما إن يجد فرصته للهجرة حتى تبدأ هذه الأسوار بالتلاشي، ولكن على حساب مأساة أخرى تحدث للمجتمع هي الهجرة.

ورغم أن الظروف الصعبة باتت توافر دوافع قوية لهجرة الحضارمة أكثر من أي وقت مضى، فإن الناس لا يهاجرون كثيرًا كما في السابق بسبب التعقيدات والموانع التي تفرضها الدول المستقبِلة إلا أن الرغبة العميقة في الهجرة ما تزال حاضرة في نفوسهم، كما كانت لدى أجدادهم.

لقد شكّل الفقر عبر العصور أساسًا متينًا لأي هجرة، وإذا افترضنا جدلاً أن باب الهجرة فتح أمام الحضارم كما كان في الماضي، فإن كثيرًا منهم سيغادر بسبب الفقر الشديد.

الحضرمي بطبيعته يسعى لتحسين مستوى معيشته، حتى لو كان ذلك في أقاصي الأرض، ولا بأس لديه من العودة إلى حضرموت يومًا ما ولكن بعد أن يصبح غنيًا.

ما يعنيه هذا هو أن حضرموت، عبر تاريخها كانت تهدر أجيالاً من الشباب في الهجرة، طلبًا للعيش الكريم أما في الوقت الراهن ومع انسداد سبل الهجرة يسود الفضاء الاجتماعي حالة من الإحباط والتذمر فيلجؤون إلى العسكرية، ولو كانت أوروبا قريبة لهرب الشباب إليها عبر البحر كما يفعل شباب شمال إفريقيا، ولكن الواقع أن أقرب نقطة هي الصومال، فحالهم كحال المستجير من الرمضاء بالنار.

حضرموت كانت ومازالت تعيش تاريخيًا بين خيارين: الهجرة الدائمة، أو مأساة الفقر الداخلية، وكلاهما مر. إنها بذلك تتنازل عن فرص تطوير نفسها والنهوض من داخلها وتبتعد باستمرار عن مركزها الحضاري، ولكن إلى أين؟ وإلى متى؟!

محتويات العدد

حضرموت الثقافية

مجلة فصلية

السنة التاسعة العدد (37)

يوليو - سبتمبر 2025م

تصدر عن مركز حضرموت

للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر

رئيس مجلس الإدارة

الأستاذ محمد سالم بن علي جابر

المشرف العام

أ. د. عبدالله سعيد بن جسّار الجعيدي

رئيس التحرير

أ. د. عبدالقادر علي باعيسى

السكرتير الفني

حسن أحمد بلجعد

التدقيق اللغوي

أ.د. جمال رمضان حديجان

الهيئة الاستشارية

أ.د. عبدالله حسين البار

أ. د. عبدالله صالح بابعير

أ. د. ناجي جعفر الكثيري

أ. د. مسعود سعيد عمشوش

أ.د. خالد يسلم بلخشر

أ.د. صادق عمر مكنون

أ.د. أحمد سعيد عبيدون

د. حسن صالح الغلام العمودي

د. طه حسين الحضرمي

- المواضيع المنشورة تعبّر عن آراء أصحابها ولا تعبّر بالضرورة عن رأي المجلة.

- ترتيب المواد جاء وفق ضرورات فنية إخراجية.

- المجلة غير ملزمة بإعادة أي مادة تتسلمها للنشر، سواء نُشرت أم لم تُنشر. ولا تلتزم بنشر المقالات المرسلة إليها بخط اليد.

مراسلات المجلة

info@hadramout.center

موقعنا على الشبكة الإلكترونية

www.hadramout.center

العنوان: المكلا - حي الشهيد - (معهد باشريف سابقًا) - ت: 350135

أضواء



ص 26 د. أنور سالم باكركر

دراسات



ص 38 د. أبو بكر حسين مقيبل

ترجمة



ص 60

ترجمة: أ.د. خالد عوض بن مخاشن - محمد عوض باظفر - عوض محمد بن ماضي - عبدالحكيم صالح بن بدر - سالم محمد باسلوم

حوار



مع الأستاذ حسين محمد باراس

رحلة تصحيح الأوضاع التجارية وتطوير مجتمع الأعمال الحضرمي في السعودية

ص 33

شخصيات

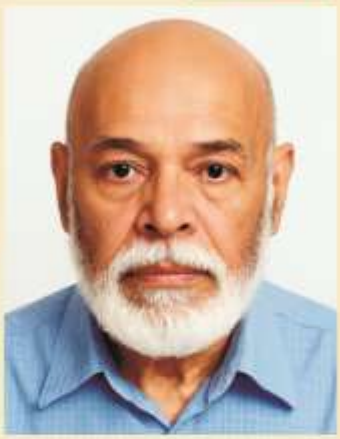


مِن عينات إلى المقطّم..
رحلة عالم تقيٍّ ونفس زكية

أنس علي باحنان

ص 94

نـقـد





من نقد السومحي: باكثير.. حياته من شعره

د. أحمد هادي باحارثة

ص 44



قراءة في الأدب النِّسْوي الحضرمي
خديجة بنت علي الحبشي أنموذجاً

د. زهير برك الهويمل

ص 53

استطلاع

صيف عاصمة دوعن الإدارية
حاذر ما دوعن إلا بصيف



يوسف عمر باسنبل

ص 97

كتابات

سؤال أحمد شوقي الكبير : كم قبراً تَسَعُ هذه الدار ؟



حديث البداية

- **الهجرة أو الإحباط** ..... أ. د. عبدالقادر علي باعيسى - رئيس التحرير.... 3

أضواء

- **طلب السلطان عوض القعيطي قرضاً لبناء عمارة في عدن**
أ. د. عبدالله سعيد بن جسّار الجعيدي 15

أدب الرحلة في حضرموت.. رحلة الحسن بن عبدالله الكاف - أنموذجاً -
أ.د. محمد يسلم عبدالنور 19

نـقـد

- **باحريز أمير الشعر الشعبي (ج2)** ..... أ.د. عبدالعزيز الصيغ..... 49

ترجمة

- **هجرة الحضارمة لأريتريا ودورهم في المجالات الاقتصادية (ج1)**... جوناثان ميران
ترجمة: منى عمر العماري 74

كتابات

- **بين ثقافتين** ..... إيمان العولقي 90

شخصيات

- **حضارمة استثنائيون.. السيدة الجليلة فاطمة عبدالقادر بن علوي العيدروس (ج4)**.. 92
شكري نصر مرسال

إبـداع

- **سقطرى** (شعر) ..... وردة بلسود 111
- **على السلالم** (سرد) ..... وصالح بحرق 112

توقيع قلم

- **حياة الريف.. كنز معرفي**..... أحمد بن عبداللطيف باوزير 114

محافظ حضرموت يناقش خطة مركز حضرموت للدراسات للعام 2025 ويتسلم كتاباً عن تاريخ المكلا



المكلا: 14 أغسطس 2025/ إعلام حضرموت:

التقى محافظ حضرموت الأستاذ مبخوت مبارك بن ماضي، اليوم بالمكلا، قيادة مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر، برئاسة الدكتور عبدالله سعيد الجعيدي، وأعضاء اللجنة العلمية بالمركز.







ناقش المحافظ مع قيادة المركز مقترح خطته الثقافية والأدبية والتاريخية للعام القادم 2025، والتي تهدف إلى إنعاش الواقع الثقافي في المحافظة، كما اطلع المحافظ على أنشطة المركز خلال العام الحالي 2024، ووجه بضرورة تفعيل الأنشطة الثقافية والأدبية والتاريخية، مشدداً على أن المركز يمثل وجهة ثقافية وتاريخية مهمة في ظل الظروف الراهنة.

خلال اللقاء، أعرب رئيس وأعضاء اللجنة عن شكرهم للمحافظ على دعمه المستمر للقطاع الثقافي، وأهدوا له نسخًا من أحدث إصدارات المركز، وهي (مجلة حضرموت الثقافية).

وتسلم المحافظ نسخة من كتاب (كلام عن المكلا وأهلها) للدكتور صالح أبوبكر بن الشيخ أبوبكر، الذي أهداه له رئيس المركز الدكتور عبدالله الجعيدي.

ويستعرض الكتاب تفاصيل مدينة المكلا وتطورها الحضاري على مدى ثلاثة قرون، متناولاً الحياة الاقتصادية والثقافية والوعي السياسي، بالإضافة إلى تسليط الضوء على الشخصية المكلاوية، كما يروي المؤلف شهادته على الستة عقود الأخيرة من تاريخ المدينة التي اتسمت بسرعة الأحداث ودراماتيكية التحولات.

وأعرب المحافظ عن شكره للدكتور صالح بن الشيخ أبوبكر، مثمنًا إخلاصه لحضرموت وحرصه على خدمتها عبر المجالات العلمية والتوثيقية.



مركز حضرموت للدراسات يوقع اتفاقية تعاون مع مؤسسة نداء حضرموت بالرياض



إعلام المركز / خاص

وقع رئيس مجلس إدارة مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر بمدينة الرياض اتفاقية شراكة مع مؤسسة نداء حضرموت يمثلها الدكتور مبارك قصعور رئيس المؤسسة.

وقد قضى الاتفاق بالتعاون بين الطرفين في خدمة الموروث الثقافي الحضرمي، وإسناد برنامج جذور حضرمية بالجوانب التاريخية المتعلقة بفقرة أعلام من تاريخ حضرموت وتقارير مدن حضرموت، وهي جزء من كل حلقة في البرنامج.

وتأتي هذه الاتفاقية لتوسيع الشراكات مع الجهات ذات المجال الثقافي للوصول إلى أكثر من منطقة ضمن رسالة المركز.

د. إلهام مانع الباحثة بجامعة زيورخ السويسرية تزور مركز حضرموت للدراسات التاريخية



إعلام المركز / 28 يونيو 2025م:

زارت د. إلهام مانع الأستاذة المشاركة في تخصص العلوم السياسية بمعهد العلوم السياسية بجامعة زيورخ السويسرية مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر بغرض التعرف على نشاط المركز وأهدافه والاستفادة من الإنجازات حققها المركز خلال الأعوام الماضية.

من جانبه رحب أ.د عبدالقادر باعيسى نائب رئيس المركز بهذه الزيارة التي أطلع فيها السيدة إلهام مانع على سياسة المركز ونشاطه منذ تأسيسه، ومدى توسعه في الدراسات والمناشط الثقافية المتعلقة بتاريخ حضرموت وثقافتها.

ودار خلال اللقاء نقاش أسهم فيه أ.د. سالم باصريح، و أ.د.رزق الجابري عضوي اللجنة العلمية بالمركز.

الجدير بالذكر أن الزيارة تأتي بتنسيق من مركز مداد حضرموت للأبحاث والدراسات الاستراتيجية بحضور الباحث حسن بن عبيداللاه مدير وحدة الدراسات الميدانية بمركز مداد.



منتدى عميد الوفاء الثقافي ينفذ فعالية بعنوان (النظام المائي التقليدي بوادي حضرموت (نظام الخَيِّلْ) وأهمية المحافظة عليه)



إعلام المركز / 31 مايو 2025م:

نفذ منتدى عميد الوفاء الثقافي فعالية بعنوان (النظام المائي التقليدي بوادي حضرموت (نظام الخَيِّلْ) وأهمية المحافظة عليه) ألقاها المهندس أحمد عوض بن هامل وأدارها أ. سعيد الحاج.

حيث بدأت الفعالية بتعريف عن مصطلح الخيّل الذي حافظ على مياه السيول وتقسيمها بنظام مدروس بين المستفيدين منذ زمن.

وتميزت الفعالية بشرح نماذج حقيقة من واقع النظام في الوقت الحالي رغم انحسار العمل به، ولكن حرصت الفعالية على التوصية للعمل به وتشجيع المزارعين على الحفاظ على المياه والتعاون فيما بينهم.

واختتمت الفعالية بمداخلات الحضور عبر الزوم بالقاعة، والحضور بتساؤلات ومداخلات.









إهداءات من معهد العمران لمركز حضرموت للدراسات التاريخية

إعلام المركز/ خاص:

في إطار التواصل العلمي بين مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر والمؤسسات الثقافية المحلية قام أ. عمر بن عقيل نائب رئيس معهد العمران للدراسات وبناء القدرات بالمكلا بزيارة إلى المركز قدم خلالها عدداً من إصدارات المعهد منها:

- الماضي الصحيح والحاضر الصريح بالدارجة والفصيح لسعيد علي بن مخاشن.
- رجال في ذاكرة التاريخ لأحمد عوض باوزير.
- رئيس قضاة السلطنة القعيطية العلامة عبدالله عوض بكير..

وجرى خلال اللقاء الحديث عن إصدارات المركز ومجلة حضرموت الثقافية والدور التنويري الذي يجدر أن تنهض به المؤسستان في ثقافة حضرموت.



منتدى عميد الوفاء ينفذ فعالية (من أسرار الأغنية الحضرمية)





إعلام المركز / 21 يونيو 2025م:

نفذ منتدى عميد الوفاء الثقافي مساء السبت 21 / 6/ 2025 فعالية بعنوان (من أسرار الأغنية الحضرمية) ألقاها الأستاذ أنور سعيد الحوثري وأدارها الأستاذ محمد منير الجعيدي متحدثاً عن الأغنية الحضرمية وتنوعها ووصولها إلى الخليج بالدان الحضرمي والهبيش ومعرجاً على الاسماء التي أسهمت في بروزها وموهبة الشاعر حسين أبوبكر المحضار في تطويع لحن الهبيش للغناء، بالإضافة إلى عدد من الفنانين الذين أهمل ذكرهم عند الحديث عن الأغنية الحضرمية مثل الفنان سعيد عبدالله سواد.

وفي خلال اللقاء قارن الفنان الحوثري بين بعض ألحان الأغاني الخليجية وتقليدها لبعض الألحان الحضرمية المعروفة من غير أن يتم ذكر أصحابها، منوهاً إلى أهمية إنشاء مؤسسة تهتم بحفظ الحقوق الفنية.

صاحب الفعالية عدد من المقطوعات الفنية بصوت الفنان أنور الحوثري وصحبة عدد من العازفين.

وفي ختام الفعالية تمت المداخلات من عدد من الحضور داخل القاعة وعبر منصة الزوم.



اللجنة العلمية بمركز حضرموت للدراسات التاريخية تعقد اجتماعها الخامس

إعلام المركز/ خاص:

عقدت اللجنة العلمية بمركز حضرموت للدراسات التاريخية الأربعاء 23/ 7/ 2025م اجتماعها الخامس للعام 2025م ناقشت فيه وأقرت عدداً من الموضوعات من أبرزها الموافقة على طباعة عدد من الرسائل العلمية، وتشكيل لجنة علمية مصغرة لندوة (تاريخ الملاحة البحرية في حضرموت) برئاسة أ.د. رزق سعد الله الجابري وعضوية أ.د. عبدالقادر علي باعيسى، و د. لمياء بن صنة، و د. عبدالعزيز بازرعة، والتحضيرات الجارية للمؤتمر العلمي السابع للمركز.



منتدى عميد الوفاء الثقافي في محاضرة بعنوان (مصادر تاريخ حضرموت بين الواقع والمأمول) للدكتور محمد أبوبكر باذيب



إعلام المركز / 12 يوليو 2025م:

استضاف منتدى عميد الوفاء الثقافي يوم السبت 12 يوليو 2025م في قاعته بحي الشهيد خالد مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر الدكتور محمد أبوبكر باذيب عبر تطبيق الزوم متحدثا عن (مصادر تاريخ حضرموت بين الواقع والمأمول) استعرض في محاضرته تعريف المصادر التاريخية، والفرق بينها وبين سائر المؤلفات، ومسألة تجدد هذه المصادر وكيفية الحصول عليها وإخراجها للقراء والباحثين، و أهمية الرجوع إلى المصادر الأولى في بناء الأحكام والتصورات التاريخية الصحيحة، مؤكدا أن تاريخ حسان الذي قام بتحقيقه هو المصدر الأهم في تاريخ حضرموت من وجهة نظره، مشيرا إلى واجب المؤرخ والباحث المعاصر وكيف يصل إلى تقييم المصادر، وكيف يكون موقفه تجاه التحذيرات التي تشاع عن بعض تلك المصادر؟ وهل هناك تاريخ شامل لحضرموت على أرض الواقع؟ وقد أعقب المحاضرة عدد من النقاشات. أدار الفعالية أ. سعيد سالم بلفخر.



إدارة مركز حضرموت تزور مؤسسة العون للتنمية ومكتب المجلس الثقافي البريطاني بالمكلا

قامت إدارة مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر خلال هذا الأسبوع 15 و 22/ 7/ 2025م بزيارة مؤسسة العون للتنمية ومكتب المجلس الثقافي البريطاني بمدينة المكلا في إطار تعزيز الشراكات الثقافية وبحث مجالات التعاون المشترك.

وخلال الزيارة التقت إدارة المركز بقيادة مؤسسة العون حيث ناقش الجانبان أوجه الدعم الممكنة للمشاريع البحثية والتوثيقية التي ينفذها المركز خصوصاً في مجالات حفظ التراث الحضرمي ونشر الدراسات التاريخية. وقد أبدى د. عبدالله بن عثمان استعداد مؤسسة العون لدراسة سبل دعم البرامج المستقبلية التي تسهم في خدمة المجتمع والهوية الثقافية للمنطقة.

كما شملت الزيارة مكتب المجلس الثقافي البريطاني بالمكلا حيث تم تبادل وجهات النظر حول فرص التعاون الثقافي بين الجانبين بما يسهم في تطوير الإنتاج العلمي في حضرموت، وكان في استقبال وفد المركز د. عمر التميمي منسق برنامج اللغة الإنجليزية، وقد عبر أ. د. عبدالله الجعيدي رئيس المركز عن سعادته بهذه الزيارات وشكره للقائمين على هذه المؤسسات الرائدة والداعمين لها. رافقه أ. عوض بلفقيه مدير إدارة البرامج والمشاريع.

وتأتي هذه الزيارات ضمن جهود المركز لتوسيع علاقاته المؤسسية محلياً ودولياً، وفتح آفاق جديدة للتعاون مع الجهات الداعمة للعمل الثقافي والتاريخي.





مهدي الجابري يُحلّق بالحضور في أمسية شعرية ضمن منتدى عميد الوفاء الثقافي



إعلام المركز / 27 يوليو 2025م:

في ليلةٍ تجلّى فيها الشعرُ على أبهى صوره وامتزج فيها الحرفُ بالوجدان استضاف منتدى عميد الوفاء الثقافي التابع لمركز حضرموت للدراسات التاريخية الشاعر مهدي محمد صالح الجابري في أمسية بعنوان: (الشاعر مهدي الجابري في قراءات شعرية وسيرة أدبية) ضمن برنامجه الثقافي الذي يحتفي بالإبداع ويمنح الكلمة فضاءً من الضوء والتقدير.

أدار الأمسية الإعلامي صالح سعد باشنتوف الذي قدّم ضيف اللقاء بأسلوبٍ مفعمٍ بالاحترام والتقدير مُفتتحًا بكلمة استهلّها بالترّحيب بالحضور ومؤكدًا على أهمية الشعر بوصفه مرآة للهوية، وصوتًا للذات والمجتمع.

الشاعر مهدي الجابري الحاصل على الإقامة الذهبية في دولة الإمارات عن فئة المبدعين قدّم خلال الأمسية باقة من نصوصه الشعرية التي تنوّعت بين التجلي العاطفي والتأمل الإنساني والرؤية الوطنية وكان لصوته المتزن وأسلوبه الأخّاذ وقعٌ خاص على الحضور الذي تفاعل مع كل بيت ومشهد من قصائده.

وتخللت فقرته إضاءات من سيرته الأدبية حيث استعرض محطات مهمة من تجربته الشعرية من مشاركاته في شاعر المليون إلى حضوره في المهرجانات والمحافل الثقافية الكبرى مثل مهرجان الشيخ زايد التراثي، ورواق أديبات ومثقفات المدينة المنورة ومعرض أبوظبي الدولي للكتاب.

كما أضاء الجابري جانبًا من تجربته الإعلامية مستعرضًا لقاءاته في عدد من القنوات والمنصات ومنها تلفزيون أبوظبي قناة الإمارات الشرقية كلباء، وإذاعة سيئون وغيرها إلى جانب ما كُتب عنه في صحف ومجلات عربية عدة.

عقب القراءات فُتح باب الحوار مع الحضور في فقرة تفاعلية امتدت لعشرين دقيقة طُرحت خلالها أسئلة ثرية ومداخلات نوعية تناولت التجربة الشعرية وملامح الهوية في نص الجابري وكذلك رؤيته لمستقبل القصيدة النبطية في ظل التغيرّات الثقافية المعاصرة.

وفي ختام الأمسية وجّه المنتدى تحية شكر وامتنان للشاعر مهدي الجابري تقديراً لعطائه الشعري وأدائه المتفرّد كما عبرّ عن فخره بالحضور النخبوي وتفاعله الراقي مؤكدًا استمرار مسيرته في احتضان الإبداع وتنظيم فعاليات نوعية تُكرّس للمشهد الثقافي العربي أفقًا من الجمال والوعي.



د. عبدالعزيز بازرعة يسلّط الضوء على إرث الحاج أبوبكر عمر بازرعة في أمسية ثقافية بمنتدى عميد الوفاء



إعلام المركز / 9 أغسطس 2025م:

في أمسية ثقافية حملت عبق الوفاء واستحضرت صفحات مشرقة من العطاء نظّم منتدى عميد الوفاء الثقافي التابع لمركز حضرموت للدراسات التاريخية فعالية بعنوان: (الحاج أبوبكر عمر بازرعة، إسهاماته الخيرية والتعليمية والتنموية) استضاف فيها د. عبدالعزيز سعيد بازرعة أستاذ التاريخ الإسلامي المشارك بكلية الآداب جامعة حضرموت، وذلك في ضمن برنامجه الثقافي الهادف أيضا إلى توثيق مسيرة الرواد وإبراز أثرهم في المجتمع.

أدار اللقاء محمد الجويد الشين مستهلاً بكلمة ترحيبية بالحضور ومقدمة تعريفية بالضيف وموضوع الأمسية، ممهّدًا لانطلاق المحاضرة.

بدأ د. عبدالعزيز بازرعة محاضرته بسرد سيرة الحاج أبوبكر عمر بازرعة، مستعرضًا أبرز إنجازاته ومبادراته في مجالات التعليم والتنمية والعمل الخيري، ودوره الريادي في تأسيس المركز التجاري للسيارات والمحركات وكونه الوكيل الحصري لشركة تويوتا في الشرق الأوسط، إلى جانب دعمه للمشاريع الإنسانية والمؤسسات التعليمية.

كما تناولت المحاضرة ملامح شخصيته القيادية ورؤيته التي جمعت بين نجاح الأعمال وروح البذل، مبرزة أثره الممتد في حضرموت وخارجها، ومكانته بين الشخصيات التي أسهمت في بناء المجتمع ثقافيًا واقتصاديًا.

عقب المحاضرة، فُتح باب النقاش مع الحضور في فقرة تفاعلية شهدت أسئلة ومداخلات قيّمة أغنت الفعالية، وتطرّقت إلى الإرث الإنساني للحاج بازرعة والدروس يمكن استلهامها من قبل لأجيال القادمة.





منتدى عميد الوفاء الثقافي ينفذ فعالية بعنوان (ابن حسان المفترى عليه)



إعلام المركز / خاص

نفذ منتدى عميد الوفاء الثقافي التابع لمركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر مساء السبت 23/ 8/ 2025م فعالية بعنوان (ابن حسان المفترى عليه) قدمها الشيخ عوض سالم بن حمدين وأدارها أ. عمار سامي سباع.

تناولت الفعالية شخصية الفقيه الشافعي عبدالرحمن بن علي بن حسان القاضي وصاحب الفتاوى في الإرث والحج وبيع العهدة التي انتشرت في حضرموت، وذكره علماؤها مثل باقشير وباكثير وغيرهم.

وتميزت الفعالية بمداخلات الحضور وإبداء الرأي والتساؤلات.

علماً بأن منتدى عميد الوفاء الثقافي يقدم فعالياته بشكل مستمر مرتين في الشهر.



جلسة حوارية شبابية مع نخبة من الخبراء بمركز حضرموت للدراسات التاريخية





عقدت في مركز حضرموت للدراسات التاريخية جلسة حوارية بعنوان "المبادرات الشبابية نحو تحقيق أهداف التنمية المستدامة على واقع اليمن" (تنفيذ مؤسسة الصندوق الخيري للطلاب المتفوقين ومؤسسة حضرموت للدراسات الاستراتيجية والتنموية) تحدث فيها نخبة من الخبراء للحديث عن بعض أهداف التنمية المستدامة.

الجلسة كانت فرصة حقيقية لتبادل الأفكار، وبحث كيفية دعم المبادرات الشبابية ليكون لها أثر ملموس على الأرض، خاصة في ضوء التحديات التي يواجهها الوطن.

تمحور النقاش حول تعزيز المبادرات الشبابية ودعمها لتكون قوة فاعلة نحو التنمية على أرض الواقع. وأكد المشاركون على أهمية الشراكة بين الشباب والمؤسسات لتحقيق نتائج ملموسة ومستدامة.

خرج المشاركون بتوصيات مهمة تدعو لتعاون أكبر بين الشباب والمؤسسات لكي تتحقق أهداف التنمية المستدامة.



منتدى عميد الوفاء الثقافي ينفذ فعالية (لهجة مدينة المكلا - ملامح الاتفاق والافتراق عن العربية الفصحى)



إعلام المركز / خاص 6 سبتمبر 2025م :

نفذ منتدى عميد الوفاء الثقافي فعالية بعنوان (لهجة مدينة المكلا - ملامح الاتفاق والافتراق عن العربية الفصحى) تحدث فيها أ.د. عبدالله صالح بابعير، وأدارها أ. أيمن سالم باحميد.

شملت مصطلحات ومفاهيم: اللهجة واللغة والازدواجية اللغوية والثنائية اللغوية واللغة الأم واللغة الرسمية واللغة القومية وكذلك اللهجات العربية القديمة، وتكوُّن العربية الفصحى.

وعن اللهجات العربية الحديثة، وعوامل تكوُّنها، وطوائفها (قُرْبًا وبُعْدًا من العربية الفصحى) وعن الخصائص العامة للَّهجات العربية الحديثة (ومنها لهجةُ مدينة المكلا).

وفي ختام الجلسة شارك الحاضرون بمداخلات عن الجلسة واستفسارات أجاب عليها البروفيسور بابعير.

يذكر أن هذه الفعاليات مستمرة في منتدى عميد الوفاء في كل شهر فعالياتان.



مركز حضرموت للدراسات التاريخية يواصل التحضير لندوة تاريخ الملاحة البحرية في حضرموت

اجتمعت إدارة مركز حضرموت للدراسات التاريخية صباح الأحد 1/ 9/ 2025م مع السلطة المحلية بمديرية الشحر ممثلة بالأستاذ عبده كليواش مدير مكتب الثقافة بالمديرية نيابة عن أ. عادل باعكابة مدير المديرية مطلعا على آخر التجهيزات والتحضيرات التي تمت من قبل مركز حضرموت للدراسات ومدى جاهزية السلطة لاحتضان الندوة في مدينة الحامي التابعة للمديرية.

حيث تحدث أ.د عبدالله الجعيدي رئيس المركز عن الندوة التي يشارك فيها 17 باحثاً علمياً والاستعداد التام من قبل لمركز لتنفيذ الندوة.

فيما قال رئيس لجنة الندوة أ.د رزق الجابري إن اللجنة العلمية بذلت الجهد العلمي الكبير لاختيار أفضل الأبحاث وأن اللجنة وصلت إلى نسبة 90٪ من الجاهزية بانتظار إعلان التاريخ للندوة.

من جانبه قال أ. عبده كليواش إن اهم ما في الندوة القيمة العلمية التي ستخلدها الندوة وسيبقى أثرها لأعوام قادمة.

علماً أنه سيتم إعلان إقامة الندوة في الأيام القادمة.



15
العدد (37)
يوليو
سبتمبر
2025م

إن الوثائق مثل النجوم
تستمد ضياءها من ذاتها،
لكنها لا تبخل بنورها
على من اقترب منها،
وحاول استنطاقها

وثائق تاريخية من حضرموت

طلب السلطان عوض القعيطي قرضاً لبناء عمارة في عدن



أ. د. عبدالله سعيد
بن جسار الجعيدي

محضر اجتماع مجلس السلطان المنعقد يوم 7 جماد آخر 1382هـ/ الموافق 4 / 11 / 1962م:

الحاضرون:

- وزير السلطنة.
- الشيخ عبدالله أبوبكر بارحيم
- عمر عبدالله باسويد
- وقد حضر الاجتماع نائب وزير السلطنة

(طلب عظمة السلطان قرضاً لبناء عمارة في عدن)

استمع المجلس إلى التقرير الذي قدَّمه نائب وزير السلطنة (السيد أحمد بن محمد العطاس) استناداً إلى قرار مجلس الدولة فوق العادة رقم (1) بتاريخ 9 / 5 / 82هـ الموافق 8 / 10 / 62م بخصوص القرض الذي يطلبه عظمة السلطان لبناء بيت له في عدن على القطعة التي ستؤجرها له حكومة عدن بالمعلا تحت رقم 1/ 22، وبعد النظر في هذا الموضوع قرر المجلس تقديم التوصية إلى مجلس الدولة للموافقة على إعطاء مبلغ القرض المطلوب لإنشاء هذه البناية في عدن؛ حيث إن القرض المذكور سيتم تسديده في خلال مدة معقولة تقدر بخمس أو ست سنوات.

ولغرض ضمان وتسديد القرض الآنف الذكر فالمجلس بعد بحث الأمر من كل نواحيه يوصي باتخاذ الترتيبات الآتية بعد موافقة مجلس الدولة على القرض المذكور:

(1) على وزير السلطنة أن يرد على حكومة عدن بقبول عرض الإجار وشروطه، وأن يدفع المبلغ المطلوب كوديعة وقدره 80/ 19.358 شلن (تسعة عشر ألف وثلاثمائة وثمانية وخمسين شلن وثمانين سنت حسبما جاء في خطاب ضابط الأراضي بعدن رقم 4669/ بتاريخ 19 / 9/ 1962م.

(2) على الوزير أن يرتب وضع الخرائط اللازمة مع المهندس الذي وضع التصميم لهذه البناية ويدفع له الأجر اللازم وتقدم الخرائط إلى الدوائر المختصة بعد.

(3) بما أن وزارة الطيران بعدن تستأجر مثل هذه البنايات بإجار مناسب ومضمون لمدة خمس سنوات في المرحلة الأولى فإنه من الأوفق عرض التصميمات، التي سيقوم بها المهندس، على المسئولين في هذه الوزارة والتفاوض معهم بشأن تأجير هذه البناية لهم بالشروط التي يراها الوزير مناسبة، ولا مانع من إجراء أي تعديل يقترحونه على خريطة هذه البناية لتلائم أغراضهم.

(4) على وزير السلطنة أن يتندب من يريده للقيام بالاتصالات اللازمة التحقيق ما ذكر في البندين 2 و 3 وعلى هذا المندوب أن يقوم أيضاً بما يأتي:

(أ) أن يدرس دراسة كاملة موضوع ضريبة الدخل والضرائب والرسوم الأخرى التي ستفرض على هذه البناية أو إيرادها السنوي.

(ب) أن يضع شروط المقاولة مع لجنة مؤلفة من شخصين أو ثلاثة من تجار الحضارم بعدن ممن لهم خبرة كاملة بشئون البناء، مثل الشيخ -سعيد أحمد بازرعة وغيره، حسب النظام المتبع في عدن.

(ج) أن ترسل المقاولة في مناقصة للمقاولين المعترف بهم في عدن ليقدموا مناقصاتهم في الميعاد الذي تراه اللجنة مناسب على اسم الجهة أو الشخص الذي يتفقون عليه.

(د) على اللجنة أن تقبل عرض المقاول الذى ترى صلاحيته واستعداده للقيام بالعمل المطلوب، وعلى المندوب بعد ذلك أن يمضي شروط المقاولة معه نيابة عن عظمة السلطان، وعلى وزير السلطنة أن يرتب الجهة التي ستدفع المال للمقاول في الأوقات التي تحددها المقاولة.

(هـ) إذا رأى المندوب أن الضرائب التي ستفرض على إيرادات هذه البناية غير معقولة فعليه ألا يقدم على اتخاذ الخطوات المذكورة بالبندين (ج) و(د) قبل الاتصال بوزير السلطنة وعرض الأمر عليه.

(5) بما أن المعلومات الأولية عن تكاليف هذه البناية تقول إنها ستكون في حدود مليون ونصف شلن تقريبًا فالمجلس يوصي بأن يكون صرف المبلغ اللازم على مراحل حسب شروط المقاولة وسواء تم صرف هذا المبلغ كله أو أقل منه فعلى وزير السلطنة أن يتخذ التدابير والاحتياطات اللازمة لمرجوعية هذا القرض الى خزينة الدولة ويرى المجلس أن تأخذ الحكومة ربحًا على مبلغ القرض المطلوب مقداره 2٪ سنويًا.

(6) أن أي مبلغ يدفع كإيجار مقدم لهذه البناية من الجهة التي ستستأجرها للمدة التي يتفق عليها ينبغي أن يدفع كله من أصل مبلغ القرض.

(7) إذا لوحظ أن ضريبة الدخل ستأخذ حصة كبيرة من إيجار هذه البناية إذا كانت على اسم السلطان بمفرده فالمجلس يوصي أن يشرك السلطان أولاده معه في ملكية البيت



محضر اجتماع مجلس السلطنة المنعقد يوم ٢ جمادى آخر ١٣٨٢هـ الموافق ٤/١١/١٩٦٢م

الحاضرون:
وزير السلطنة
الشيخ بوبكر عبد الله بارجسم
* سعيد الله باسهيه

رئاسة حضرة الاجتماع نائب وزير السلطنة

طلب عظمة السلطان قرارا لبناء عمارة في عدن.

استمع المجلس الى التقرير الذي قدمه نائب وزير السلطنة (السيد احمد بن سعد البكري) استنادا الى قرار مجلس الدولة تحت العادة رقم (١) بتاريخ ١/١٠/١٣٨١هـ الموافق ٨/٣/١٩٦٢م بخصوص القرار الذي يطلبه عظمة السلطان لبناء بيت له في عدن على القاعدة التي سطروها له حكومة عدن بالمذكرة رقم ١/٢٢ بتاريخ العاشر في هذا الموضوع قرر المجلس تقديمه الى مجلس الدولة للموافقة على اعطاء مبلغ القرض المطلوب لانشاء هذه البناية في عدن حيث ان القرض سيتم تسديده في خلال مدة معقولة تقدر بخمس او ست سنوات.

ويقترح ان يتعهد القرض الانف الذكر المجلس بعد بعد الامر من كل نواحيه بوجي باتخاذ الترتيبات الآتية بعد موافقة مجلس الدولة على القرض المذكور:

(١) على وزير السلطنة ان يرد على حكومة عدن بقبول عرض الايجار وشروطه وان يدفع المبلغ المطلوب كوديعة وقدره ١٩٢٣٥٨/٨٠ شلن (تسعة عشر الف وثلاثمائة وثمانية وخمسين شلن وثمانين سنتيما) حسبما جاء في خطاب شاهد الاراضي بعدن رقم ٦٦٩٩/ل بتاريخ ١١/٩/١٩٦٢م.

(٢) على الوزير ان يرتب وضع الخرائط اللازمة مع المهندس الذي وضع التصميم لهذه البناية ويدفع له الاجر اللازم ويقدم الخرائط الى الدوائر المختصة بعدن.

(٣) بما ان وزارة الاشغال بعدن تستأجر مثل هذه البنايات بايجار مناسب ويضمن لمدة خمس سنوات في المرحلة الاولى فانه من الاوفق عرض التصميمات التي سيقوم بها المهندس على المسئولين في هذه الوزارة والتفاوض معهم بشأن تأجير هذه البناية لهم بالشروط التي يراها الوزير مناسبة. ولا مانع من اجراء اي تعديل بالتصميم حسبما تقتضيه طبيعة هذه البناية لتلائم اغراضهم.

(٤) على وزير السلطنة ان يطلب من بريده للقيام بالاتصالات اللازمة لتحقيق ما ذكر في البندين ٢ و ٣ وعلى هذا المندوب ان يقوم ايضا بما يأتي:

يتبع .....

على ألا يكون لهم حق المطالبة بأي شيء من حاصلات البيت مادام والدهم على قيد الحياة.

(8) لغرض ترتيب ما جاء في البند (7) على وزير السلطنة أن يتصل بحكومة عدن بعد أخذ موافقة السلطان كتابيًا على ذلك.

(9) أن يرتب وزير السلطنة مع عظمة السلطان الكتابة اتفاقية حول هذا القرض وطريقة تسديده من حاصلات البناية يوقعها عظمة السلطان بحضور المستشار المقيم في المجلس على أن يوقع المستشار مع رئيس القضاة كشهود ويوقع عن الحكومة وزير السلطنة.

(10) أي تفاصيل أو احتياطات أخرى من الممكن أن يقوم بها مجلس السلطان بتفويض من مجلس الدولة.

رئيس المجلس

(توقيع)

كاتب المجلس

17
العدد (37)
يوليو
سبتمبر
2025م

التعليق

تعد معاهدة الاستشارة بين السلطة الاستعمارية البريطانية في عدن، وكل من سلطتي حضرموت (القعيطية 1937م) و(الكثيرية 1939م) البداية الفعلية لظهور حضرموت الحديثة من حيث البناء المؤسسي للدولة، الذي جاء على أنقاض مؤسسات الحكم التقليدية، وبالنسبة للسلطنة القعيطية فإن هرم الحكم فيها في عهد نظام الاستشارة البريطانية تكون من السلطان، والمستشار البريطاني، ومجلس الدولة ومجلس السلطان، ووزير السلطنة (السكرتير) والسكرتير الحربي، وقد تأسس مجلس الدولة القعيطي في 24 مارس 1940م، ويمثل المجلس الهيئة الاستشارية العليا، والمرجع لكل الشؤون، وجميع القضايا، ومصدر القوانين.

ويتألف المجلس من السلطان رئيسًا، ومن أعضاء رسميين، وغير رسميين ومن أعضاء مندوبين عن مختلف الوية الدولة، وكلهم معيَّنون، والأعضاء الرسميون هم: السلطان، والمستشار البريطاني، وولي العهد، ووزير السلطنة (السكرتير)، ونائبه، والسكرتير المالي، ورئيس القضاة، وناظر المعارف. والأعضاء غير الرسميين في بداية خمسينيات القرن الماضي هم: الشيخ أبوبكر عبدالله بارحيم، وأحمد ناصر البطاطي، والشيخ أحمد بن عمر بازرعة، والمندوبون عن الألوية الشيخ عمر باسويد عن دوعن، والشيخ أبوبكر باذيب عن شبام، والسيد حسين العيدروس عن الشحر، والشيخ مسلم بلعلا عن المكلا [صحيفة الأخبار لسان حال الحكومة القعيطية، العدد5، 31 مايو 1953م، ص15]. أما مجلس السلطان اللاحق من حيث التأسيس لمجلس الدولة فقد أسسه السلطان عوض بن صالح القعيطي عام، 1956م عقب وفاة والده ليساعده في حكم البلد ابيه، ويمكن نطلق عليه مجلس الدولة المصغر، فغالب أعضائه هم أعضاء في مجلس الدولة، ويُنَاطُ به النظر في الملفات، والخطابات المرفوعة لمجلس



(ص ٢)

(أ) ان يدرس دراسة كافية موضوع شريعة الدخل والضرائب والرسوم الاخرى التي ستفرض على هذه البناية او ايرادها المنصوص .

(ب) ان يضع شروط المناقصة مع لجنة مؤلفة من شخصين او ثلاثة من تجار المحمارم بعدن من لهم خبرة كافية بشئون البناء ، مثل الشيخ محمد سعيد احمد بازرعة وغيره ، حسب النظام المتبع في عدن .

(ج) ان ترسل المناقصة في مناقصة المناقصين المعترف بهم في عدن ليقدموا مناقصاتهم في الميعاد الذي تراه اللجنة مناسب على اسم الجهة او الشخص الذي يطلق عليه .

(د) على اللجنة ان تقبل عرض المناقص الذي ترى ملاءته واستعداده للقيام بالعمل المطلوب ، وعلى المندوب بعد ذلك ان يعطي شروط المناقصة بعد موافقة من جلالة السلطان ، وعلى وزير السلطنة ان يرتب الجهة التي ستدفع المال للمناقص في الاوقات التي تحددها المناقصة .

(هـ) اذا رأى المندوبان ان الضرائب التي ستفرض على ايرادات هذه البناية غير معادلة فعليه الا يقدم على اعطاء العطاءات المذكورة بالبندين ج و د قبل الاتصال بوزير السلطنة وعرض الامر عليه .

(و) بما ان المعلومات الاولية عن تكاليف هذه البناية تدل انها ستكون في حدود ثلاثين ربية ، فلن تقريبا فالمجلس يوصي بان يكون سقف المبلغ اللازم على مراحل حسب شروط المناقصة وسواء تم صرف هذا المبلغ كله او اقل منه فعلى وزير السلطنة ان يتخذ التدابير والاحتياطات اللازمة لمرجوعة هذا القرض الى خزينة الدولة ويرى المجلس ان تأخذ الحكومة رهنا على مبلغ القرض المطلوب مقداره ٢٥ مئة .

(ز) ان اي مبلغ يدفع كأجار مقدم لبدء البناية من الجهة التي ستستأجرها للمدة التي يتفق عليها ينبغي ان يدفع كله من اصل مبلغ القرض .

(ح) اذا لوحظ ان شريعة الدخل ستأخذ حصة كبيرة من ايجار هذه البناية اذا كانت على اسم السلطان بمفرده فالمجلس يوصي ان يشترك السلطان اولاده معه في ملكية البيت على الا يكون لهم حق المطالبة باي شيء من حاصلات البيت مادام والدهم على قيد الحياة .

(ط) لدوائر ترتيب ماجاء في البند (ز) على وزير السلطنة ان يتصل بحكومة عدن بعد اخذ موافقة السلطان كتابيا على ذلك .

(ي) ان يرتب وزير السلطنة مع جلالة السلطان كتابة اتفاقية حول هذا القرض وطريقة تسديد من حاصلات البناية ويوقعها جلالة السلطان بحضور المستشار المقيم في المجلس على ان يوقع المستشار من رئيس القضاء كشهود يوقع عن الحكومة وزير السلطنة .

(ك) اذا تفاصيل او احتياطات اخرى من الممكن ان يقوم بها مجلس السلطان بتوفيق من مجلس الدولة .

رئيس المجلس

كاتب المجلس

٤٤٣/ح ص ب

الدولة ودراستها، ورفع التوصيات بالحلول لبعض المشكلات، أو تقديم المقترحات التي تيسّر لمجلس الدولة سرعة البت فيها، واتخاذ ما يراه مناسبًا من قرارات وتوجيهات، [د. عمر عبدالله بامحسون ،التطور السياسي والدستوري في اليمن الديمقراطي 1937 – 1967م، ص74] ويتكون مجلس السلطان كما هو مبين في الوثيقة من: وزير السلطنة وهو لقبه في زمن الوثيقة ومن اثنين من الأعيان، وبحضور نائب الوزير السيد أحمد محمد العطاس، الذي صار وزيراً للسلطنة في 18 مارس 1964م، أمَّا الوزير زمن الوثيقة فهو الباكستاني جهان خان (1957 – 1964م)، وكان قد شغل وظائف إدارية رفيعة في السلطنة، أما الشيخان بارحيم وباسويد فكانا من الواجهات



الاجتماعية الكبيرة (التُّجَّار) التي يعيّنها السلطان بالتشاور مع المستشار البريطاني.

وأصل الوثيقة محضر اجتماع مجلس السلطان المنعقد بتاريخ 7 جمادى الآخرة 1382هـ الموافق 4 نوفمبر 1962م، وبقراءة تاريخية متأنية لنص المحضر سنلاحظ نموذجًا متقدِّمًا في تاريخ الإدارة السياسية والمالية في السلطنة القعيطية، وأنه يكشف عن تقاليد إدارية شفَّافة تحرص على فرض الرقابة المؤسسية الصارمة التي تصل إلى كل مستويات الحكم، ومن ضمنها منصب السلطان ذاته. فالوثيقة تُظهر أن السلطان لا يستطيع اختراق النظام المالي والتحكُّم فيه، والتصرُّف كما يشاء، وحتى في حالة طلبه لقرض شخصي من خزينة الدولة لأجل معلوم فإنَّ الحصول عليه يستلزم المرور بسلسلة من الإجراءات المشروطة، تضمن عودة المال إلى الخزينة مع هامش الربح الموضح في الوثيقة (المحضر). وهذه المعطيات تفصح عن بدايات مشجعة متجهة نحو بناء مؤسسات الدولة الحديثة، والحكم الرشيد في ظل نظام الحكم الأسري التقليدي.

والوثيقة غنيَّة بالإشارات ذات البعد القانوني، التي تدل على احترام العمل المؤسسي والفصل النسبي للسلطات، وتطبيقات ذلك تمثلت في القرض الذي تقدم به السلطان عوض بن صالح القعيطي، الذي تحرَّك في الدوائر الرسمية العليا ممثِّلاً في مجلسَي الدولة، ومجلس السلطان لضبط مساره القانوني الصحيح، وهو ما يشير إلى وجود منظومات ضبط ومراجعة تتجاوز الاجتهاد الشخصي إلى العمل القانوني المنظم. لكن هذا الملمح الإيجابي لا يلغي توظيف السلطان لمكانته الرسمية الرمزية في تيسير قبول القرض من الناحية المبدئية، والإجرائية.

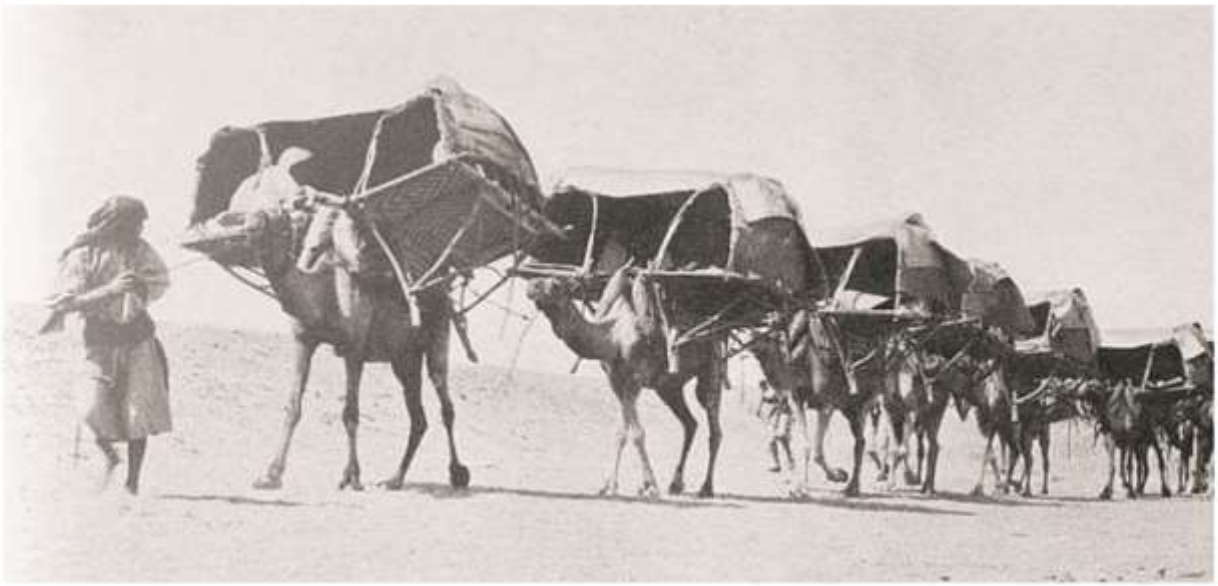
ومن أبرز ما تكشف عنه الوثيقة هو حرص مجلس السلطان على ضمان تسديد القرض خلال فترة زمنية معقولة (خمس إلى ست سنوات)، وهو ما يشير إلى إدراك أهمية ضبط حركة المال العام والحفاظ عليه. والأهمُّ من ذلك أن المجلس لم يكتفِ بالموافقة المبدئية، بل قام بجملة من التكليفات لوزير السلطنة لتأكيد الجدوى الاقتصادية من القرض بما يضمن القدرة على سداد المبلغ مع هامش الربح الموضح في الوثيقة، من ذلك الاتفاق مع مهندس، والتواصل مع الجهات المحتملة لاستئجار البناية بعد إنشائها.

ومن الأمور الإدارية التي تهتم بالتفاصيل والمحاذير ما نلاحظ من الحرص على تكليف المندوب بدراسة الجوانب الضريبية والقانونية المرتبطة بالبناية، للحد من المخاطر المالية أو في الأقل التقليل منها. وتفيد الاستعانة بشخصيات حضرمية اقتصادية تسكن في عدن على دراية بشبكات التجارة والبناء بعدن، وخبرة بعمل المقاولات، والمناقصات العلنية، مثل الشيخ سعيد أحمد بازرعة. وأن مسارات القرض ضبطت بالاحتياطات الاحترازية اللازمة المتجاوزة للمحسوبية، والاجتهادات غير المدروسة، مع الاحتكام إلى متطلبات السوق وأهل الخبرة لتحقيق عائد استثماري لصالح السلطان يغنيه عن التطلع إلى المال العام.

ومن الأمور اللافتة في الوثيقة الفقرة المتضمنة التوصية بإشراك أولاد السلطان في ملكية البيت من دون أن يكون لهم حق في الإيرادات ما دام والدهم على قيد الحياة، والغرض من ذلك – كما ورد في الوثيقة – التقليل من نسبة الضريبة في العقار إذا سجل باسم أكثر من شخص، لكن الأهم من ذلك ضمان تحصيل دفعات قيمة القرض، وبهذا فإن مجلس السلطان وازن بين المصالح الشخصية، والحق العام، مما يجعل من هذه الوثيقة شهادة تاريخية على حوكمة مالية متقدِّمة على عصرها، خاصة إذا قورنت بما هو سائد في الكيانات السياسية القائمة وقتئذ في جنوب الجزيرة العربية، وعند بعض الدول لعربية التي تعاني من غياب الشفافية، وضعف نظمها الإدارية والمالية.

أدب الرحلة في حضرموت

رحلة الحسن بن عبدالله الكاف - أنموذجاً -





أ.د. محمد يسلم عبدالنور *

المقدمة:

الحضارم مثل غيرهم من الأمم والشعوب ارتحلوا عن مناطقتهم، سواء بالرحلة الداخلية إلى مناطق حضرموت ومدنها وقراها، أو بالرحلة الخارجية خارج نطاقها الجغرافي شرقًا وغربًا.

وازدادت تلك الرحلات في القرن الرابع عشر الهجري/ القرن العشرين الميلادي، وقد دونت تلك الرحلات من أربابها، للتوثيق والإفادة والاستفادة.

وحديثنا في هذا العدد عن رحلة تعد من الأهمية بمكان؛ لأهمية مَنْ قام بها، ووجاهته فيها، والفوائد العلمية والتاريخية والجغرافية، فضلاً عن الدينية التي احتوتها، وهي الرحلة الثانية في تاريخ رحلاتهم في العصر الحديث بعد رحلة شيخ بن محمد الحبشي (ت1348هـ) المسماة بـ: **"الشاهد المقبول بالرحلة إلى مصر والشام وإسطنبول"** سنة 1328هـ/ 1910م، وهي رحلة حسن الكاف (ت1346هـ) إلى مصر والشام والحرمين الشريفين المسماة بـ: "الطُّرف الشهية المستفادة من الرحلة إلى الديار المصرية والحجازية" سنة 1330هـ/ 1912م[1]، وقد كتبها الشيخ محمد بافضل (ت1369هـ) على لسان صاحبها[2]، وهي في ذكراه المئوية الأولى، ورغم أهمية هذه الرحلة -كما سنعرف من استعراضها- فقد تجاهلها أو قُلْ نسيها عمشوش[3]، ولم يشر لها رغم إشارة الحبشي لها[4]، وكم ترك الأول للآخر، ولعلَّها ترى النور مدروسة محقَّقة قريبًا.

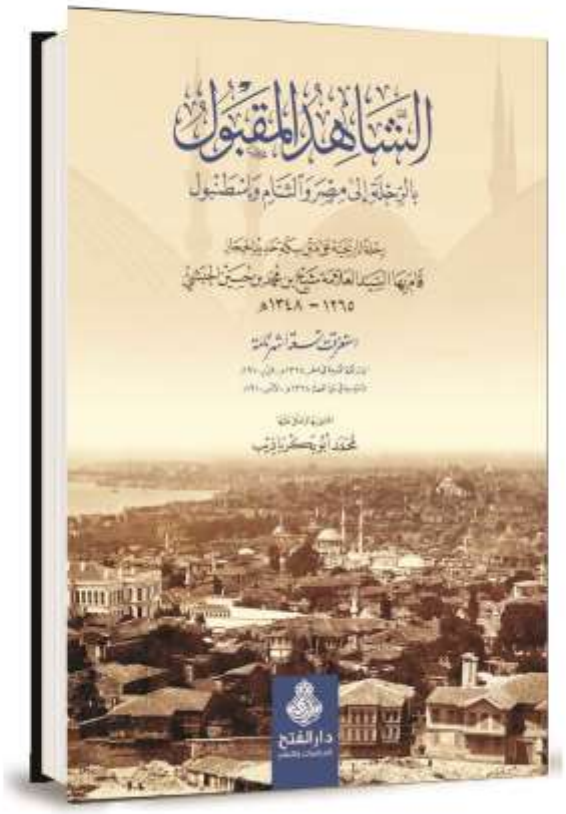
أولاً: التعريف بصاحب الرحلة وكاتبها:

إن غاب أو نُسي صاحب الرحلة، فلن يغيب ابناه عند الأدباء والشعراء والفنانين في حضرموت واليمن خاصة وربما في الجزيرة العربية، فابنه الأول عميد الدان الحضرمي حداد (عمر) (ت 1389هـ)، والآخر عيديد (محمد) (ت 1423هـ).

إنه السيد حسن بن عبدالله (ت1297هـ) بن عبدالرحمن (ت1280هـ) بن أحمد الكاف، ولد بتريم سنة 1292هـ ونشأ بها، وأخذ بها العلم عن عدد من مشايخها، وعن غيرهم من علماء حضرموت، وأدرك من التحصيل العلمي ما يخولّ له التصدر والتدريس، وكان يميل إلى الأدب، وعُرِض عليه منصب القضاء فأباه، ومع ذلك كان مهتمّاً بالعلماء وطلبة العلم، يقيم لهم الدعوات والمآدب ويخرج معهم إلى بعض المتنزهات، ويسيّر النفقة إلى بيوتهم، وكان كريماً جواداً، متفقّداً لأحوال الضعفاء والمساكين، يقوم بتعضيد الجمعيات الخيرية، ويشارك في تأسيسها وخدمتها والإنفاق عليها، ومنها جمعية الحق[5]، مهتمّاً بعمارة المآثر والمساجد، فممَّا بناه مسجداه المسمَّيان باسمه: الأول بعيديد، والآخر بالسحيل، وجعل لهما وقفاً يكفيهما بسعة، وله مكتبة جمع فيها من الكتب القيمة، وقد بنى له أحفادُه اليوم مركزاً علمياً يضمُّ مكتبته، سُمِّي باسم: مركز الحسن بن عبدالله الكاف.

كان شاعراً مجيداً، ضمَّ ديوانه نوعَيْن من الشعر: الحكمي (الشعر العربي الفصيح)، والحميني (الشعر باللغة الحضرمية الدارجة)[6]، وتنوع شعره الحكمي في قصائد المدح والرثاء وغيرها، والحميني يضم قصائد غزلية فيما يعرف بفن بني مغراه[7] -لعلَّنا نسلط الضوء عليه في أعداد قادمة-، توفي في تريم في 18 من محرم الحرام سنة 1346هـ.

أما كاتب الرحلة على لسان صاحبها، فهو الشيخ العالم والداعي إلى الله محمد بن عوض بن محمد بافضل، السالك الناسك الشاعر، يكاد لا يذكر إلا ويذكر شيخه أحمد بن حسن العطاس (ت1334هـ) والعكس صحيح، فهو كاتبه



ومصنِّف سيرته، له عددٌ من المؤلفات، منها في شيخه، وتراجم أسرته المعروف بصلة الأهل بتدوين ما تفرق من مناقب بني فضل، توفي بتريم سنة 1369هـ.

ثانياً: التعريف بالرحلة:

عبارة عن رحلة حج غريبة قام بها المترجم، بمعية ابن أخيه علي بن عبدالرحمن الكاف (ت1355هـ)، وسلمان بن عبدالشيخ شامي، وسالم بن عوض باخميس، وكاتبها محمد بن عوض بافضل، وربما آخرون شاركوهم لم تذكر أسماؤهم، إلى مصر والشام والحرمين الشريفين، مروراً بمناطق وادي حضرموت عامة في الذهاب، ومناطق ساحل حضرموت في الإياب، وسُمِّيت هذه الرحلة بـ: **"الطرف الشهية المستفادة من الرحلة إلى الديار المصرية والحجازية"**، وقد طبعت مع ديوانه سنة 1421هـ/ 2000م، عن مكتبة تريم الحديثة، تحت مسمى رحلة وديوان، في (85) صفحة، من الصفحة 55 إلى الصفحة 140، من إجمالي عدد صفحات الكتاب البالغة (189) صفحة، حوى ترجمته وما قيل عنه، ومكاتباته، ومرثيَّاته، ولعلها طباعتها تُعَاد من جديد مدروسة محققة.

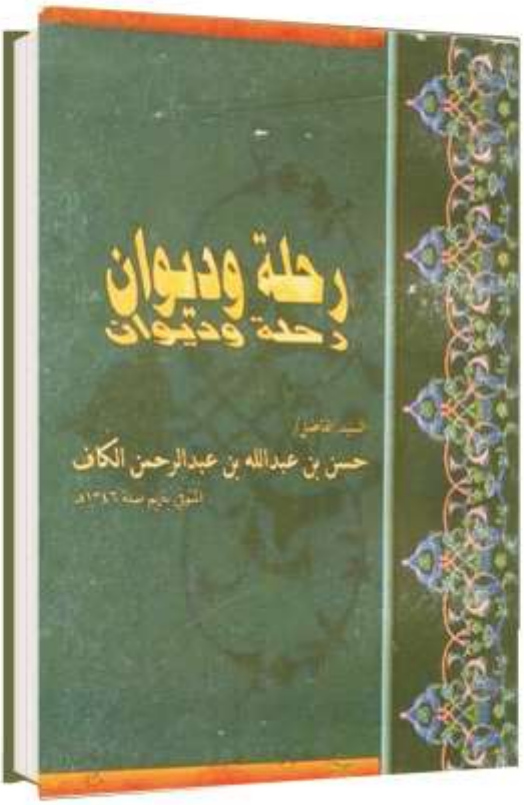
ثالثاً: أسباب الرحلة وتتبع مسارها الزماني والمكاني:

لعل السبب الأساسي للرحلة هو أداء فريضة الحج وزيارة النبي صلى الله عليه وسلم، لكن السؤال الذي يضع نفسه كما يقال -لماذا الولوج والارتحال إلى مصر والشام، اللتين ليستا على خط سير الحرمين الشريفين؟- إذ كان الأولى به التوجُّه من تريم إلى بندر البحر (المكلا او الشحر) ومنها إلى جدة -ما هو معروف- ورغم أن سير الرحلة لم يبين ويوضح هذا الإشكال، إلا عامل الفسحة والتنزه والتعرف على الأماكن والبلدان، وربما الالتقاء والتعرف على شيوخ العلم للأخذ عنهم والإجازة، مدعاة لذلك، خاصة إنَّ من قام بها لديه القدرة المالية على ذلك.

بدأت الرحلة بالخروج من تريم عشية يوم الأحد 4 شوال سنة 1330هـ، والعودة إليها أيضاً عشية الثلاثاء 6 صفر سنة 1331هـ، إي إنها استمرت أربعة أشهر ويومين -أي 122 يوماً[8]-

كان مسار الرحلة من تريم مروراً بمدنها ومناطقها الداخلية وصولاً إلى المكلا ومنها إلى عدن، ومنها إلى مصر التي ظلُّوا فيها تسعة أيام، ومنها إلى الشام وظلُّوا بها ثلاثة أيام، ثم اتجهوا إلى المدينة المنورة ومكة المكرمة (الحرمين الشريفين) مقصدهما الأساسيين -أداء فريضة الحج، وزيارة طيب الأرج، ورفيع الدرج، ونافي الحرج، وأعظم عبد به الكون ابتهج.. إلخ[9]، التي أخذت النصيب الأكبر من الرحلة (53) يوماً، ومن ثم عودتهم إلى حضرموت بحراً عبر مرسى المكلا، ومنها إلى الشحر ومكثوا فيها (14) يوماً، ومن ثم الوصول إلى تريم براً.

استغرقت المدة الزمنية بين التنقل والحركة في المدن والمناطق، الحضرمية منها والخارجية (57) يوماً، منها (12) يوماً في مدن الوادي ومناطقه حين الذهاب، و(14) يوماً حين الإياب كما أشرت -.



ووسائل سفرهم ونقلهم بين المدن والقرى الداخلية والخارجية كان المشي على الأقدام، بقوله: (ومشينا)[10]، وربما معهم بعض الحيوانات كالحمير أو الجمال مثلاً حاملاً أمتعتهم.

أما السفر إلى خارج حضرموت والتنقل بين مناطق الارتحال فكان الزورق والسفن الشراعية في البحر، والسكة الحديدية (القطار والمترو والترومواي) أو العربات التي تجرها الخيول والبغال في البر (الحنطور) (أماكن الارتحال).

ولعلنا نشير إلى عادة من يرتحل عن تريم من علمائها وطلابها وربما من عوامِّها، وحتى زائريها، وهي مغادرتهم وسفرهم يوم الخميس للسنة النبوية، وقبل مغادرتهم البلد تكون آخر وجهة لهم فيها زيارة مقبرتها، وزيارة مقبرة زنبل على وجه الخصوص ومقدَّمها الفقيه المقدم (ت653هـ) جد معظم السادة آل أبي علوي، ويزور فيما بعد آباءه وأجداده ولو في غير هذه المقبرة، وعند العودة كذلك، وهي عادة متجذِّرة إلى اليوم.

رابعاً: البلدان التي زاروها، والشخصيات التي التقوا بها:

لعلنا في هذا الصدد نحدد خمسة مسارات ومحطات مكانية لهذه الرحلة، اثنان منها داخلية في الذهاب والإياب، وثلاثة خارجية (أماكن الارتحال والسفر) من غير الولوج في التفاصيل التي دوَّنتها الرحلة، مع الإشارة إلى مَنِ التقوا به من الشخصيات:

1. المسار المكاني الأول: مدن حضرموت وقراها (الذهاب): من تريم إلى تاربة وسيئون والحوطة (خلع راشد) والقطن والباطنة (مصيف آل بلفقيه) وحوطة العيدروس (الكسر) وحريضة والمشهد والهجرين وقيدون، مروراً بصيف وبلاد الماء وقرن ماجد وبضة وغيل بلخير، حتى قارة المحاضير (القويرة) والقرين والخريبة.

ثم اتجهوا إلى المكلا عن طريق العقبة مروراً بالعقاب والهضاب والمساييل من جول عبيد ويتبه ونقاب سالمين والمطحنة ونقاب باقعر ومضرب بن زيد وحصاة باشمس، والحرشيات والبقرين التي زاروا بها بيت الزعيم السياسي الوزير السيد حسين بن حامد المحضار (ت1345هـ) (وزير السلطانين غالب وعمر ابني السلطان عوض بن عمر القعيطي)، والمكلا التي انطلقوا منها بحراً (بالبابور) الذي يستقل فيه وكيل والي عدن، بوساطة الوزير المحضار إلى عدن، كمحطة عبور (ترانزيت) إلى مسارهم الثاني بعد الحجر الصحي عليهم وعرضهم على الطبيب.

وفي السياق هذا لم ينسوا أن يمروا على المآثر الدينية من ضرائح وقبور العلماء والأولياء والصالحين وزواياهم وأربطتهم من مثل عيدروس بن عمر الحبشي (ت1314هـ) وعمر بن عبدالرحمن العطاس (ت1072هـ) وعلي بن حسن العطاس (ت1172هـ) وسعيد بوأحمد بلوعار، والالتقاء بالأحياء منهم من العلماء والمناصب، عيسى العمودي (ت671هـ) ومن أشهرهم علي بن محمد الحبشي (ت1333هـ) وأحمد بن حسن العطاس (ت1334هـ) وابنيه سالم وأحمد.

2. المسار المكاني الثاني: مدن مصر: بدأ من الوصول إلى مرسى بور سعيد ونزولهم باللوكندة، واتجاههم بالقطار الحديدي إلى القاهرة مروراً بالفدان والإسماعيلية والزقازيق، وزيارتهم للمآثر الدينية بالقاهرة من الجوامع والأضرحة والقبور والمقامات الصوفية، من مثل: مقام الإمام الحسين ومسجده، والجامع الأزهر، ورواق اليمانية، ومقام فاطمة بنت الحسين، وجامع السلطان المملوكي حسن، وجامع الرفاعي، وجامع محمد علي باشا، وقبر عائشة بنت جعفر الصادق، وقبر الإمام الليث بن سعد وأبيه سعد، وقبر الإمام شعيب بن اليمان، وقبة الإمام محمد بن إدريس الشافعي، وزكريا الأنصاري وأم كلثوم بنت علي بن أبي طالب، ومقام السيدة نفيسة، وقبة رقية بنت علي بن أبي طالب، وقبة السيدة عاتكة بنت عبدالمطلب عمة الرسول، وقبة علي الجعفري، ومقام السيدة سكينة بنت الحسين، ومقام زينب بنت فاطمة الزهراء، وعندها قبر الشيخ العتريسي، وعبدالرحمن بن مصطفى العيدروس، والإمام الشعراني وأولاده، والإمام سراج الدين البلقيني، ولم يكتف بالذكر لهم، بل أعطى وصفاً رائعاً لكل هذه المقامات والمزارات، ولم ينس أيضاً زيارة المعالم الأثرية والتاريخية من زيارة القلعة (مذبحة المماليك في عهد الخديوي محمد علي باشا سنة 1226هـ/ 1811م)، وسجن سيدنا يوسف الصديق، وزيارة مكتبة الشيخ مصطفى البابي الحلبي وأولاده الشهيرة وصاحب المطبعة، كما استقلوا وسيلة النقل الآلة الكهربائية المعروفة بالمترو والترواي لزيارة هذه الأماكن، كما تمنوا زيارة الكتبخانة الخديوية والمتحف، الذي لا يفتح إلا الصباح، وزاروا أيضاً أماكن التنزه والفسح، مثل جنينة (حديقة) الحيوانات، وشاهدوا ما بها من حيوانات وحشية وأليفة، فضلاً عن اللقاء ببعض شيوخ مصر أمثال أحمد الحسيني، وحضور بعض حلقات العلم بالأزهر، كحلقة الشيخ محمود خطاب، ومحمد صالح.

كما سافروا إلى طنطا بالسكة الحديدية، ومروا على كفره وملوح وشبره والدفوه، وزاروا بها مقام الشيخ أحمد البدوي، ومنها سافروا إلى بنها للوصول إلى بور سعيد مرة أخرى للسفر إلى محطتهم الثالثة.

3. المسار المكاني الثالث: مدن بلاد الشام: وهذا المكان يمكن أن نعده محطة ترانزيت للمسار والمحطة الرابعة، وتبدأ بسفرهم ببابور الخديوي من بور سعيد إلى حيفا عبر مرسى يافا القريب من بيت المقدس، ومن حيفا سافروا براً إلى محطتهم الأخيرة في السفر ومرورهم بمحطات وبلدات شمالية، مثل: تل الشمام، وعفونه، وشطه، وبيسان، وجسر المجامع، وسمخ، والحجه، وزيزون، وتل أشهاب، ومزيرب، ودرعا، وصولاً إلى أولى محطتهم في الحجاز.

4. المسار المكاني الرابع: مدن بلاد الحجاز: وهذه المحطة هي الأساس في رحلتهم التي أخذت من الرحلة النصيب الأوفر زمانًا ومكانًا، وتبدأ بالوصول إلى تبوك التي تعد أولى محطات هذا المسار، وخروجهم منها ومرورهم بمدائن صالح (الحجر) وديار ثمود وصولاً إلى المدينة المنورة، وزيارة أماكنها المقدسة من الروضة النبوية ومقبرة البقيع وقبة الأزواج الطاهرات، وقبة سيدنا إبراهيم ابن الرسول، ثم قبة إمام دار الهجرة أنس بن مالك، وقبة أهل البيت، وفيها سيدنا العباس والحسن وفاطمة وعلي زين العابدين والباقر والصادق وإسماعيل بن جعفر الصادق، ومسجد قبا (مسجد النبي) ومبرك الناقة، فضلاً عن المآثر الأخرى، كمسجد سيدنا علي، وموضع رحى سيدتنا فاطمة الزهراء ومسجدها الشريف، وبئر أريس (قريبة من مسجد قبا، سقط فيها خاتم النبي من يد سيدنا عثمان)، والمصلى النبوي، والمساجد الثلاثة المنسوبة لسيدنا أبي بكر الصديق وعمر وعلي، ومصلى الرسول بالمناخة، وزيارة أُحُد وسيد الشهداء حمزة بن عبدالمطلب، وعبدالله بن جحش، ومصعب بن عمير، وجملة قبور الشهداء، وبئر رومة (التي اشتراها سيدنا عثمان من اليهودي)، ومسجد القبلتين، ومحل الخندق، ومسجد الفتح، ومسجد سلمان الفارسي، ومسجد أبي بكر، ومسجد عمر، ومسجد ينسب إلى عثمان.

وفي المدينة التقوا بكثير من العلماء، ومن الآفاقيين، وزاروهم في بيوتهم، وفي حلقاتهم العلمية، مثل: محمد بن جعفر الكتاني، وحسين الأهدل الزبيدي، والمحدث حمدان بن أحمد الاندلسي الجزائري، وعمر الشامي، وحسين بن عمر البيتي، وعلوي بن عبد الرحمن السقاف، ومفتي المدينة أحمد البرزنجي، وموسى الأزهري المالكي.

ومن المدينة إلى مكة المكرمة عن طريق ميقات ذي الخليفة[11]، الذي أحرموا منه بالعمرة، ومرُّوا بوادي العقيق، ووصلوا بئر الماشي ووادي ريم، وجاوروا عقبة الغاير، ثم محل المخاضة وحوله عين ماء شديدة العذوبة، وبئر نحيت والقيظي والثبرة وبئر مبيريك[12] وبئر هرشا ورابغ والقضيمة ونتوقة (الدفة) وعسفان وعريش، وبئر التفلة الذي شرب منها النبي صلى الله عليه وسلم وتفل فيها وهي أعذب مياه الدنيا، وبئر الباشة ووادي فاطمة للتهيئة لدخول البلد الحرام مكة بعد زيارة مقام السيدة ميمونة زوج النبي.

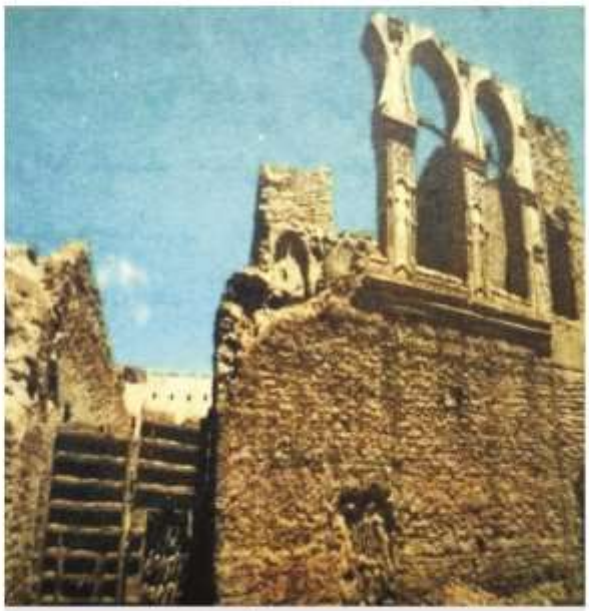
وبدخولهم المسجد الحرام مع صلاة العشاء وجدوا الإمام الحنفي يصلي بهم الفريضة[13]، فأتمُّوا به، ومن ثم طافوا طواف القدوم، ووردُوا بئر زمزم، وخرجوا للسعي، وقصّروا وتحللوا من عمرتهم.

ومما زاروه بمكة بيت السيدة خديجة، وحمَّام الرسول، ومَن التقوا بهم من العلماء المكيِّين أو القادمين للحج: عماد الحرم عمر بن أبي بكر باجنيد (ت1354هـ)[14]، والشيخ يوسف النبهاني (ت1350هـ)، وعبد الحميد قدس، وعلي بن محمد البطاح الأهدل مفتي زبيد، ورأوا شريف مكة الحسين بن علي.

ويوم الثامن من ذي الحجة (يوم التروية) بدأوا في مناسك الحج بالإحرام به، وخروجهم من مكة إلى منى والمبيت بها، ومنها صبيحة التاسع بطلوع شمسه التوجه إلى عرفات، ثم إلى مزدلفة، ومنها إلى منى لرمي العقبة الكبرى، ثم إلى مكة للطواف (طواف الإفاضة)، ودخولهم الكعبة والصلاة فيها، والسعي بين الصفا والمروة، والعودة مرة أخرى إلى منى لرمي العقبة الأولى والوسطى.

ظلوا في مكة حتى 25 من ذي الحجة، ثمَّ طافوا طواف الوداع وتأهبوا للسفر إلى جدة، وركبوا الأبل حتى وصلوها، وظلوا بها منتظرين إبحار البابور الذي سينقلهم إلى محطتهم الأخيرة (حضرموت) حتى التاسع من محرم حينما أبحروا مع عدد كبير من الحجاج الجاويين وعددهم (900) نفر، و(40) من غيرهم مع مجموعة من الحضارم ذكر أسماءهم[15]، حتى وصلوا مرسى المكلا.

5. المسار المكاني الخامس: العودة إلى حضرموت، ومنها إلى تريم: بعد وصولهم المكلا ونزولهم في بيت السيد حسين بن حامد المحضار، واجتماعهم بالشيخ محمد بن محمد باحنشل، توجهوا إلى الشحر، وزاروا ضرائح مشاهير أوليائها[16]، ومنها التوجه إلى تبالة لتكون نقطة الانطلاقة إلى وادي حضرموت بما يسمى بالطريق الشرقية، ووصولهم الغرف صباح يوم الثلاثاء 6 صفر، ودخولهم تريم عشيتها، قاصدين المكان الذي انطلقوا منه وهي مقبرة زنبل وزيارة ضرائح أجدادهم.



المبنى الذي شيده العلامة الحسن بن عبدالله الكاف ليضم مكتبته العامرة

وبعد قدومهم ووصولهم من رحلتهم تلك وأداء مناسك الحج والعمرة، توالت التهنئات والرسائل بذلك نظمًا وشعراً، ولعلنا نقتطف منها تهنئة عبدالرحمن بن عبيدالله السقاف (ت 1375 هـ) بقوله:

العيد ما ملأ الوجود سرورا وكسى الوجوه بشاشة وحبورا
وتشاركت فيه النفوس وأشرقت ببهاء رونقه المنازل نورا
العيد عود أبي المراحم بعدما حج المناسك حجه المبرورا[17]

خامساً: الملاحظات على الرحلة:

قبل أن نختم حديثنا عن هذه الرحلة، التي تعد -كما ألمحت- ثاني نص أدبي بعد رحلة الشاهد المقبول للحبشي، ندوّن بعض الملاحظات عليها، وهي:

- رغم أن الغرض الأساسي للرحلة هو الحج، لكننا نعدُّها رحلة علمية في المقام الأول؛ إذ التقوا فيها بالعلماء وأخذوا عنهم واستفادوا منهم، ورحلة سياحية تعرفوا فيها على المعالم والآثار التاريخية.

-استخدام أسلوب السجع في عباراتها والمحسنات البديعية، وذلك ناتج عن طبيعة تلك المرحلة، والاستشهاد بالأبيات الشعرية دون غيرها.

-اللغة الرصينة المستخدمة فيها، وخلوُّها من الألفاظ العامية، وربما يلجأ إلى استخدام بعض المصطلحات في بلد المهجر، مثل: اللوكندة، وتعني الفندق والنزل، والجنينة، وتعني حديقة الحيوانات، وخمسة ساغ، وتعني مبلغًا ماليًا.

-التوثيق اليومي للرحلة من زيارة الأماكن والمعالم الإسلامية وغير الإسلامية، والعلماء، بل وسائل النقل المستخدمة سواء الخارجية أو الداخلية، وأجرة النقل.

-التبادل العلمي بين المرتحلين ومَنِ التقوا بهم من العلماء، من خلال تبادل الإجازات العلمية بينهم، وإيراد نصوصها، وأسانيدهم العلمية، والوصايا والنصائح العلمية[18]، والمناقشات العلمية في المسائل الفقهية، فضلاً عن اطلاعهم عمَّا تنتجه المطابع من كتب علمية، من مثل: مسألة: هل يرفع الحدث البخار المترشح من الماء بوساطة الشمس أو النار، وتوقيت الإمساك المسنون في عيد الأضحى، ومرض الرسول صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات، وفي المرة الأخيرة كان (13) يومًا فمن خلفه في الخطبة والصلاة؟.

- تعد هذه الرحلة امتداداً للتواصل العلمي بين حضرموت والمراكز العلمية الإسلامية في مصر والحجاز، من خلال سؤال علماء هذه المراكز عن عالمين حضرميين ارتبطا بالرحلة العلمية إليهما، وهما: علي بن محمد الحبشي (ت1333هـ)، وأحمد بن حسن العطاس (ت1334هـ).

- إن ما كتبنا عن الرحلة هنا لا يغني عن مطالعتها البتة، والاستمتاع بالوصف والتوثيق البديع لكل ما جرى فيها من مجريات ووقائع، لا نقول كأنك تعايشها، بل وكأنك أحد أفرادها.

---

* أستاذ التاريخ الإسلامي وحضارته - جامعة حضرموت.

الهوامش:

(1) لعلنا هنا نلاحظ دلالة التاريخ والتوقيت للرحلة، فهي قبل الحرب العالمية الأولى، وقبل الثورة العربية، وقبل وعد بلفور، وقبل معاهدة سايكس بيكو، وقبل حرب فلسطين، أي في فترة حكم الأشراف على الحجاز.

(2) ثمة رحلة ثالثة إلى مصر والشام لمحمد بن هادي السقاف (ت1382هـ) سنة 1343هـ، مسماه: "الرياض الوردية في الرحلة المصرية والقدسية" حررها مصطفى بن سالم السقاف (ت1365هـ) والصبان.

(3) أدب الرحلة في حضرموت: صـ10.

(4) الرحالة اليمنيون شرقًا وغربًا: صـ246.

(5) تعد جمعية الحق من أشهر الجمعيات الحضرمية وأكبرها، وكان لها شأن كبير، وهي بمثابة حزب سياسي واجتماعي وعلمي، له أثر في الحياة، ويعد صاحب الرحلة، وعبد الرحمن بن شيخ بن عبدالرحمن الكاف (ت1367هـ) مؤسِّسَي هذه الجمعية، واتبرى العلماء والجيل المثقف من أبناء حضرموت للانضمام إليها، وأعلنوا عن تأسيس تلك الجمعية في 21 من ذي القعدة الحرام سنة 1333هـ، وقامت الجمعية بتأسيس مدرسة سُمِّيت باسمها -مدرسة الحق -، وهي الواقعة في الجانب الغربي من مسجد بروم، افتتحت يوم 27 من ربيع الأول سنة 1334هـ لتعلم اللغة العربية، وقسطٍ من العلوم الدينية والحساب والتاريخ والجغرافيا عبر نظام تعليمي، واستمرت المدرسة تؤدي دورها ورسالتها طيلة 16 عامًا إلى أن توقفت سنة 1350هـ (العلم ومؤسساته في تريم 31).

(6) من قصائده تلك التي غناها الفنان أبوبكر سالم بلفقيه:

كفاه الله لي عدا ولا سلم عبر يمشي وسيفه عالعرب مجرود
عند النوب باعمد في الجبال السود

(رحلة وديوان صـ151) وأبدلها بـ: حبيبي حطني بين الجبال السود.

(7) وأشهرها تلك التي مطلعها: بني مغراه قلبي من العشقة معذب وكبدي محرقه وسطها نيران تلهب (رحلة وديوان صـ156).

(8) موزعة بين (57) يومًا في التنقل والسفر، و(53) في الحجاز، و(9) في مصر، و(3) في الشام، كما ستلحظ ذلك في الرحلة.

(9) رحلة وديوان: صـ57.

(10) رحلة وديوان: صـ70.

(11) ميقات أهل الشام ومصر، يبعد عن المدينة (4) أميال، وعن مكة (200) ميل.

(12) حسين بن مبيريك الغانمي الزبيدي المسروحي الحربي: أمير رابغ، وناهض ثورة الشريف حسين بن علي، أُغتيل سنة 1336هـ.

(13) كانت في مكة المقامات الأربعة منذ القرن السادس الهجري، وأكبر المقامات وأفخمها وأعظمها المقام الحنفي لأن السلاطين كانوا على مذهبهم، وقد أُلغيت سنة 1345هـ، وهدمت سنة 1377هـ.

(14) آل باجنيد من الأسر الشهيرة الحضرمية بالخريبة، حتى قال فيهم ابن عبيدالله السقاف: "دخلت الخريبة فوجدت عالمها باجنيد، وقاضيها باجنيد، وتاجرها باجنيد، ودلاَّلها باجنيد، ونجَّارها باجنيد، وسائر أعمالها بأيدي آل باجنيد".

(15) منهم من تريم: عبدالله بن أبي بكر الكاف، ومحبه علي بن أحمد بلدرم، وعلي زين الهادي، وحسن عبدالله بارجاء.

(16) منهم: الشيخ سعد بن علي الظفاري (ت609هـ) والشيخ فضل بن عبدالله بافضل (ت918هـ) وابنه أحمد (ت924هـ) وسالم بن عمر بن محمد العطاس (ت1225هـ) صاحب الزيارة، وأحمد بن ناصر بن الشيخ أبي بكر بن سالم شيخ عبدالله الحداد الذي قال فيه في العينية:

وكصاحب الشحر ابن ناصر أحمد من بالعناية والرعاية قد رُعي

(17) ديوان ابن عبيدالله: صـ413.

(18) من الوصايا التي حوتها وصية علي بن محمد الحبشي للسادة آل الكاف سنة 1328هـ، وهم: حسين وعبدالرحمن وعلوي وحسن بنو عبدالله بن عبدالرحمن بن أحمد، وحسين وعبدالرحمن وأبوبكر وعبدالقادر وحسن وعمر، وعمر بن أحمد بنو شيخ بن عبدالرحمن بن أحمد آل الكاف، وإجازات المشايخ علي بن محمد البطاح وأحمد البرزنجي، وأحمد الحسيني.



مكتبة المعارف في غيل باوزير



د. أنور سالم باكركر

من المكتبات الرائدة في حضرموت (مكتبة المعارف) في غيل باوزير، ولقد كان لهذه المكتبة الأثر الكبير في ثقافة أجيال كثيرة لسببين: الأول موقعها؛ حيث تتوسط المجمَّع التعليمي في غيل باوزير بمنطقة الصالحية -نسبة للسلطان صالح بن غالب القعيطي-، وهو من الأحياء الجديدة آنذاك، وفيه بنيت المنطقة التعليمية، وهي تضم المدرسة الابتدائية ومدرسة المعلّمين، والثانوية الصغرى، والمعهد الديني، ومكتب التفتيش، فكانت المكتبة قبلة الطلاب والتلاميذ، والمدرسين والمعلمي بتلك المدارس أيضًا. السبب الآخر؛ أنَّ أمين المكتبة، هو الشيخ المؤرخ سعيد عوض باوزير، الذي بذل جهوداً كبيرة في الارتقاء بالمكتبة؛ لأداء رسالتها الثقافية، ونجح في ذلك نجاحًا كبيرًا.

وقد ظل التاريخ التفصيلي للمكتبة وبخاصة لغة الأرقام غائبًا ردحًا من الزمن، حتى تمكن د. عادل اليماني من الحصول على الملف الخاص بالمكتبة، مما حدا به أن يكتب بحثه المحكَّم (مكتبة المعارف القعيطية 1951- 1997م).

تأسيس المكتبة:

بدء تأسيس المكتبة في إثر اقتراحٍ قدَّمه محمد عبدالقادر بافقيه إلى إدارة المعارف بتاريخ 16 مايو سنة 1951م [1]، وذلك عندما كان طالبًا في جامعة الخرطوم بالسودان؛ إذ نقل الفكرة من واقع معهد بخت الرضا، وقد ساعده في إعداد المقترح عدد من مدرسي المدرسة[2]، وفي المقترح وضع أن يكون اسمها (مكتبة المعارف)، وقد تغير اسمها بعد ذلك في إحدى فترات الحكم الجديد إلى (المكتبة الشعبية للتربية والتعليم).

وبعد الموافقة طلبت إدارة المعارف الجلوس مع «مقدِّم المقترح لمناقشة الموضوع بصورة أكثر وضوحًا»[3].

وفي إثر ذلك تشكلت لجنة تمهيدية من أربعة أشخاص من المدرسين، ممثّلين لمدراسهم، وهي المدرسة الوسطى وعنهم الأستاذ سيد أحمد صادق (سوداني)، ومدرسة المعلمين، والمدرسة الثانوية الصغرى وعنهم السيد علي بن يحيى، والمعهد الديني وعنهم الأستاذ صالح عبدالله اليماني، ويكون معهم مقدم المقترح بافقيه[4].

وكان أول اجتماع لهذه اللجنة بتاريخ 9 يونيو 1951م، وناقشوا فيه ثلاث قضايا، هي:

الأولى: اسم المكتبة: وقد اعتمد اسم المكتبة المقترح وهو (مكتبة المعارف) مؤقتًا.

الثانية: موقع المكتبة: وحدَّد المجتمعون أن تكون في غرفة بإحدى مدارس غيل باوزير، مع السعي في عمل مبنى خاص لها بحي الصالحية.

الثالثة: رأس مال المشروع: وقدمت اقتراحات عدَّة لذلك، منها تمثيل مسرحية بعنوان (العدالة) لقولزويرذي، في المكلا وأماكن أخرى، ويقوم بتمثيلها طلبة مدارس الغيل بالمكلا (أي أعضاء نادي الطلبة بالمكلا)، وتكون مبالغ التذاكر لتأسيس المكتبة. وأنَّ قبول التبرعات ممكنٌ نقداً أو كتبًا أو عن طريق عملية بيع هدايا رمزية بالمزاد العلني في حلقة تضم وجهاء المجتمع وعامة الناس، الطلب من الجمعية الخيرية المساهمة ويترك هذا لإدارة المعارف، وكذلك على إدارة المعارف اعتماد مبلغٍ سنوي للمكتبة. المصدر الأولي للكتب أن يطلب من السلطان أن يتكرم بتقديم بعض المراجع، وكذلك قبول الكتب من عامة الناس[5].

ولحاجة المكتبة للمال اللازم قدم المسؤول عن مشروع المكتبة نداءً إلى الحضارم كافَّة في الوطن والمهجر لتقديم الدعم لها[6].

ثم عمل حفل إشهار للمكتبة في المكلا في ساحة القصر السلطاني في رابع أيام عيد الفطر 1370هـ الموافق 8/ 7/ 1951م، وحضره السلطان صالح وولي عهده عوض، وألقى صاحب المقترح كلمة الافتتاح[7].

وبعد حفل الافتتاح وصلت أول دفعة من الكتب للمكتبة في ربيع الآخر 1372هـ/ ديسمبر 1952م، وعددها (181) كتابًا تؤلف (241) مجلداً[8].

وفي إثر وصول أول دفعة صدر أول إعلان عن فتح المكتبة من أمينها سعيد عوض باوزير بتاريخ 27/ 4/ 1372هـ الموافق 13/ 1/ 1953م.

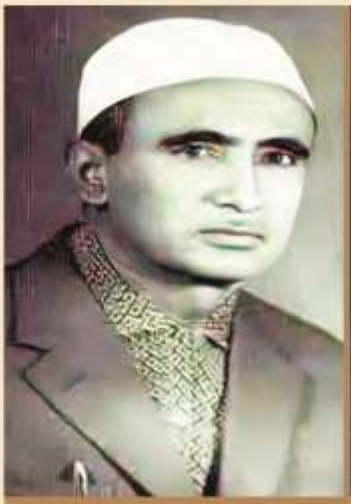


ما بعد مرحلة التأسيس:

بعد أن ترسخت المكتبة صدر قانون إعارة الكتب في عام 1956م[9]. ثمَّ استمر تزويد المكتبة بالكتب والصحف والمجلات، يقول باوزير: «ثم تزايد عدد الكتب، وضُمَّ إلى المكتبة بعض المراجع من الكتب الخاصة بالمدرسة الوسطى والثانوية الصغرى، حتى بلغ عدد الكتب في هذه المكتبة سنة 1376هـ/ 1957م، حوالي ألف ومائتي كتاب عربي[10]، ومائتين وخمسين كتاباً باللغة الإنجليزية[11]»[12]، وكذلك «زُوِّدَت المكتبة بعدة صحف أسبوعية وشهرية، تدفع قيمة اشتراكها من الاعتماد السنوي المخصص لها من إدارة المعارف؛ فكانت تصل إلى المكتبة مجلات: روز اليوسف، والهلال، والمصور، وآخر ساعة، والتربية الحديثة، وبعض صحف الجنوب العربي»[13].



محمد عبدالقادر بافقيه
ناظر المعارف



سعيد عوض باوزير
أمين مكتبة المعارف

ثم بين باوزير برنامج المكتبة بقوله: «وكانت المكتبة تفتح أبوابها للقراءة والمطالعة كل ليلة، من الساعة السادسة إلى العاشرة مساء، وفي فترات متقطعة كانت تعقد اجتماعات لمحاضرات يلقيها المدرسون وغيرهم من الضيوف، كما كانت تقيم الحفلات في المناسبات الدينية والاجتماعية»[14].

ثم حصل ركود للمكتبة عندما أوقفتْ إدارةُ المعارف «الدعمَ الماديَّ السنويَّ الذي يصرف لميزانية المكتبة كمساعدة، والذي يقدر بألف ومائتي شلن، يصرف منها ثلاثون شلناً شهرياً كراتب لمحافظ المكتبة، وفي اشتراك بعض الصحف العربية، وبذلك توقف النشاط الذي كانت تقوم به، ما عدا الحصص الأسبوعية التي يحضرها طلبة مدرسة المعلمين للمطالعة في قاعة المكتبة، واستعارة بعض المدرسين الذي كان نادراً ما يحدث»[15]. ولا يعرف بالضبط متى أوقفتْ إدارة المعارف الدعمَ عن المكتبة[16].

وعندما عُيِّن صاحب المقترح محمد عبدالقادر بافقيه ناظراً للمعارف كتب باوزير مقالاً في صحيفة (الطليعة) بعنوان (مكتبة المعارف.. هل تعود لها الحياة)، قائلاً: «قد لا يعرف كثير من الناس أن المسؤول الأول في إدارة المعارف الآن هو مقترح المشروع، وصاحب الفكرة الأولى فيه، ولذلك لا نبعد كثيراً في الخيال إذا قلنا: إن هناك أملاً في أن يكتب للمشروع الحياة على يديه من جديد»[17]. ونقل مقتطفات من مقترح بافقيه فقد كان باوزير يحتفظ بنسخة منه، ثم قال: «والآن وبعد أكثر من عشر سنوات، الذي لا يملك إلا الأمل في يده كثير من إمكانيات العمل فهل يكتب له التوفيق؟»[18]. وناقش في المقال أيضاً عدداً من القضايا المتعلقة بالمكتبة.

ووضعت ميزانية مبدئية للمكتبة بلغت (3750) شلناً، قسمت حسب الجدول الآتي[19]:

الرقم	الغرض	المبلغ/ شلن
1	علاوة مساعد لأمين المكتبة	30 × 12 شهر
2	مرتب فراش 65 بعلاوة 20	85 × 12
3	اشتراك جرائد ومجلات	250
4	صيانة الكتب ومتفرقات أخرى	260
5	قاز بمعدل	20 × 12 شهر
6	ماء بمعدل	10 × 12 شهر
7	شراء الكتب خلال العام	1500
8	المجموع الكلي	**3750** شلن سنوياً

ووضعت المكتبة في عام 1962م قوائم بأسماء الكتب الجديدة التي أضيفت لها في حدود ما قيمته (1500 شلن) حسب الجدول، اشتريت من مكتبات المكلا وعدن، إضافة للصحف والمجلات[20].

وعندما حصل الانتعاش للمكتبة كتب باوزير تحت عنوان جانبي (مَنْ يُصَدِّقُ؟): «كنت أشفق على الطلبة من انصرافهم عن القراءة وعدم اهتمامهم بالمطالعة بينما أحدثُ الكتبِ العلمية والأدبية على مقربةٍ منهم وعلى خطوات من محل دراستهم.. كنت أتألم لهم وهم يحرمون أنفسهم بمحض إرادتهم من هذه الثروة الثقافية المتاحة لهم والموضوعة تحت تصرفهم... فأصبحت اليوم أشفق على الكتب من التلف الذي تعرَّضت له بسبب كثرة القراء والإقبال الشديد على المطالعة.. وقى الله الطلبة شرَّ عيون الحاسدين.. وحفظ الكتب من شرِّ أصابع القارئين»[21].

وهكذا ظل أمين المكتبة باوزير يرسل التقارير ويقدم الاقتراحات السنوية لتذليل الصعوبات التي تواجه المكتبة، لكن لم تلب كلها فكانت المكتبة بين مد وجزر و«استمرت هذه الصعوبات متلازمة مع المكتبة من جهة، ومن جهة أخرى يتزايد عدد رُوَّاد وزُوَّار المكتبة حتى عام 1967م ولم تحرك إدارة المعارف ساكنًا حول هذا الموضوع»[22].

وبعد الاستقلال 1967م ضمت حضرموت إلى الجمهورية الجديدة، فصارت إدارة المعارف فرعًا من فروع وزارة التربية والتعليم، وتبعًا لهذا التغير صارت المكتبة تابعة لإدارة التربية والتعليم بالمحافظة، والجدير بالذكر أن صاحب المقترح بافقيه عُيِّن وزيراً للتربية والتعليم، وقد رفع أول تقرير في الحكم الجديد «أكد أن أحوال المكتبة في تدهور مستمر»[23].

وآخر تقرير كتبه باوزير في 11 جمادى الآخرة 1392هـ/ 22 يوليو 1972م أكد فيه ما ذكره في تقاريره السابقة[24]، وبعدها غادر البلاد. وكذلك تقارير مَنْ أتى بعده فقد جاء في تقرير

عندما حصل الانتعاش للمكتبة كتب المؤرخ سعيد عوض باوزير تحت عنوان جانبي (مَنْ يُصَدِّقُ؟): «كنت أشفق على الطلبة من انصرافهم عن القراءة وعدم اهتمامهم بالمطالعة بينما أحدثُ الكتبِ العلمية والأدبية على مقربةٍ منهم وعلى خطوات من محل دراستهم.. كنت أتألم لهم وهم يحرمون أنفسهم بمحض إرادتهم من هذه الثروة الثقافية المتاحة لهم والموضوعة تحت تصرفهم... فأصبحت اليوم أشفق على الكتب من التلف الذي تعرَّضت له بسبب كثرة القراء والإقبال الشديد على المطالعة.. وقى الله الطلبة شرَّ عيون الحاسدين.. وحفظ الكتب من شرِّ أصابع القارئين»

14 جمادى الآخرة 1398هـ/ 21 مايو 1978م «لقد عملت جاهداً مع إدارة التربية والتعليم بالمحافظة حول انتشال هذه الوضعية التي يعيشها هذا المرفق الحيوي، غير أن التجاوب لا زال وما زال بعيداً لما يطرح لهم منّا»[25].

وفي هذه المدَّة زُوِّدَت المكتبة بعدد من الكتب الإيديولوجية التي تعمل «على تكريس الفكر الاشتراكي والشيوعي في جنوب اليمن، فجاءت هذه الكتب تحمل عناوين منها: ألف باء الشيوعية، المركزية الديمقراطية عند ماركس وإنجلز،

الكفاح المسلح والماركسية، المسألة الفلاحية، حول المسائل اللينينية، الإمبريالية أعلى مراحل الرأسمالية، بيان الجزب الشيوعي وغيرها من الكتب التي لم تستسغ من قبل الفكر الحضرمي المطلع على الثقافة العربية الإسلامية»[26].

وآخر تقرير حصل عليه د. اليماني كان بتاريخ 9 أغسطس 1993م «وعند إلقاء نظرة عامة حول التقارير التي يرفعها أمناء المكتبة نجد أن المطالب والتوصيات في كل تقرير هي المطالب نفسها سواء كان في عهد السلطنة القعيطية، أو مراحل ما بعد استقلال جنوب اليمن وتوحده»[27].

موقع المكتبة:

تقع المكتبة في المنطقة التعليمية في غيل باوزير الذي يضم (مدرسة المعلمين، والثانوية الصغرى، والمدرسة الابتدائية النموذجية، ومكتب التفتيش)، وخصصت لها غرفة من غرف مدرسة المعلمين، ثم انتقلت إلى إحدى براقات مدرسة المعلمين أيضاً، وعندما ألغيت مدرسة المعلمين وصارت فصولها تابعة للمدرسة الابتدائية بقيت فيها مدةً من الزمن[28]، يصف باوزير مشهد المنطقة التعليمية وموقع المكتبة بقوله: «وواسطة العقد في هذه المباني المدرسية الجميلة هي بناية (مكتبة المعارف) غرفتان واسعتان مستقلتان، خُصِّصَتْ إحداهما للكتب والأخرى للمطالعة، يتقدَّمها ويتصل بها (بهوٌ) واسعٌ مستطيلٌ يقوم سقفُه على أعمدة أنيقة، تستطيع أن تشرف من خلالها على أشكال من الأشجار المختلفة، ذات المنظر السحري والأريج العطري»[29].

ثم تحولت المكتبة «إلى الطابق الأرضي في أحد المبنيين اللذين كان يسمّيهما أهل الغيل ديار السودانيين -يقعان حالاً غربيَّ مسجد باهارون-»[30]، ولا يعرف بالضبط تاريخ هذا الانتقال «ولا بد أن هذا الانتقال قد تم في أواخر الستينيات أو أوائل السبعينيات من القرن العشرين المنصرم»[31]. وقد أثر هذا الانتقال على المكتبة فقد «بدأت تفقد بريقها منذ غادرت موقعَها داخل المجمع التعليمي العتيد»[32].

وفي 22 يناير 1986م تقرَّر «نقل المكتبة إلى مقر النادي الأهلي بغيل باوزير بكل الكتب والأدوات التي تحتاج إليها، على أن تظل هذه الأدوات والكتب بالسجلات السابقة للإدارة، بينما وزع الأثاث الخشبي الخاص بها على بعض المدارس التي بحاجة إلى تأثيث»[33].

ثم تحولت في يوليو 1997م إلى المدرسة الوسطى (الحصن)، ولكن إنما هي كومة من الكتب الممزَّقة في إحدى مستودعات المدرسة الوسطى، يعبر الأستاذ نجيب عن ذلك الحال



بقوله: «حتى انزوت أخيراً في غرفة بائسة، لا تليق بمقامها في الطابق الأرضي من مبنى الحصن الأزهر العتيد بالغيل»(34). ويقول د. عادل إن المكتبة انتقلت إلى الحصن: «ولكن هذه المرة بدون مكتبة، بل أكوام من الكتب على الأرض»(35).

أمناء المكتبة:

1- الشيخ المؤرخ سعيد عوض باوزير (1915- 1978م)، الذي تولى المكتبة مدة (عشرين سنة) منذ تأسيسها في ربيع الآخر 1372هـ/ ديسمبر 1952م حتى مغادرته البلاد عام 1972م، فيذكر أنه «أشرف على إنشاء وتأسيس هذه المكتبة وعمل بحرص ونزاهة على اختيار كل كتاب من كتب المكتبة وكل فرع من فروعها»(36). فهو يعد «مؤسسًا وبانيًا لها لبنة لبنة، وكان مراجعًا ومدققًا في اختيار كتبها ونظمها، ومطورًا لأسلوب عملها»(37).

وكانت المدة التي تولى فيها المكتبة هو العصر الذهبي للمكتبة، وبقي ذكرُه حاضراً في أذهان الأجيال ممن كان يرتاد المكتبة، فيذكر مثلاً ذياب بن صخر العامري (عماني) أنه لما كان طالبًا في (معهد تدريب وإعداد المعلمين) بالغيل استعار كتاباً: «من مكتبة المعهد التي كان يشرف عليها المؤرخ الحضرمي الكبير والأديب المعروف الشيخ سعيد عوض باوزير، الذي كان -رحمه الله- يحفّزنا كثيراً على استعارة الكتب وقراءتها، بل وكتابة ملخص عن كل كتاب ننهي قراءته، وبعد مراجعته النص وتصحيحه إما أن يستمر في تشجيعنا على مواصلة قراءة كتب أخرى مشابهة لموضوع ذلك الكتاب الذي كنّا قد أنجزنا قراءته، أو أنه يقترح علينا قراءة كتب ذات اتجاه معرفي آخر، مما يتيح لنا في كلا الحالين التزوُّدَ بضروب شتّى من الثقافة الأدبية الفكرية والعلمية»(38).

2- الشيخ مبارك عبدالله باهمز(39) (توفي مساء الأربعاء 19 جمادى الآخرة 1423هـ/ 28 أغسطس 2002م)، وقد ارتبط الشيخ مبارك بمكتبة المعارف منذ الستينيات عندما عُيّن موظفًا فيها، «وكانت مهمة الشيخ مبارك المحافظة على الكتب والاعتناء بالمكتبة واستقبال رُوَّادها من الطلبة والأساتذة وإعارتهم ما يحتاجونه من الكتب حسب النظام المتبع. وكان يقوم بمساعدة أمين المكتبة في الستينيات وما قبلها شخص آخر هو المرحوم الأستاذ عوض مبارك بكران، الذي كان يقوم بتسجيل أسماء الكتب ومؤلفيها بخطه الجميل المميَّز في السجلات الخاصة بذلك حسب التصنيف الذي يرتئيه أمين المكتبة»(40)، وكذلك «من حسن حظ المكتبة أن الشيخ مبارك كان هو الآخر يمتلك موهبة الخط الجميل، فقام بعد ذلك بالمهمة نفسها التي كان يقوم بها الأستاذ بكران»(41).

وقد نشأت بينه وبين أمينها الشيخ سعيد عوض علاقة قوية(42)، وعندما غادر باوزير البلاد عُيّن باهمز أمينًا لها(43)، وبقي يشغل هذه الوظيفة حتى تقاعده عن العمل قبل وفاته بسنوات، وبهذا يكون قد شهد غالب المراحل التي مرت بها المكتبة(44).

جدول يبين بعض الاحصاءات والأرقام عن المكتبة(45)

العام	عدد الكتب	عدد القراء	العدد المستعار
1963م	1779	305	1846
1964م	2260	5545	5500
1965م	2980	-------	8405
1966م	3416	-------	9469
1967م	3643	-------	8242
1968م	3866	-------	10515
1969م	4137	-------	11921
1970م	3812(45)	-------	14618
1971م	3812	-------	9108
1972م	3812	-------	6226
1988م	3000	-------	-------
1992م	2800	-------	-------

الهوامش:

(1) الثقافة وسيلتنا إلى الكفاح (مقالات اجتماعية وتربوية وأدبية)، سعيد عوض باوزير، أعدها للنشر وعلق عليها: نجيب سعيد باوزير، دار جامعة عدن للطباعة والنشر، عدن، ط1، 1998م، ص116.

(2) مكتبة المعارف القعيطية 1951 - 1997م، د. عادل صالح اليماني، مجلة المهرة للعلوم الإنسانية، العدد (10)، شوال - ذي القعدة 1442هـ/ يونيو 2021م، علمية محكمة نصف سنوية، كلية التربية، المهرة، اليمن، ص278.

(3) مرجع سابق، ص279.

(4) مرجع سابق، ص279.

(5) مرجع سابق، ص280 - 281.

(6) مرجع سابق، ص281.

(7) مرجع سابق، ص282.

(8) الفكر والثقافة في التاريخ الحضرمي، سعيد عوض باوزير، الصالحية للنشر والتوزيع، غيل باوزير، حضرموت، ط2، 2011م، ص260.

(9) مرجع سابق، ص283.

(10) وفي التقرير ورد أنها 1100 كتاب عربي. مرجع سابق، ص283.

(11) وفي التقرير 300 كتاب باللغة الإنجليزية. مرجع سابق، ص283.

(12) مرجع سابق، ص260.

(13) مرجع سابق، ص260.

(14) مرجع سابق، ص260.

(15) مرجع سابق، ص283.

(16) مرجع سابق، ص283.

(17) مرجع سابق، ص116.

(18) مرجع سابق، ص116.

(19) مرجع سابق، ص283.

(20) مرجع سابق، ص284.

(21) مرجع سابق، ص116.

(22) مرجع سابق، ص286.

(23) مرجع سابق، ص287.

(24) ينظر التقرير في: حياة جديدة - سيرة ذاتية وشهادات، سعيد عوض باوزير، دار حضرموت للدراسات والنشر، المكلا، حضرموت، ط1، 2003م، ص182 - 186.

(25) مرجع سابق، ص288.

(26) مرجع سابق، ص289.

(27) مرجع سابق، ص290.

(28) إفادة من الأستاذ نجيب سعيد باوزير، بتاريخ 3 ديسمبر 2024م.

(29) مرجع سابق، ص116.

(30) مكتبة المعارف بغيل باوزير، نجيب سعيد باوزير، مجلة (حضرموت)، دار حضرموت للدراسات والنشر، المكلا، العدد (6 - 7) يناير - ديسمبر 2012م، ص84.

(31) مرجع سابق، ص84.

(32) مرجع سابق، ص83.

(33) وهو قرار اتخذته سكرتارية الحزب الاشتراكي اليمني بالغيل بحضور عبدالرحيم عمر بن غوث باوزير ممثلاً عن الإدارة العامة للتربية والتعليم وعدد من المسئولين بمركز الغيل وعن لجنة النادي الأهلي. مرجع سابق، ص288.

(34) مبارك.. العبد الصالح، نجيب سعيد باوزير، دورية (الفكر)، جمعية المؤرخ سعيد عوض باوزير، غيل باوزير، العدد (19) أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر 2002م، ص7.

(35) مرجع سابق، ص290.

(36) مرجع سابق، ص184.

(37) المؤرخ والأستاذ سعيد عوض باوزير - دوره في تأسيس وإدارة مكتبة المعارف لعشرين عامًا (1952 - 1972م)، صالح سعيد بامطرف، مجلة (المكلا)، مكتب وزارة الثقافة، المكلا، العدد (27) أكتوبر - ديسمبر 2018م، ص13.

(38) ويلفريد ثيسيجر: أليف البوادي، ذياب بن صخر العامري، دورية (الفكر)، جمعية المؤرخ سعيد عوض باوزير، غيل باوزير، العدد (2 - 3)، إبريل - يونيو/ يوليو - سبتمبر 1996م، ص4.

(39) يخطأ بعض الباحثين فيكتبونه باهرمز ويكتبون أبوه العبد وإنما هو عبدالله.

(40) مرجع سابق، ص7.

(41) مرجع سابق، ص7.

(42) فيذكر الأستاذ نجيب أنه «عندما قرر الشيخ سعيد السفر إلى خارج الجمهورية في أواخر عام 1972م، اختار الشيخ مبارك لكي يودع لديه هذه الكتابات وغيرها من أوراقه المهمة وبعض الكتب التي كان حريصًا على الاحتفاظ بها. وقد قام الشيخ مبارك فعلاً بالحفاظ على هذه الأمانة حتى بعد وفاة الشيخ سعيد ثم سلمها لنا عندما حان الوقت المناسب. وكانت هذه خدمة جليلة أخرى قدمها الشيخ مبارك ليس فقط للشيخ سعيد وأسرته بل للتاريخ وللتراث الفكري الوطني». مرجع سابق، ص7.

33
العدد (37)
يوليو
سبتمبر
2025م

(حضرموت الثقافية) تحاور الأستاذ حسين محمد باراس

رحلة تصحيح الأوضاع التجارية وتطوير مجتمع الأعمال الحضرمي في السعودية



نبذة مختصرة:

- الاسم: حسين بن محمد حسين باراس.
- تاريخ الميلاد: مايو 1982م.
- مكان الميلاد: المكلا، حضرموت.

المؤهلات العلمية:

- أتممت دراستي الأساسية في المملكة العربية السعودية بين مدينتي الطائف ومنطقة الباحة.
- التحقت بكلية الطب بجامعة العلوم والتكنولوجيا في صنعاء عام 2000/2001م، ثم واصلت دراستي بجامعة العلوم التطبيقية خلال الفترة 2004 - 2006م.
- حصلت على دبلوم في إدارة الأعمال من كلية المجتمع عام 2005م، بالإضافة إلى عدد من الدورات المتخصصة في مجالي التسويق والتطوير العقاري عن بُعد.

الخبرات العملية:

بدأت مسيرتي التجارية في أثناء دراستي الجامعية في صنعاء عام 2004م؛ إذ قمت بتأسيس مشروع سكن جامعي يتسع لـ 215 طالبًا، وكان أول مشاريعي في مجال ريادة الأعمال. وفي أواخر عام 2011م عدت إلى المملكة العربية السعودية لمواصلة مسيرتي المهنية وتطويرها في قطاع المقاولات والتسويق العقاري، تلا ذلك تأسيس شركة آفاق التمليك عام 2013م، ثم إنشاء الشركة الفرعية سهالة التمليك عام 2021م لتقديم الخدمات الإدارية والمقاولات.

في هذا الحوار الشامل مع الأستاذ حسين محمد باراس، الرئيس التنفيذي لشركة سهالة للتمليك، ترصد مجلة (حضرموت الثقافية) مسيرته الشخصية، ودور شركته في دعم وتصحيح أوضاع رجال الأعمال الحضارمة بالمملكة العربية السعودية، مع تسليط الضوء على التحديات، والاستراتيجيات، والآفاق المستقبلية.

بداية المشوار والدوافع

يستعرض الأستاذ حسين بداياته في عالم الأعمال، التي انطلقت أواخر 2011م في المقاولات والتسويق العقاري، تلاها تأسيس شركة آفاق التمليك عام 2013م، ثم إنشاء الشركة الفرعية (سهالة التمليك) عام 2021م لتقديم الخدمات الإدارية والمقاولات.



ويؤكد أن المبادرات جاءت انطلاقًا من المبادئ الدينية وقول النبي: «خيركم خيركم لأهله»، مستفيداً من مكرمة المملكة في تصحيح أوضاع المستثمرين؛ إذ سعت الشركة لدعوة رجال الأعمال الحضارمة ومساعدتهم لترتيب مستنداتهم للاستفادة من الفرصة، مشدداً على أن الحضارم دائمًا سباقون لامتثال الأنظمة.

تحديات التصحيح وعقباته

يشرح الأستاذ حسين أن أبرز التحديات تمثلت في إعادة هيكلة كيانات كانت تعمل في الظل، مما أثَّر سلبًا في نموِّها وفي السوق ككل. أما العقبات القانونية فتركزت في غياب النظم المحاسبية وهيكلة العمل الإداري لدى الكثير من تلك الكيانات. ومن هنا برز دور "سهالة" في تقديم الاستشارات التنظيمية، وتوجيه العملاء للتعاقد مع محاسبين قانونيين، والتنسيق مع الجهات المختصة.

الانتقال من أوضاع التستر إلى النظام: تجربة حضرمية فريدة في الامتثال والاندماج

رغم أن الانتقال من بيئة الأعمال غير النظامية إلى النظام القانوني يُعد تحديًا كبيراً عادةً، غير أن تجربة المستثمرين الحضارمة في المملكة كما يرويها الأستاذ حسين باراس اتسمت بخصوصية واضحة. فلم تكن الصعوبة في مقاومة النظام الجديد، بل في فهم اللوائح والإجراءات، خاصة أن عدداً منهم كان يعمل بشكل عائلي من غير هيكل تنظيمي أو حسابات دقيقة. هنا برز دور (سهالة) التي قدمت التوعية والتدريب عبر جلسات وورش عمل، ورافقت المستثمرين في ترتيب المستندات وصياغة العقود وتنظيم العمل الإداري والمالي بالتعاون مع محاسبين ومحامين معتمدين.

كما أن الدعم التقني وتسهيل استخدام المنصات الرقمية الحكومية أسهم في تسريع الإجراءات، وعزَّز ثقة المستثمرين في التعامل مع الجهات الرسمية. هكذا أصبح الانتقال أكثر سلاسة، وفتح أمام المستثمرين الحضارمة آفاقًا للتوسع والاندماج في السوق النظامي، في تجربة تثبت أن التشريعات وحدها لا تكفي، بل يتطلب النجاح دعمًا عمليًا واحترافيًا مثلما قدَّمته (سهالة) بالتعاون مع الجهات الحكومية.

SAHALA
شركة سهاله التمليك المحدودة



استراتيجيات المساندة ودعم المجتمع

اتخذت "سهالة" منهجًا شاملاً بالاستناد لعلاقاتها المجتمعية ورصيدها من الثقة، ونظمت فعاليات لتشجيع المستثمرين على تصحيح أوضاعهم. كذلك تم التعاون مع مكاتب محاسبة ومحامين معتمدين لضمان تقديم أفضل الخدمات.

قصص نجاح وتأثير ملموس

يشير باراس إلى أن قطاع تجزئة المواد الغذائية كان من أكبر المستفيدين؛ إذ لوحظ نموٌّ واضحٌ في المبيعات خلال السنوات الثلاث بعد حملة التصحيح، معتبراً هذه التجربة مثالاً حيًا لقدرة التصحيح على تطوير الأعمال واستدامتها.

نصائح وتوجيهات لرجال الأعمال

يدعو باراس رجال الأعمال إلى التحلي بالشفافية والاستفادة القصوى من مبادرات التصحيح، من خلال اعتماد الحلول المناسبة، سواء بدمج الكيانات أو فصلها حسب الحاجة، مستفيدين من مرونة التشريعات الحديثة التي يسّرت إجراءات تأسيس الشركات وتنظيم الحصص بين الشركاء، مما يعزز الأمن القانوني والاستقرار في بيئة الأعمال. كما يشدد على أهمية بناء تحالفات تجارية متوافقة مع الأنظمة المحلية تسهم في دعم اقتصاد المملكة وتحقق النفع للتجار الحضارم، بالإضافة إلى ضرورة تشجيعهم



> يرى باراس أن مكرمة التصحيح أحدثت فارقاً حقيقياً، فجعلت بيئة العمل أكثر وضوحاً وجاذبية، وعزّزت من اندماج مجتمع المستثمرين الحضارمة في الاقتصاد السعودي. كما أسهمت في استقرار الأسر وازدهار المجتمع على مختلف الأصعدة

على العمل المجتمعي، خاصة في مجالي تأهيل الكوادر الشبابية وتدريبها والاستثمار في تنمية رأس المال البشري، لما لذلك من أثر مستدام وإيجابي في المجتمع والاقتصاد.

الأثر في المجتمع الحضرمي والسعودي

يرى باراس أن مكرمة التصحيح أحدثت فارقًا حقيقيًا، فجعلت بيئة العمل أكثر وضوحًا وجاذبية، وعزّزت من اندماج مجتمع المستثمرين الحضارمة في الاقتصاد السعودي. كما أسهمت في استقرار الأسر وازدهار المجتمع على مختلف الأصعدة.

دور الحضارم: اندماج وإبداع

يؤكد رئيس شركة (سهالة) على الدور التاريخي للحضارم في إثراء المجتمعات التي يعيشون فيها، وبناء علاقات متينة تسهم في الازدهار الاقتصادي والاجتماعي. وينصح رجال الأعمال الحضارمة الشباب بالتمسك بأمانة الأسلاف، والالتزام بالأنظمة، وخلق الشراكات لمواكبة تطورات عالم التجارة.

التطلعات المستقبلية

يختتم باراس بأن مستقبل رجال الأعمال الحضارمة في السعودية واعد، لا سيما في ضوء رؤية المملكة 2030م، داعيًا إلى التكتل لصناعة شراكات تواكب البيئة التنافسية الجديدة. وينصح بالاستثمار في قطاعات الصناعة، والتقنية، والعقارات كبنية تحتية مستقبلية لأي اقتصاد قوي.



> ”
>
> يؤكد رئيس شركة (سهالة) على الدور التاريخي للحضارم في إثراء المجتمعات التي يعيشون فيها، وبناء علاقات متينة تسهم في الازدهار الاقتصادي والاجتماعي. وينصح رجال الأعمال الحضارمة الشباب بالتمسك بأمانة الأسلاف، والالتزام بالأنظمة وخلق الشراكات لمواكبة تطورات عالم التجارة
>
> “

حوار يُظهر كيف أسهم تصحيح الأوضاع التجارية في دفع رجال الأعمال الحضارمة نحو مزيد من الشفافية والاستدامة، وكيف رسّخت هذه التجربة أواصر الشراكة بين الحضارم والمجتمع السعودي، وأطلقت طاقات جديدة نحو التنمية والاندماج الاقتصادي المتكامل.



رجال أعمال حضارمة في شركة "سهالة للتمليك"

37
العدد (37)
يوليو
سبتمبر
2025م


رجال أعمال حضارمة
في شركة "سهالة للتمليك"

هناك عدد من القصص الناجحة التي تبرز الأثر المباشر لدعم شركة (سهالة) في تجارة المستثمرين الحضارمة في المملكة العربية السعودية، كما أشار الأستاذ حسين محمد باراس في مقابلته:

• من أبرز الأمثلة قطاع تجزئة المواد الغذائية؛ إذ شهد هذا القطاع نمواً ملحوظًا في المبيعات خلال السنوات الثلاث التي أعقبت حملة التصحيح التجاري. ويعزو ذلك بشكل أساسي إلى تنفيذ إجراءات تنظيمية، وتقديم الاستشارات الإدارية والمحاسبية التي وفَّرتْها شركة (سهالة)، فمكَّن الشركات من الانتقال للعمل وفق الأنظمة الرسمية، وزيادة ثقة العملاء والمؤسسات الحكومية في تعاملاتها.

• شملت قصص النجاح أيضًا الحالات التي تم فيها دمج الكيانات التجارية أو فصلها بناءً على دراسة احتياجاتها، مما أسهم في تحقيق الاستقرار الإداري والمحاسبي، وتسهيل تطوير الأعمال ونموها بشكل ملحوظ.



> "إن مستقبل رجال الأعمال الحضارمة في السعودية واعد، لا سيما في ضوء رؤية المملكة 2030م، داعياً إلى التكتل لصناعة شراكات تواكب البيئة التنافسية الجديدة. وينصح بالاستثمار في قطاعات الصناعة، التقنية، والعقارات كبنية تحتية مستقبلية لأي اقتصاد قوي"

• لم يقتصر الدعم على الجانب التجاري فحسب، بل شمل أيضًا تحسين بيئة العمل وجاذبيتها للمستثمرين ورُوَّاد الأعمال الحضارمة، وتعزيز روح الانتماء للمجتمع السعودي، والإسهام في استقرار الأسر الحضرمية وازدهارها.

هذه التحولات انعكست بشكل مباشر على أداء عدد من المستثمرين الحضارمة، وأسهمت في توسعة أنشطتهم وزيادة أرباحهم واستدامة أعمالهم ضمن البيئة النظامية الجديدة في المملكة. ويمكن اعتبار نمو قطاع التجزئة وتحوّل الكيانات المخالفة إلى كيانات نظامية أمثلة بارزة على الأثر الواضح لهذه الجهود.

38
العدد (37)
يوليو
سبتمبر
2025م

الصلات بين المغرب العربي(*) وحضرموت





د. أبو بكر
حسين مقيبل

التعريف بالمغرب العربي:

اسم بلاد المغرب هو اسم الاتجاه الأصلي الذي يحدد مغرب الشمس، وهذا يعني أنه مصطلح عام قصد به البلاد الواقعة في اتجاه غروب الشمس عكس البلاد الواقعة في اتجاه شروق الشمس والتي تسمى تبعًا لذلك بالمشرق[2].

وقيل إن مصطلح المغرب يطلق على كل ما يلي مصر غربًا حتى المحيط الأطلسي[3]. وبعض كتّاب العرب مثل علي بن سعيد المغربي صاحب كتاب (فلك الأرب المحيط على لغة العرب) يدخل مصر في بلاد المغرب في كتابه هذا. وقيل أطلقت عبارة المغرب في البداية على مجموع البلاد الواقعة غرب النيل، وبعد إنشاء القيروان[4] سنة 50هـ/ 670م، تميزت أفريقية والمغرب عن ولاية مصر، وإثر ذلك تبلورت الحدود الفاصلة بين الإقليمين في أحوز تبهرت، قاعدة إمارة الرستميين[5]. ولكن بقية المؤلفين العرب يدخلون مصر في المشرق ويبدئون بلاد المغرب من إقليم برقة الذي يعرف اليوم بولاية بن غازي.

وقد حدد ابن خلدون بلاد المغرب بقوله: إن المغرب قطر واحد مميز بين الأقطار، فحدُّه من جهة الغرب بحر المحيط (يريد الأطلسي)... وعليه كثير من مدنه مثل طنجة وسلا وأزمور وأنفي وأسفي، وهي من مدن المغرب وحواضره، وعليه أيضًا مسجد ماسة وبلدتا قاوصت ونول من بلاد السوس، وهي كلها من مساكن البربر وحواضرهم. وأما حَدُّه من جهة الشمال فالبحر الرومي (يريد المتوسط) المتفرِّع من هذا البحر المحيط... وأما حده من جهة القبلة والجنوب فالجبال المتهيلة المائلة حجزاً بين بلاد السودان وبلاد البربر، وتعرف عند العرب الراحلة البادية بالعرق، وهذا العرق سياج على المغرب واحد إلى أن يعترضه النيل الهابط من الجنوب إلى مصر، فهنالك ينقطع وعرضه ثلاث مراحل وأزيد[6].

وقد ذكر مؤرخو العرب عن أصول يمنية حميرية لبعض قبائل البربر، مثل كتامة وصنهاجة ليست مجرد أساطير، وإنما هي أصداء لهجرات بعيدة من اليمن إلى الصومال، ومن هناك شمالاً إلى وادي النيل ثم غربًا أو شمالاً بغرب إلى المغرب، وهذه الهجرات بطبيعة الحال قديمة جداً، ترجع في الغالب إلى ما قبل عصر الأسر في مصر، وقد وجدنا نقوشًا ورسومًا على الأحجار في الكثير من مناطق المغرب، وهذه الرسوم تتصل في خط واحد، يبدأ من الفيوم أو من الدلتا، وتستمر حتى جبال الريف في إقليم طنجة، وهي منسوبة إلى ذلك الجنس الذي سمَّاه المصريون القدماء بالتحنو، ويسمّيهم علماء الأجناس بأصحاب الريش (Feder Seute) وهي تسمية ألمانية أطلقها عليهم العالم الألماني شليمان بناءً على ما رآه من الرسوم على الآثار المصرية وصخور صحاري المغرب[7].

وكان المغرب في جملته عندما بدأ العرب في فتحه في منتصف القرن السابع الميلادي مستقلاً عن أي سلطان خارجي، فيما عدا إقليم أفريقية، الذي كان ولاية أو مستعمرة بيزنطية، يحكمها حاكم يلقب بالبطريق، وكان اسم هذا البطريق عند بداية الفتح العربي جريجوريوس، الذي يسميه العرب جرجير، وكانت تؤيده حامية من الجند المرتزق، ولم يكن سلطانه يمتد إلا على سكان النصف الشمالي من إقليم أفريقية المسمى ولاية زويجتانيا (Zeugitania) أي شمال تونس الحالية، أمَّا بقية بلاد أفريقية وهي الولاية الجنوبية المعروفة باسم بيزاسينا (Bezacena) وبقية بربر المغرب كله فلم يكونوا يخضعون لأي سلطان[8].

وعندما استقر الأمر لمعاوية وتحرك نشاط الفتوح من جديد أرسل معاوية بن حديج السكوني أو الكندي وهو رجل من حضرموت اليمن على رأس جيش من عشرة آلاف جندي سنة 45هـ/ 665م، ويبدو أن الذي حفز معاوية على تسيير هذه الحملة ورود الأخبار بمسير أسطول بيزنطي يحمل

"وقد ذكر مؤرخو العرب عن أصول يمنية حميرية لبعض قبائل البربر، مثل كتامة وصنهاجة ليست مجرد أساطير، وإنما هي أصداء لهجرات بعيدة من اليمن إلى الصومال، ومن هناك شمالاً إلى وادي النيل ثم غرباً أو شمالاً بغرب إلى المغرب، وهذه الهجرات بطبيعة الحال قديمة جداً، ترجع في الغالب إلى ما قبل عصر الأسر في مصر"

جيشًا إلى أفريقية، وقد رسى الأسطول فعلاً في ما بين صفاقس وسوسة وأنزل جيشًا على رأسه قائد يسمى نقفور[9].

ولما وصل معاوية بن حديج مع رجاله عجلوا بمهاجمة الروم، فأسرع هؤلاء بالفرار إلى أسطولهم من غير قتال، واستولى المسلمون على سوسة، ثم استولوا على حصن مهم يسمى جلولاء، كان يعد أحصن مواقع خط الدفاع الثاني عن إفريقية البيزنطية، واسمه في النصوص البيزنطية (Couloulis). وكما حدث في الغزوة الماضية كانت الغنائم كثيرة ووافرة، وقد حدث خلاف هذه المرة أيضًا على قسم الغنائم، واضطر معاوية بن حديج إلى رفع الأمر إلى معاوية الذي أيَّد قائده فيما رآه من أن الغنائم توزع على الجيش كله لا على السَّرِيَّة التي فتحت هذا الحصن أو ذاك فقط.

وبعد هذه الفتوح عاد معاوية بن حديج إلى مصر من غير أن يترك قائداً أو عاملاً كما فعل عبدالله بن سعد. ويفهم من هذا التصرف ومن سلوك معاوية بن حديج في أثناء هذه الغزوة أن البربر أهل البلاد كانوا قد أصبحوا حلفاء للمسلمين على الروم، وأن المسلمين كانوا يكتفون إلى ذلك الحين بإبعاد الخطر الرومي من هذه الناحية[10].

وقد اختلط البربر بالعرب لمَّا دخل العرب الهلالية بمجموعهم المغرب في منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وكان هذا من أكبر عوامل تعريب المغرب كله، واستقر جماعات كبيرة منهم في وادي أم ربيع ووادي درعة واختلطوا بالناس وعرَّبوهم تعريبًا عميقًا؛ إذ نجد أن مؤرخ المغرب الإسلامي لا ينظر إلى الغزوة الهلالية تلك النظرة المنكرة التي ينظر بها إليها المستشرقون الفرنسيون، وخاصة أولئك الذين يعتقدون أنه لولا الهلالية لمَّا تعرب المغرب، ولسَهُلَ عليهم تمثيله في كيانهم، أو كذا يظنون، بل ينظر المؤرخ العربي إلى الهلالية بأنهم من أكبر عوامل تعريب المغرب وإسلامه، وهم من بناة المغرب الإسلامي العربي[11].

التصوف المغربي وأثره في المجتمع الحضرمي

إنّ الصلات العلمية والروحية بين المغرب كجهة وحضرموت كمخلاف يمني قديمة وعريقة، فما عثر عليه في كتب التاريخ من مشاركة القبائل الحضرمية في فتح المغرب، وتأكيدها استقرار الكثير من رجال هذه القبائل في تلك الجهات، حيث امتزجوا مع رجال تلك القبائل المغربية، فنبغ من بينهم على مستوى الإبداع العلمي ببلاد المغرب عدد من الشخصيات، التي تعود أصولها إلى حضرموت، وما العلامة ابن خلدون صاحب المقدمة عنَّا ببعيد؛ إذ نسبه ممتد إلى حضرموت، قال الزركلي: عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الأشبيلي، من ولد وائل بن حجر الحضرمي (732 – 808هـ) الفيلسوف المؤرخ، العالم الاجتماعي البحاثة، أصله من أشبيلية، ومولده ومنشأه بتونس[12].

كما نبغ في الأراضي المغربية من أصول حضرمية عدد من الأشخاص، منهم: ذلك الرجل الزاهد العابد صاحب العلم والجاه، الذي ذاع صيته في كل أرجاء تونس وفي ساحل القيروان خاصة، وهو مسرة بن مسلم بن ربيعة الحضرمي (ت393هـ)[13]. وكذا من تحدث عنه ابن القاضي فقال:

> **عندما استقر الأمر لمعاوية وتحرك نشاط الفتوح من جديد أرسل معاوية بن حديج السكوني - أو الكندي - وهو رجل من حضرموت اليمن على رأس جيش من عشرة آلاف جندي سنة 45هـ / 665م، ويبدو أن الذي حفز معاوية على تسيير هذه الحملة ورود الأخبار بمسير أسطول بيزنطي يحمل جيشاً إلى أفريقية، وقد رسى الأسطول فعلاً في ما بين صفاقس وسوسة وأنزل جيشاً على رأسه قائد يسمى نقفور**

كان فقيهًا مشاركًا، حافظًا للخلاف، وقد عرف بكثرة مؤلفاته وهو عبدالرحيم بن عمر بن عبدالرحيم الحضرمي (ت500 – 580هـ)[14]. ومنهم أحمد بن محمد بن حسن بن خضر الصدفي الشاطبي، أبو العباس (ت674هـ)، كان عالم القراءات، اشتهر ببجاية وتوفي فيها، له كتاب في (قواعد الخط)، وكتابان في (قراءة ورش)[15]. وعبدالمهيمن بن محمد بن عبد المهيمن، أبو محمد الحضرمي صاحب القلم الأعلى بفاس (676 – 749هـ)[16]، وغيرهم كثير.

فبدايات التواصل الصوفي المغربي مع حضرموت يعود إلى القرن السادس الهجري، وذلك عندما تم الاتصال بطريق العارف شعيب أبي مدين المغربي الصوفي (ت594هـ)؛ إذ أجمعت كتب الأسانيد والتاريخ أن بدايات الارتباط والتواصل بالطريقة الشعيبية المدائنية المغربية كانت عندما أمر العارف الشيخ أبو مدين[17] تلميذه الشيخ عبدالرحمن بن محمد المقعد الحضرمي ثم المغربي، وكان من أكابر تلاميذه، وقال له: ((إن لنا بحضرموت أصحابًا، اذهب إليهم،

وخذ عليهم التحكيم وحكمهم وألبسهم الخرقة))، وأعطاه الخرقة وأمره أن يعطيها الأستاذ الأعظم الفقيه المقدم محمد بن علي باعلوي (574 - 653هـ) بتريم حضرموت، ولمَّا وصل المقعد إلى مكة المكرمة حضرته الوفاة فأوصى من تلامذته الشيخ الكبير عبد الله الصالح المغربي وأعطاه تلك الخرقة الشريفة وأمره بالسفر إلى حضرموت لتحكيم مجموعة من كبار علمائها وصلحائها، وهم: الفقيه المقدم محمد بن علي باعلوي، والشيخ سعيد بن عيسى العمودي، والشيخ باعمر وصاحب (عُورة) والشيخ باحمران صاحب (ميفعة) رحمهم الله أجمعين.

وصل الشيخ عبدالله الصالح المغربي[18] إلى حضرموت وقصد العلماء المذكورين، مبتدئًا بالفقيه المقدم وحكمهم وألبسهم الخرقة، وبهذا الأمر تم الارتباط الصوفي بين المدرسة العلوية الحضرمية اليمنية والمدرسة الشعيبية المدينية المغربية[19]. وعن قوة ارتباطهم بالطريقة المغربية وافتخارهم بها يتحدث الإمام عبدالله بن علوي الحداد في قصيدته المعروفة بالعينية، فقال:

وكصاحب الغرب المنير شعيبة

والسهروردي العوارف فاتبع[20]

فقد عنى بصاحب الغرب الإمام العارف أبا مدين وأشار بكلمة (المنير) إلى كون المغرب أشرق نوره بشعيب هذا، وهذا ما أكده بعض صلحاء المغرب بقوله:

تبدت لنا أعلام أهل الهدى صدقا

فصار بشمس الدين مغربنا شرقا

وأشرق منها كل ما كان آفلا

فأصبح نور السعد قد ملأ الأفقا

وعنى بكلمة (شعيبة) بأنه كالشعب الذي تسيل منه الأودية بقدرها وتسقى بها الأراضي، وهذا المعنى أكده القائل المغربي السابق بقوله:

سقيت بعلم يا شعيب قلوبنا

فاسمك من شعب القلوب قد اشتقا

> **كما نبغ في الأراضي المغربية من أصول حضرمية عدد من الأشخاص، منهم: ذلك الرجل الزاهد العابد صاحب العلم والجاه، الذي ذاع صيته في كل أرجاء تونس وفي ساحل القيروان خاصة، وهو مسرة بن مسلم بن ربيعة الحضرمي (ت393هـ). وكذا من تحدث عنه ابن القاضي فقال: كان فقيهاً مشاركاً، حافظاً للخلاف، وقد عرف بكثرة مؤلفاته وهو عبدالرحيم بن عمر بن عبدالرحيم الحضرمي (ت500- 580هـ). ومنهم أحمد بن محمد بن حسن بن خضر الصدفي الشاطبي، أبو العباس (ت674هـ)، كان عالم القراءات، اشتهر ببجاية وتوفي فيها**

وقد أشار إلى هذه العلاقة بقوله: (فأصل طريق السادة آل أبي علوي: الطريقة المدينية، طريق الشيخ أبي مدين شعيب المغربي، وقطب مدارها وحقيقتها الفرد الغوث الشيخ الفقيه المقدم محمد بن علي باعلوي الحسيني الحضرمي)[21].

وبما أن شعيب أبا مدين كان قد تحكم لعبدالقادر الجيلاني[22] صاحب الطريقة الجيلانية، واتصل به وألبسه الخرقة، وقرأ عليه في الحرم كثيراً من كتب الحديث والسنة، فكان أبو مدين يفتخر بصحبته، ويعده أفضل مشايخه الأكابر[23]. فإن ذلك يجعل مدرسة حضرموت جامعة للطريقة الجيلانية والمدائنية.

مما لا شك فيه أن التصوف المغربي ترك أثراً كبيراً في واقع الإنسان الحضرمي، سواء العلمي أو الاجتماعي أو حتى السياسي؛ لأن المجتمع الحضرمي في القرن السادس الهجري

ساد فيه التوتر والقلق، وانتشرت فيه ظاهرة حمل السلاح، وبلغ ذروته حين حمل السلاح رجال العلم والفقه، وصارت الناس تحتكم للسلاح في معالجة قضاياها.

حتى نقل لنا كتّاب التاريخ أن الفقيه المقدم محمد بن علي باعلوي كان يقرأ العلم (أي علم الفقه) على الفقيه علي بن أحمد با مروان (ت624هـ) وسلاحه على رجليه موضوع[24]، إشارة إلى حالة الاستنفار الناتج عن غياب التزكية كمنهج مدروس يعادل العلوم الأخرى مدارسةً وتطبيقًا.

فما أن وصل مبعوث العارف أبي مدين يحمل منهجية واضحة في ترويض النفوس إلا وسارع الفقيه المقدم إلى قبولها، وأعلن ذلك القبول في الملأ.. وذلك بأن لبس خرقة العارف أبي مدين المرسلة له، وكسر سيفه الذي كان لا يفارقه إشارة إلى ابتداء مرحلة من مراحل العلم والوعي يجب أن تسود في قطر كحضرموت؛ لتخلصه من رعونات النفس وحدتها. وقد كان من نتيجة أخذ الفقيه المقدم للتصوف المديني أن اغتاظ عليه شيخه العلامة الفقيه علي بن أحمد بامروان (الممثل لريادة المدرسة الفقهية في ذلكم العصر) وقال له: رجوتك إمامًا مثل ابن فورك، فتركت صحبتنا ورجعت إلى زي الصوفية، فقال له سيدنا الفقيه المقدم: الفقر خير[25]، واستمرت هجرة أبي مروان له إلى أن توفي.

ولعل الشيخ أبا مروان خاف على تلميذه من أن ينحى في تصوفه منحى التصوف الفلسفي من تعطيل علوم الشرع والإكثار من الملابسات، التي قد تشغله عن حقيقة التدين، غير أن هذا لم يرد في مدرسة حضرموت إلى يومنا هذا، فجميع من سلك طريقة التصوف بحضرموت يجمعون بين التضلع من علوم الشرع المتوَّجة بحظ كبير من معاني التزكية والسلوك، الملتزمة بإبلاغ تعاليم الدين وفق هذا المضمون الثلاثي (علم وسلوك ودعوة).

مكّنت هذه الطريقة الصوفية مدرسة حضرموت من نشر تعاليم هذا الدين الإسلامي في الهند وإندونيسيا وشرق أفريقيا، بعد أن أنعشوا حركة العلوم في أوطانهم كما تشير إلى ذلك كتب التاريخ.

كما أن من الآثار الواضحة للتصوف المغربي على مدرسة حضرموت أن تشيَّع الأفراد والأسر بأوراد الطريقة وأذكارها، وترنَّم بها الرجال والنساء في البيوت والطرقات.

أما من الناحية السياسية فقد أسهم التصوف في الحد من اندلاع الحروب والقلاقل؛ إذ انصاع الكثير من الحكام والساسة لشخصية الفقيه المقدم وأشركوه في حل الكثير من النزاعات القبلية، وكانت له كلمة مسموعة في جميع بلاد حضرموت واليمن، وتسلسل هذا الأمر في أعقابه من بعده إلى يومنا هذا، بل قد صار ما هو أعظم من ذلك وهو اتسام الكثير من حكام حضرموت بالعلم والمعرفة والخضوع المباشر لروح الطريقة العلوية.

ولم تكن مدرسة حضرموت مختزلة في شخصية الفقيه المقدم بل شملت رجالاً آخرين من مدرسة حضرموت، الذين كان لهم دور بارز في مناطقهم على وجه الخصوص وحضرموت عامة، كأمثال الشيخ سعيد بن عيسى العمودي، والشيخ باعمرو صاحب (عُورة)، والشيخ باحمران صاحب (ميفعة)، فقد كان لهم مشاركة فاعلة في تفعيل المقاصد الصالحة في مجتمعاتهم التي عاشوا بها، إلا أن الشهرة والصولة الكبرى كانت للفقيه المقدم وذريته من بعده.

الهوامش:

1) أطلقتُ اسم المغرب العربي على (تونس والمغرب) وأغفلتُ ليبيا والجزائر وهي جزء منه لعدم توفر المصادر التي تعينني على ايفائها حقها، راجيًا أن أعود إلى الموضوع حينما أتمكن من ذلك.

2) انظر ابن خلدون، عبدالرحمن: تاريخ ابن خلدون، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، بيروت- لبنان، ط/ 2، 1408هـ/ 1988م، 6/ 128.

3) سالم، عبدالعزيز: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، الناشر: مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية- مصر، ط/ 2، 1982م، ص40. ينظر كذا عبد محمد، سوادي: دراسات في تاريخ المغرب العربي من القرن الثالث الهجري حتى القرن العاشر

الهجري، 1989م، ص15. العربي من القرن الثالث الهجري حتى القرن العاشر الهجري، 1989م، ص15.

4) وهي مدينة عظيمة بالمغرب، بناها عقبة بن نافع سنة 45هـ وجعلها حصناً لجيشه. (الحموي: معجم البلدان، 4/ 420).

5) القبلي، محمد: تاريخ المغرب تحيين وتركيب، منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، الرباط، 2011م، ص145.

6) ابن خلدون، عبدالرحمن: تاريخ ابن خلدون، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، بيروت لبنان، ط/ 2، 1408هـ/ 1988م، 6/ 131.

7) مؤنس، حسين: تاريخ المغرب وحضارته، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط/ 1، 1410هـ/ 1990م، ص41.

8) المصدر السابق: ص67.

9) عبدالحميد، سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي من الفتح إلى بداية عصر الاستقلال (ليبيا وتونس والجزائر والمغرب)، منشأة المعارف بالإسكندرية - عبدالحميد، سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي من الفتح إلى بداية عصر الاستقلال (ليبيا وتونس والجزائر والمغرب)، منشأة المعارف بالإسكندرية- مصر، 1993م، 169/ 1-1993.171م، 1/ 169-171.

10) مؤنس، حسين: فتح العرب للمغرب، مكتبة الثقافة الدينية، ط/ 1، 1900م، ص110- 127. بتصرف.

11) ومن ذلك ما أشار إليه الأستاذ الجامعي التونسي الدكتور خليفة الشاطر في صفحة 246 من دراسته التي بعنوان: (سكان البلاد التونسية: نظرة تايخية) رو المنشورة ضمن دراسات في المسائل السكانية في الجمهورية التونسية والصادر عن المعهد الأعلى للتربية والتكوين المستمر بالجامعة التونسية عام 1985م. (انظر باحاج، عبدالله سعيد: مآثر حضرمية في الديار التونسية، دار دوعن للنشر والتوزيع - حضرموت- اليمن، ط/ 1، 2013م، ص30.

12) الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الدمشقي: الأعلام، دار العلم للملايين، ط/ 15، - أيار/ مايو 2002م، 3/ 330.

13) عياض، القاضي أبو الفضل بن موسى السبتي: ترتيب المدارك وتقريب المسالك، تحقيق سعيد أحمد أعراب، مطبعة فضالة - المحمدية، المغرب، ط/ 1، 1401هـ- 1981م، 6/ 270.

14) الزركلي، خير الدين: الاعلام، مرجع سابق، 3/ 347.

15) الزركلي، خير الدين: الاعلام، مرجع سابق، 1/ 220.

16) المصدر السابق، 4/ 169.

17) وقد سبقت ترجمته في الفصل الأول (الحالة الدينية).

18) كان من أولاد ملوك المغرب فآثر سلوك هذه الطريقة ففتح عليه وكان من أكابر تلاميذ أبو مدين والمقعد، فلما مات شيخه المقعد تحمل مهمته وأنجزها على أتم وجه واستقر في آخر المطاف بميفعة، وتزوج بها وأنجب بنتين، وقبر بمقبرة يقال لها أصبعون. الحطيب: الجوهر الشفاف، مرجع سابق، 1 / 81- 82.

19) الخطيب، عبدالرحمن: الجوهر الشفاف: 1 / 81 مخطوط، الشيخ علي: البرقة المشيقة ص: 49، بامخرمة: قلادة النحر: 3/ 2880، الشلي: المشرع الروي: 2 / 237، باهارون: أُنس السالكين: ص: 464، الجفري شيخ بن محمد: كنز البراهين: ص: 293، العيدروس عبدالقادر بن شيخ: النور السافر ص: 352، الحبشي، احمد بن زين: شرح العينية ص: 113، الحبشي: عيدروس بن عمر: عقد اليواقيت: 2/ 1146، الحامد صالح بن علي: تاريخ حضرموت 2/ 716و730. وقد وجدت ذلك الاتصال بالسند بين الفقيه المقدم والشيخ أبي مدين في بعض المصادر المغربية ومنها: (انظر العياشي، عبدالله بن محمد: الرحلة العياشية (1661 - 1663م) تحقيق وتقديم: سعيد الفاضلي و سليمان القرشي، دار السويدي للنشر والتوزيع - الإمارات العربية أبوظبي، ط/ 1، 2006م، ص132). كما ذكر تلك الصلات (القادري، محمد بن الطيب: نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق محمد حجّي و أحمد التوفيق، مكتبة الطالب، الرباط، ط/ 1، 1403- 1982م، 2/ 115).

20) الحداد، عبدالله بن علوي: الديوان، مرجع سابق، ص446.

21) الحبشي، عيدروس بن عمر: عقد اليواقيت الجوهرية: مرجع سابق، 1/ 232.

22) نسبة إلى عبدالقادر بن موسى بن عبدالله بن جنكي دوست الحسني، أبو محمد، محيي الدين الجيلاني، أو الكيلاني، أو الجيلي ولد سنة 471هـ وتوفي سنة 561هـ وهو مؤسس الطريقة القادرية. من كبار الزهاد والمتصوفين. ولد في جيلان (وراء طبرستان) وانتقل إلى بغداد شابا، سنة 488هـ فاتصل بشيوخ العلم والتصوف، وبرع في أساليب الوعظ، وتفقه، وسمع الحديث، وقرأ الأدب، واشتهر. وكان يأكل من عمل يده. وتصدر للتدريس والإفتاء في بغداد سنة 528هـ وتوفي بها. له كتب، منها (الغنية لطالب طريق الحق) و(الفتح الرباني). الإعلام للزركلي 4/ 47.

23) التلمساني، أحمد بن محمد: (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب)، المحقق، إحسان عباس، دار صادر- بيروت، ط/ 1، 1968، (7/ 138).

24) الحبشي، أحمد بن زين: شرح العينية، طبع بمطبعة كرجاي المحدودة سنغافورة، ط/ 1، 1407هـ 1987م، (ص167).

25) الحبشي، أحمد بن زين: شرح العينية، مرجع سابق، ص 167. وينظر كذا الشاطري، محمد بن أحمد: أدوار التاريخ الحضرمي، مرجع سابق، 2/ 303- 304.

44
العدد (37)
يوليو
سبتمبر
2025م

من نقد السومحي:

باكثير.. حياته من شعره



د. أحمد عبدالله السومحي

حاول الدكتور أحمد عبدالله السومحي (ت 2020) عند حديثه عن حياة الأديب علي أحمد باكثير (ت 1969) أن يتقصَّى جميع مساراتها في تنقلاته المختلفة بين مسقط رأسه بجاوة، ومحط نشأته بحضرموت، وموطن نزوله واستقراره بمصر، فضلاً عن محطاته العابرة في عدن، والصومال، والحبشة، والحجاز، وكانت له مهمَّةً شاقَّةً لشحَّة المصادر وقلَّة المعلومات؛ لذا فالسومحي استعان بمهارته النقدية، وذائقته الفنية، في استخلاص إضاءات له عن حياته من بين أبياته الشعرية سواء عبر نصوصها، أو من خلال أزمنة نظمها، فكلَّما مرَّ بحلكة في إحدى زوايا حياته أضاءها بمصباح شعره[1]، على خفوت ضوئه في أحيان كثيرة.

أما مصادر حياته الأخرى فتلقَّاها ممَّا أجري معه من حوارات[2]، وممَّا ذكرتْه بعض المراجع عنه، ومن مقابلات مع أهله في مصر وهم زوجته وربيبته وزوجها[3]، أو بعض مَنْ عاصروه كصلاح البكري وغيره[4].



د. أحمد هادي باحارثة

نسبه وأسرته:

بدأ السومحي تعريفه بنسب الشاعر وأسرته آل باكثير[5]، وهي تعود إلى قبيلة كندة الشهيرة، وكان باكثير يفخر في شعره بانتمائه إليها.

وحاول بعد ذلك تفسير وجود (با) في اللقب باكثير الذي يكثر في ألقاب القبائل الحضرمية، فقال "إنها مأخوذة من اللقب (أبو فلان)"[6]، لكنه نسب تغيير (أبو) إلى (با) إلى تحريف العامة، وليس الأمر كذلك، بل هي أتت على لغة القصر، وفيها تلزم الأسماء الخمسة، ومنها أبو، الألف في كل مواقعها الأعرابية، أما الهمزة فحذفت تخفيفاً[7].

ثم ذكر والده الذي كان يعمل بالتجارة وكثير الأسفار، ورصد زمن وفاته عبر مرثية ابنه الشاعر حيث أرَّخ لوفاته في صدر قصيدته الرثائية[8]، التي مطلعها:

عبثًا تحاول أن تكف الأدمعا وأبوك أمسى راحلا مستودعا

أما والدته فعرَّف أنها تنتسب إلى أسرة آل بو بسيط[9]، عبر إهداء مسرحيته الشعرية (أخناتون ونفرتيتي) لخاله محمد بن عبد الرحمن بو بسيط[10].

ثم انتقل السومحي للحديث عن مولد علي باكثير في جاوة مدينة سورابايا عام 1910، لكنه يشكُّ في دقة هذا التاريخ؛ إذ قال: "من خلال تتبعي لشعره وجدت أنه من الجائز أن يكون قد ولد في حدود 1908"[11]، وذكر المؤرخ محمد عبدالقادر بامطرف أنه ولد عام 1906[12]، ولعله الأقرب صوابًا لما ورد في قصيدة كتبها على صورته وأهداها لبعض أصدقائه عام 1926 يقول فيها[13]:

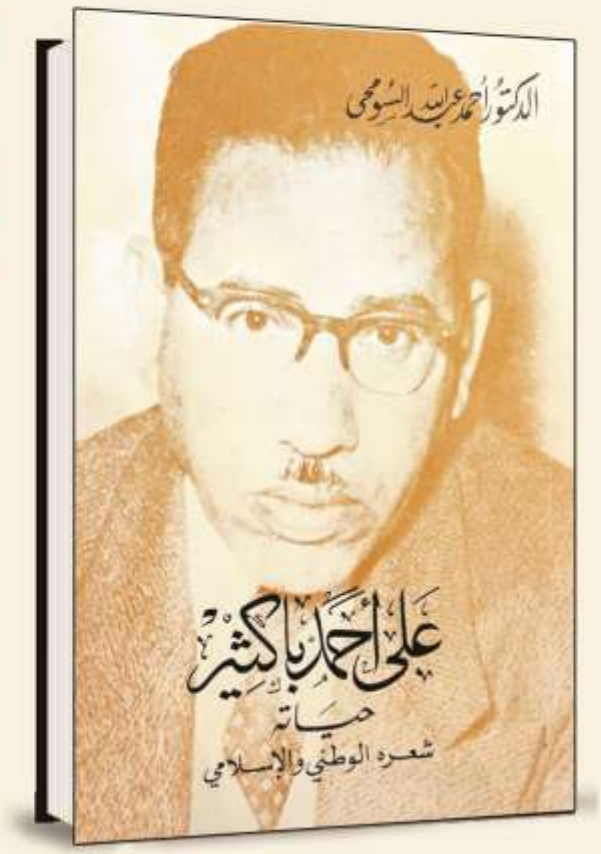
أنظروني في عنفوان شبابي إذ علي في سنه العشرينا

فهي كالمصرِّحة أنه ولد في التاريخ الذي أورده بامطرف، مع أنه ليس هو المشهور والمتداول.

حياته بحضرموت:

سرعان ما أرسله والده لحضرموت وهو في سن الثامنة ليتلقَّى دراسته بها، وساعد نفسه بالقراءة حتى وصل لمستوًى أهَّله لقبوله في جامعة القاهرة. ثم نرى السومحي يعود للاستعانة بتواريخ قصائد باكثير ليعرف متى عاد لجاوة بعد الدراسة والتثقيف في حضرموت[14]، وزار والدته وأهله هناك، لكنه لم يلبث بها كثيراً فعاد بعد عام إلى سيئون وتزوج مرتين، زوجة عن محبة منه سابقة، وزوجة عن رغبة من أهله بسبب مرض الأولى.

ولم يجد السومحي في شعر باكثير إشارة للزواج الثاني الذي انتهى بالطلاق، أمَّا الزوجة الأولى التي توفيت في عقده فلها ذكر في شعره منذ خطبتها، ولاسيما في مسرحيته همَّام



في عاصمة الأحقاف، التي رأى السومحي أنها تمثل "خلاصة لحياة الشاعر في حضرموت"[15]، لكنه كان يتلقَّى منها المعلومات بحذر؛ لإدراكه بخصوصية العمل الفني المسرحي، الذي لا يخضع بالضرورة لما حدث في الواقع، ويقارن بأشعار أخرى لباكثير، فبعد خطبته لزوجته الأولى سافر باكثير لإندونيسيا؛ لأن الخطيبة ما زالت دون سن الزواج، وأخذ ذلك من قوله[16]:

وبعد ثلاثين شهراً يعو دوسوف تمر كلمح البصر
هنالك تبلغ سن الزوا ج حسن وتنضج نضج الثمر

ثم يعرض لأشعار باكثير في جاوة التي تعبر عن شوقه لخطيبته، رغم كثرة الجميلات التي يصادفهن في جاوة، وتشوفه لسرعة العودة لسيئون للزواج[17]:

حبيبة قلبي ما أرى العيش سائغًا
بدون ارتحالي نحوكم ووصولي

وعاد فعلاً لحضرموت في شوال سنة 1346هـ، وتزوج بخطيبته وأنجبا بنتًا، ولكن قدر الشقاء كان بالمرصاد لهذه الأسرة الفتية، فعلى حين غفلة من أهلها غرقتْ طفلتهما في بركة بحديقة المنزل، فأصيبتْ أمُّها بمرض تطاولت لياليه، فاضطر باكثير إلى الزواج بامرأة أخرى بضغط من أهليه، فما لبثتْ زوجه الأولى أن أنشبت بها المنية مخالبها، وتكالبت على علي ظروف لم يستطع أن يغالبها، فطلق زوجه الأخرى التي لم يطق أن يصاحبها.

وانطلق إلى عدن وذكرى زوجته الراحلة عالقة في روحه، وهناك سكنت الحمى في عظامه، فهاجت ذكرى أسرته المفقودة، زوجته التي صارت روحًا في السماء موجودة، وابنته التي غدت بالماء موءودة، ولم يعد معه من يحن عليه ويخفف عنه، وقال:

ذكرت حبيبتي فهفا بقلبي تذكر تلكم الروح الحنون
فلو كانت معي لأزال شكوي مرور بنانها فوق الجبين

الشاعر تائهاً:

هو العنوان الذي وضعه السومحي لمرحلة تنقلات باكثير بين عدن، والصومال، والحبشة، والحجاز، دون أن يعزم الاستقرار في أي منهن[18]، بعد أن ضاق عليه مكوثه في سيئون، وسجل نية رحيله من شعره حيث قال:

تارة أعزم الرحيل وطوراً أنثني راضيًا بالحال
ضقت ذرعًا بذي البلاد ومن ضا ق بأرض فليعن بالارتحال
إن لي في الكون الفسيح مجالا إن يكن ضاق في البلاد مجالي

وطريف هنا تشبيه الناقد عبد الله الغذامي للامية باكثير هذه بلامية الشنفرى بجامع هجران الأهل والوطن بسبب عدم الرضا عن حالهما[19].

وهكذا يعزم علي باكثير الرحيل إلى عدن التي كانت مقصداً محببًا للحضارم، وبها عشرات العائلات الحضرمية المستقرة والمؤثرة، إذ يقول[20]:

وشددت الرحل حتى عدن ويكاد الأمر فوراً أن يتم



محمد علي لقمان

لكن باكثير لم ينزل عند حضرمي بها، على عُلُوّ مقاماتهم هناك، بل أقام ضيفًا عند صديقه الصحافي محمد علي لقمان، وقد اعتاد لقمان استقبال من ضاقت عليه بلاده من المبدعين، ومن بينهم الشاعر محمد محمود الزبيري عندما ضاقت به صنعاء، وأسس لاحقًا مطبعة وصحيفة فتاة الجزيرة، التي احتضنت كل كتابات رواد المبدعين في حضرموت، واليمن، وعدن، على السواء، قال عنه باكثير[21]:

فدم يا سيدي لقمان حيًا وسلوى للعليل وللحزين
فكم فرجت من همي وضيفي وكم كفكفت من دمعي السخين

ويحدث أن يسافر لقمان إلى الصومال في مهمة فيتكدر باكثير[22]:

إن ادكارك يا لقمان أشجاني وهاج منيَ أحزاني وأشجاني
وكيف أنسى خليلاً قد نسيت به أهلي وصحبي وإخواني وأوطاني

ويلحق به في الصومال ويستقر في مدينة هرجيسا[23].

ومن الصومال يمضي باكثير فيزور جيبوتي، وأديس أبابا في الحبشة، ثم عاد إلى عدن، ومنها انطلق إلى بلاد الحجاز،

47
العدد (37)
يوليو
سبتمبر
2025م

ولمْ يمرَّ بصنعاء؛ لعدم رضاه عن أحوالها السياسية، وفي الحجاز اتصل باكثير بالوسط الثقافي، وعقد له به صداقات أشار لبعضها في شعره[24].

موقف آل باكثير من ترحال شاعرهم:

ويعلم السومحي من خلال شعر باكثير أن أهله في سيئون وجاوة لم يكونوا راضين عن رحيله غربًا لعدن، والحجاز، وأفريقيا، وانتهاء بمصر، وكانوا يرغبون في اتجاهه شرقًا إليهم في جاوة، التي هي مسقط رأسه؛ ليبني فيها أساسه، وهي التي كانت تشهد آنذاك نهوضًا تعليميًا وثقافيًا بمجتمع الحضارم في جاوة، وبلاد الملايو، وسنغافورة، وهو نهوض لا ينكره باكثير، لكنه أعرض عنه لما يشوبه من منافسات عايشها في أثناء زيارته المبكرة لها، ويعرف صداها السيئ على المجتمع والوطن، وطالب بإصلاحها، ثم فضل تجنُّبها حتى لا يقع في بعض تياراتها، وهو لا يحمل إلا هم الوطن الذي هو حضن الجميع.

يقول باكثير في حلم ذهابه لمصر ومنازعة أهله له:

بينما كنت شغوفًا بالمنى ... والأحاديث لمصر والحلم
إذ أتتني نبأة من جاوة ... أن تقهقر لا تقل إلا نَعم

فلمَّا أعرض عن قول (نعم)، قاطعه أهلوه وتجاهلوه، فاضطرَّ أن يعاتبهم بقوله:

مالي أرى أهلي بجاوة قطعوا ... حبل الوصال وما ارتكبت جليلا
أو كلما يأتي كتابي نحوهم ... فالصمتُ كان عن الكلام بديلا

ما عدا خاله من آل بو بسيط، والخال والد، كان هو من تكفل بعلي في طفولته؛ وبسط له في عطفه، ومن ماله؛ إذ قال عنه علي: "**أمضيت طفولتي في كفالة خالي، وتلقَّيتُ عنه دروسي الأولى**"[25]، ثم ظل خاله هذا يواصله ويصله يافعًا حتى ثبت ووقف على قدميه؛ لذا خصَّه باكثير بإهداء باكورة عمله المسرحي الرائد.

باكثير يصل مصر:

ثم تحول السومحي إلى ما ساقه باكثير عن حياته في مصر، ولاسيما في الفترة الأولى لصفوفه قبل أن يندمج في المجتمع المصري، وهو يعاني شعور الاغتراب وتلمُّسَ الأنيس، ويعرف الناقد أنَّ مقصود الشاعر الأول من نزول مصر هو إكمال الدراسة بها من خلال قصيدة بعثها لصديق له لمْ يسمِّه، كانا عزما معًا على الارتحال إليها؛ كي يؤانس كلٌّ منهما الآخر:

وتآخينا على نيل العلا ... ونديمانا كتاب وقلم
تحت سقف واحد من معهد ... فائض بالنفع مستعلي العلم

ويصف السومحي حالة باكثير عند وصوله مصر: "**كانت حياته في السنوات الأولى لقدومه مصر حياة قلقة مضطربة، فيها أطياف اليأس، وأشباح الحزن، وقتامة الذكرى، وفيها اهتزازات من آثار الماضي وآلامه**"[26].

وقد أخذ ذلك من قول الشاعر[27]:

في غرفة واجمة قفرة ... ليست بها بارقة للمنى
النور في أرجائها حائر ... يصيح من يأس أقبري هنا

ولم يخرج باكثير من عزلته إلا بعد أن اختلط بالوسط الثقافي، ولاسيما من بني جيله، فإذا شعر ببعد منهم خاطبهم بشعر العتاب، من أمثال الأديبَيْنِ المصريَّيْنِ صالح جودت[28]، وجميلة العلايلي[29]، وهما من خاطبهما بقوله[30]:



علي باكثير على شرفة منزله المطلة على النيل في مصر

عج بالأدية والأديب أو بالحبيبة والحبيب
واسألهما في رقة ما شأن خلكما الغريب
أو بعدما أمطرتما باللطف مرعاه الجديب
خلفتماه وحده يدعو وليس له مجيب

وكان في نية باكثير العودة إلى حضرموت عقب ختام دراسته، وهو ما تبيَّنه قصيدته لرفيقه حيث قال[31]:

ثم نجني ما يرقي شعبنا من علوم وفنون وهمم
ثم نمسي بعد في أوطاننا موقظي أمتنا بين الأمم

ولم يفعل، بل مكث في مصر لأسباب، أحسن الناقد السومحي في تلخيصها في أربعة أمور: شدَّةُ الصَّد الذي لَقِيَهُ من قومه في سيئون، وتأثيرُ الوُجُود البريطاني في حضرموت، وامتلاءُ نفسه بالنَّفَسِ القومي؛ إذ غلبت النزعة الوطنية المحلية لديه، وميله نحو الكتابة المسرحية التي تحتاج لمسرحٍ وممثِّلين، ولا وجود لهم إلا بمصر[32].

وهكذا استقر بمصر، وتزوَّج بها، ونال جنسيَّتها، وعمل في المجال الرسميِّ التربويِّ، ثُمَّ الثقافي، ونال حَظوَةً عالية بمصر، وطاول عمالقتَها من أدباء، وفنَّانين، وساسة، وانتشرتْ أعمالُه في صروحها من مسارح، ومجلاَّت، ودور نشر.

الهوامش:

1) علي أحمد باكثير .. حياته وشعره الوطني والإسلامي 34.
2) نفسه 35.
3) نفسه 38، و47.
4) نفسه 38
5) ذكر ابن حامد السقاف طرفًا من نسبهم أثناء ترجمته لعم الشاعر محمد بن محمد باكثير 5/ 104.
6) علي أحمد باكثير .. حياته وشعره الوطني والإسلامي 31.
7) انظر بيان الأصل في لفظ بافضل، أحمد بن محمد المرزوقي، تريم للدراسات والنشر، 2012، 36.
8) علي أحمد باكثير .. حياته وشعره الوطني والإسلامي 32.
9) يقال إن هذه العائلة ينتهي نسبها إلى بني أمية من قريش، انظر مختصر كتاب الدر والياقوت في معرفة بيوتات عرب المهجر وحضرموت، تصنيف: سالم بن أحمد العلوي المعروف بابن جندان، اختصار عمر بن محمد باحاذق، دار المأمون للتراث، دمشق، كنوز المعرفة، جدة، 2005م، 103.
10) أخناتون ونفرتيتي، دار الكاتب العربي، القاهرة، ط 2، 1967م، الإهداء، 3.
11) علي أحمد باكثير .. حياته وشعره الوطني والإسلامي 35.
12) الجامع 386.
13) أزهار الربا 105.
14) علي أحمد باكثير .. حياته وشعره الوطني والإسلامي 38.
15) نفسه 40.
16) نفسه 41.
17) نفسه 42.
18) نفسه 50.
19) مقدمة كتاب السومحي 10.
20) علي أحمد باكثير .. حياته وشعره الوطني والإسلامي 59.
21) سحر عدن.
22) نفسه.
23) نفسه.
24) علي أحمد باكثير .. حياته وشعره الوطني والإسلامي 56.
25) انظر مجلة الاثنين ع 1275، 17 / 11 / 1958، 28.
26) علي أحمد باكثير .. حياته وشعره الوطني والإسلامي 61.
27) الرسالة العدد 170، 55.
28) هو صالح بن إسماعيل جودت، يتصل نسبه ببني شيبة بمكة، قانوني مصري، نفي جَدُّه الثاني من مكة لأسباب سياسية، فاستوطن قبرص، ثم نزح جدُّه الأول إلى مصر حيث نشأ والده، ثم انضم إلى الثورة العرابية، فحكم بنفيه 3 سنوات أقامها في الآستانة، ثم عاد لمصر، ونشأ ابنه صالح في القاهرة، فتعلم بالمدرسة الخديوية، وأخذ الحقوق في جامعة باريس، ثم عمل محامياً وقاضياً بالمحاكم الأهلية حتى وفاته نحو سنة 1945، له مؤلفات منها (الدليل العصري للقطر المصري)، و(مصر في القرن التاسع عشر)، و(أمة الملايو)، ونحو 15 (رواية) أدبية مترجمة، ورواية تمثيلية سمَّاها (الإيمان) مثلت في الأوبرا. الأعلام 3 / 189.
29) هي أديبة مصرية، كاتبة وشاعرة وقاصة، عاشت في مدينة المنصورة، وأصدرت مجلة (الأهداف)، ولها ديوان بعنوان (صدى أحلامي) صدر سنة 1936. الرسالة العدد 173، 1936.
30) علي أحمد باكثير .. حياته وشعره الوطني والإسلامي 63.
31) نفسه 65.
32) نفسه.

49
العدد (37)
يوليو
سبتمبر
2025م



باحريز
أمير الشعر الشعبي*

الحلقة الثانية



أ.د. عبدالعزيز الصيغ

الحافة مدرسته الكبرى:

الواضح أن الحافة بأعرافها الشائعة، المتشكلة بوصفها مجموعة من الناس تتحرك حركة واحدة، وتنصهر لتشكل كيانًا اجتماعيًا متماسكًا يقف أمام كيانات أخرى، هذه الحافة قد أسهمت إسهامًا كبيراً في تشكيل شخصية باحريز الشعرية، وحين نقف أمام ما منحه باحريز لحافته من عيون الشعر الشعبي وعيون المعاني نعرف الأهمية الكبرى التي كانت تمثله الحافة في عين الشاعر وفي نفسه، ولم يمدح باحريز شخصاً بعُشْرِ ما مدح به حافته، بل لم يمدح أحداً على الإطلاق، وكانت تعنيه المعاني العالية ولا تعنيه الأشخاص، وإذا وجد شعر مدح به أحداً فليس بين مدحه إياه ومدحه حافته أية قربى ولا صلة، لكأن مدحه الأول لشخص آخر وشاعر غيره، ومدحه الثاني له هو.

وقد كانت الحافة ملهمة باحريز، ومهيجة دواخله، وباعثة شاعريته، وهي أشبه ما تكون بليلاه الذي جنَّ بها جنونًا، وصرف أكثر شعره في التغنِّي بها، وهي ظاهرة نادرة في الشعر الشعبي، فليس هناك شاعر شعبي كتب في جماعته أو في حافته ما كتبه باحريز في حافته، لا كَمًّا ولا كيفًا، فبحساب العدد يبدو أن شعره المتغنّي فيه بحافته كثير كثرة تفوق أشعار الآخرين، وبحساب الجودة فإنَّ شعره لحافته هو عقود من ألماس وجوهر ولآلئ خالصة، ولو أن أهل الحارة وهي حافته احتفلوا به كل شهر وليس كل عام لما ردُّوا له قليلاً مما قاله فيهم، والواقع أنَّ أهل (الحارة) لهم كل الحق في أن يفخروا به ويعتدُّوا به، فقد كان فخرُهُ بهم فوق كُلِّ فخرٍ، واعتزازُه بهم فوق كُلِّ اعتزازٍ، ومحبَّتُه لهم هي الحب الخالص الصافي، إنَّ باحريز مدرسة في الحب، وفي الاعتزاز، وفي الغَيْرَةِ على القيم والأخلاق، إنه مدرسة تستحق أنْ نأخذ منها، ويأخذ منها كُلُّ عُشَّاق الخُلُقِ العالي والفنِّ الرفيع.

ظاهرة حب الحافة:

لعل البحث عن أسباب الحب لإنسان ما أو لجماعة ما من الأمور الصعبة التي لا يمكن قياسها، وإن كان من الممكن تسبُّبها. الربط بينها وبين مظاهرها الواضحة، وباحريز حالة مختلفة في حبه لحافته؛ ذلك أنَّ جميع الشعراء الذين كانوا يمثلون مناطقهم كانوا محبين لها، غير أنَّ ذلك الحب لمْ يتجلَّ كما تجلَّى عند باحريز، وهو بذلك يشبه الشعراء العُذريين مع الاختلاف؛ لأن ظاهرة الحب ظاهرة إنسانية لا يخلو منها شاعر ولا إنسان، لكنَّها قد تتجلى تعبيراً واضحًا صريحًا عند بعضهم ولا تظهر إلاَّ لمحًا عند آخرين إمَّا أن يستفرغ الشاعر كثيراً من شعره في التغنِّي بهذا الحب، فإنَّ ذلك أمر يستوقف الباحث كثيراً، ويُغريه بالبحث عن أسباب ذلك ودواعيه، فهل كان باحريز شاعراً مُحبًا، يُسقطُ عواطفه الجيَّاشة على حافته مكنيًا عن محبوب آخر هو المقصود؟ أمْ أنَّ عواطفه كانت خالصة لحافته خلوصًا تامًا؟

الذين عرفوا باحريز يعلمون أنه كان رجلاً بسيطًا، لم يكن يهتمُّ بنفسه كثيراً، ولم تكن الحياةُ وأيَّامُها ولياليها قد تركتْ له ما يجعله يهتمُّ بها، كان في طول حياته رجلاً عاديًا باهتًا، ولولا الشعر لمرَّ من دون أنْ يشعر به أحدٌ، ومن دون أن يتنبه له الناس؛ لأنَّ مظهرَهُ لم يكن يؤهّله لشيء ذي بال، كما أن أعماله التي تولاَّها لمْ تكنْ أيضًا تسمح له بأن يحتلَّ موقعًا في المجتمع صغيراً كان أو كبيراً.

والشعر وحده هو قيمته الكبرى إلاَّ أنه فيه كان عظيمًا كبيراً لو أنه أراد أن يصل به إلى مكانة أو موقع في حياته لكان الأمر ميسوراً له سهلاً.

والذي يقلب شعره ويتأمله يجد شاعراً مُولَعًا بالمعاني الكبيرة، والمعالي، والرتب العالية التي تعلي الإنسان وترفعه لا بحساب المناصب الاجتماعية، ولكن بحساب القيم الأخلاقية، ولذلك فقد كان مولعًا بالقيم العالية والخصائص



الإنسانية الرفيعة، وكان ساخطًا عازفًا عن المراتب الرفيعة التي تكون مظهراً لقصور وخمول وانحطاط، وعلى الرغم من أنه عاش حياته وهو صغير في سُلَّم المجتمع لكنَّه كان كبيراً في رؤيته له، يلحظه بعينٍ فاحصة، ويتأمَّله بفكر ثاقب، ويَزِنُهُ بميزانٍ لا يَخيب.

لم يكن باحريز يفهم الشعر بوصفه وسيلة من وسائل التكسُّب، وإن كان يتكسَّب منه كغيره من الشعراء، إذ إنَّ شعره يدلل على أنَّه كان يَعُدُّه وسيلة من وسائل التعبير عن همومه وأشجانه، ودواخل نفسه، ولذلك نجده دائمًا في شعره متأمِّلاً، يحوِّل الموضوع البسيط إلى موضوع شعري جميل.

وحين نتأمل أشعاره التي قالها في الحافة (الحارة)، نجد أن الحافة عنده بديل للقبيلة عند الشاعر العربي، ويبدو أن باحريز كان يستحضر هذا الموقف في كل ما قاله عن حافته (الحارة)، وهو يذكِّر بالشعراء العرب الذين امتزجوا بالقبيلة امتزاجًا، وقد كانت الظروف التي عاشها باحريز آنئذ شبيهة -مع الاختلاف- بالظروف التي كان الشاعر العربيُّ متوحِّداً فيها بقبيلته، وإذا كان الشاعر العربي متوحِّداً بقبيلته إلى الحد الذي يقول فيها القائل:

وما أنا إلا من غُزَيَّةَ إنْ غَوتْ غويتُ وإنْ ترشُدْ غُزَيَّةُ أرشُدُ

فقد كان باحريز متوحِّداً بالحافة حاضًا على القيم العالية، متمسِّكًا بالمعاني الرفيعة، داعيًا إلى الوحدة بين أفرادها، متغنِّيًا بالمُثُل المجسِّدة لها، الراسمة صورتها البهيَّة وطلعتَها المشرقة، وهو ما أكسب شعرَهُ صفة الذيوع والانتشار.

مفهوم الشعر عنده:

قد يستغرب القارئ حين نتناول شاعر كباحريز وهو شاعر بسيط عامي بعيداً عن الكتابة والقراءة، بالحديث عن مفهوم الشعر عنده، وربما تعتلي وجوه الكثيرين الدهشة والاستغراب، ولعل بعضهم يرى في ذلك تحميل الشاعر ما لا يحتمل، وهو أمر ليس صحيحاً، فليس كافياً أن يكون الشاعر أُمياً أو شبهَ أُمي لكي لا نتحدَّث عن مفهومه للشعر، صحيح أن المفاهيم بوصفها مقولات تعبيرية قد لا تكون موجودة نصّاً عند شعراء مثل باحريز، غير أن الشعراء كبرُوا أمْ صغرُوا لهُمْ فَهْمُهُمْ وإدراكهم للشعر ووظيفة الشعر، بل وظيفة الشاعر، والأمر ينطبق على الجميع شعبيين أم كاتبين بالفصحى.

وليس صحيحاً القول إنه بوصفه شاعراً شعبياً كانت الفطرة الشعرية هي زاده الوحيد، فإنَّ شعره يَنِمُّ عن أنَّه امتلك ثقافة شعبية واسعة، كانت ترفده وتمدُّه بصور وأخبار، كما أنَّ لديه مخزوناً شعرياً كبيراً، يطل من خلال شعره، كما أنه كان مُحيطاً بفن الشعر وبأدواته وجماليَّاته، من حيث اللغة والعروض، يدل على ذلك ما ذكره الأستاذ بامطرف في كتابه (التراث وصناعة الشعر)[5].

وقد وجدنا في أحاديث الشاعر وفي شعره ما يعطي مفهوماً للشعر عنده، فكيف يرى الشاعر باحريز الشعر؟ وما مفهوم الشعر لديه؟

لم يكن باحريز شاعراً عادياً - وهو أمرٌ نؤكِّدُهُ باستمرار - بل كان شاعراً شاعراً، وهذه الصفة حين نصفه بها إنَّما نؤكد من خلالها على أنَّه كان شاعراً ذا موقف، وكان الشعر وسيلتَهُ للتعبير عن موقفه هذا، وكان يفهم الشعر بوصفه رسالة خاصة يحملها الشاعر، ولذلك نجد تلك المواقف الإنسانية الرائعة التي كان يتحلَّى بها، والتي أسفرت عن كثير من الشعر الإنساني الرائع الذي عبَّر به عن هموم الناس البسطاء ومعاناتهم في كثير من أشعاره.

وقد كان باحريز يرى الحياة من خلال منظوره الشعري، إذ كان شاعراً اختلطت عنده الحياة بالشعر واختلط الشعر بالحياة، فلا تكاد تفرق بينهما عنده، لم يكن الشعر عنده ترفاً، ولم يكن عنده الشعر تسليةً يتسلَّى بها إذا فرغ من عناء الحياة، وإنَّما كان الشعر عنده معجوناً بالحياة، وكانت الحياة عنده معجونة بالشعر، وهو مفهوم نجده عند الشعراء الكبار الذين كان الشعر عندهم رسالةً يعيشون الحياة من خلالها.

وهو سرُّ الشاعرية عند باحريز، فقد كانت كثير من الأحداث تترجم شعراً قوياً معبِّراً عنده، يذيع بين الناس ويشيع، بل إنَّ أشعاره من مثل قوله الذائع:

بغيت الصدق والواقع سبولة خير من مقلع

ونخلة ما تعشي الضيف قعرها لا تخليها

هي قراءة شعرية لواقعة ما، لكأن الواقع يتحوَّل عنده شعراً، ويظل في صورته الشعرية مندفناً مخبوءاً في هذه الصياغة الرائعة الجميلة التي تحرِّك النفوس، وتؤثر فيها تأثيراً بليغاً، وعلى الرغم من أنَّ البيت يعطيك معناه الخاص به، وهو معنى الشاعر الذي صبَّه في هذا البيت، غير أنَّ بين المعنى الذي تحمله الواقعة وبين المعنى الذي يفرزُه البيت وشائج، حين تتكشف تجد المعنيين يتحدَّان لكأنهما معنى واحد، وتجد الشاعر موجوداً بينهما.

وكذلك في أشعار كثيرة له، متداولة كتبت مرافقة لأحداث سياسية أو اجتماعية، من مثل بيتيه الشهيرين:

خشم منصوب ما تبرح عليه الذبابة

دقه الوقت واحكام القضا والمقادير

من رضي بالمحلة وسط ذيك الخرابة

يلقي الكذب قاسم والمحازي تياسير

فهذان البيتان يتردَّدان كثيراً بين الناس، وهما بيتان رائعان يحملان معنى بديعًا في صياغة زادتْ جمالهما جمالاً، وهما يقدِّمان حالة إنسانية تتكرَّر كل يوم عندهم، فالحياة عبارة عن سلسلة من الأحداث تتوالى على الناس والأحياء، ولكنَّ الذي يؤثِّر في الناس رؤيةٌ كبيرٍ وضعه القدر، أو عال حطَّه الوقت، وهذا معنى إنساني جرى على ألسنة كثير من أصحاب البيان شعراً ونثراً، وقد استطاع باحريز أن يقدِّم هذا المعنى الإنساني في لغة قويَّة وصورة مؤثرة رائعة كتبها باللهجة الشعبية، واستطاع أن يقدم الدليل على إمكانية اللهجة الشعبية أن تعبّر عن المعاني الإنسانية الكبيرة التي عبَّرت عنها اللغة الفصحى عند أمراء البيان فيها.

وهذان البيتان كانا قراءة شعرية أيضًا لحادث من الحوادث السياسية التي جرت في ذلك الوقت قبل عصر الثورة، وظل معنى الحادث متواريًا خلفهما يعرفه من عرف الحادث، أو من أراد معرفته، وبقي البيتان يقدِّمانه تقديمًا شعريًا، يخاطب النفس، ويؤثِّر فيها، وبقي الشاعر باحريز فيهما متجلِّيًا.

كان باحريز كما تقدَّم شاعراً أُمِيًا - لا يقرأ ولا يكتب - ولكنه كان شاعراً يفهم الشعر على نحو واضح، كان الشعر عنده له معناه المحدَّد، الذي يتضح من خلال أشعاره، ومن خلال صياغته لأحداث الحياة صياغة شعرية، هذا المفهوم هو الذي ولد هذا الشاعر الكبير باحريز.

وكان شاعراً عارفًا بالصناعة الشعرية، كان عارفًا بالأوزان الشعرية مثمونها ومربوعها ومخموسها ومسدوسها، وكان عارفًا بأوزان شعر رقصة الهبيش، وبالأوزان الأخرى، وكان الأستاذ محمد عبدالقادر بامطرف يعود إليه يسأله عن هذه الأوزان، وقد ذكر ذلك في كتابه التراث وصناعة الشعر، يقول الأستاذ بامطرف: (ويصنف الشعر الغنائي عندنا في محافظة حضرموت بتعدُّد أشطره، فيقال مربوع أو مخموس أو مسدوس أو مثمون، ولا تدخل في الحسبان الشلَّةُ التي تصاحب كُلَّ مقطوعة في القصيدة)[6].

فباحريز على معرفة بالشعر وأوزانه، وهو ما يدل على أنه كان على علمٍ بأدواته، وعلى بيِّنة بالفن الذي يصوغ فيه أبياته، يقول الأستاذ بامطرف: (ويحدِّثني الشاعر الحميني سعيد فرج باحريز أن شعراء الشبواني في الوقت الحاضر يقولون أشعار الشبواني على الوزن المثمون، وعندما رجوتُهُ أنْ يسمعني قولاً من الوزن المثمون، قال:

ولا التماني والمغاني منها يقضي وتر
والمدح قبل الفعل فيه الا المذمة والغرور [7].

الشعر عند باحريز هو رؤية خاصة للأحداث، وليس نقلاً فوتوغرافيًا لها، إنه إعادة صياغة الحدث، وتقديمه بوصفه معنى خاصًا يقدِّمه الشاعر، إنَّه حدث آخر غير الحدث الذي وقع في الواقع، إنَّه حدث وقع على نفس الشاعر، وأخرجه هو للناس في صورة أخرى شعرية، قد يتطابق تطابقًا تامًا معه، وقد يكون مختلفًا معه في الظاهر، ولكنه منسجمًا معه في الحقيقة.

وهذا المفهوم الذي نجده للشعر هو الذي جعل باحريز متميِّزاً عن الشعراء الآخرين في صياغة الشعر، وهو الذي جعله متفوِّقًا عليها مغايراً لهم، هم يرون شيئًا وهو يرى شيئًا آخر مخالفًا لما يرون ولما يراه الناس، لكنهم حين يرون الحدث من خلال رؤيته هو يرونه أكثر وضوحًا وأجلى صورة.

الهوامش:

* فعالية أقامها منتدى عميد الوفاء الثقافي بمركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر، بعنوان (باحريز أمير الشعر الشعبي) تحدث فيها أ.د. عبدالعزيز سعيد الصيغ وأدارتها د. تقوى العبد باموسى - المكلا، مساء يوم السبت 30 نوفمبر 2024م.

(5) التراث وصناعة الشعر محمد عبدالقادر بامطرف.

(6) نفسه.

(7) نفسه.

53
العدد (37)
يوليو
سبتمبر
2025م

قراءة في الأدب النِّسْوي الحضرمي
خديجة بنت علي الحبشي أنموذجاً



ستنهج هذه القراءة مسارين متتالين؛ الأول سيعطي لمحة عامة عن الأدب النسوي، والآخر سيكون قراءةً مقتضبة في ديوان السيدة خديجة بنت علي الحبشي -عليهما رحمة الله- كأنموذج للشعر النسوي الحضرمي؛ وقد خصَّتْهُ قراءتنا لتوافر الديوان أولاً، ولثرائه وتشكُّل أنماط شعريته ثانيًا وإن كان شعبيًا.



د. زهير برك الهويمل

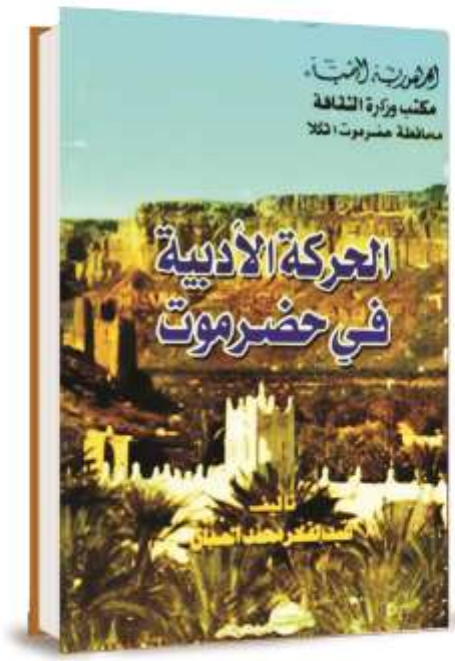
في البدء لا بد من الوقوف على مصطلح (الأدب النِّسوي) أو (الكتابة النِّسوية)، أو (الأدب النسائي)، فهو وإن كان مصطلحًا غربيًا، شأنه في ذلك شأن مناهج النقد الأدبي الوافدة، لكنَّ هذا المصطلح قد أحدث تباينًا في الرؤى من حيث القبول والرفض من لدن النقد الأدبي؛ فمَن رفضه كان يميل إلى سطحية التوصيف فيه، التي تقسم الأدب إلى (نسائي ورجالي)، والوقوف عند هذا الحد حسب، ومن هذا التيار مَنْ كان منتميًا إلى المجتمع النسوي نفسه، كـ(أحلام مستغانمي)، ومن ارتضاه ولا سيَّما من المجتمع النسائي يرى فيه شيئًا من رد الاعتبار للمرأة الأديبة المهمَّشة ذكوريًا، فافترقوا في توصيفه مذاهب شتَّى يمكن إيجازها -لضيق المقام- في أمرين؛ الأدب النسوي هو أولاً: الأدب الذي تنتجه المرأة، شعراً كان أو سرداً. وثانيًا: هو الأدب الذي يعالج قضايا المرأة وإن كان كاتبه رجلاً؛ يمكن أن نطلق عليه (أدبًا نسْويًا).

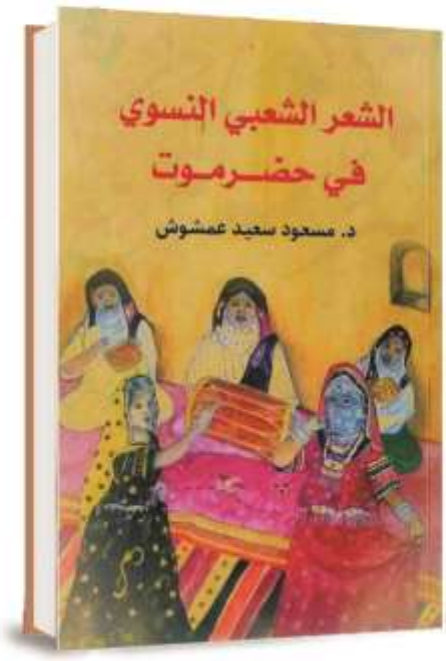
لقد سخِر بعض كبار النقَّاد الغربيين الذكور من هذا المصطلح -كامتداد لقوامة الأدب الذكوري على الأنثوي- فأطلقوا عليه مصطلحات مخاتلة؛ ففي السويد أطلق على أدب الكاتبات الإناث (الملائكة والسكاكين)، فتلقَّى الذكور العرب من الكرام الناقدين هذا المنحى قبولاً حسنًا، فأطلق أنيس منصور على ما كتبتْه المرأة (أدب الأظافر الطويلة)، وأسماه إحسان عبدالقدوس (أدب الروج والمناكير)، وهذه التسميات تنحو بالأدب منحى قرائيًا شكليًا وصوتيًا تعتني فيه المرأة بالتأثير الشكلي الصوتي والتخييلي في بناء الجملة والعبارة على حساب العمق الموضوعي، وقد تكون الأسماء دالَّ على مدلولات حقيقية لهذا التوصيف، لكنها مصحوبة بالسخرية فيه.

لقد شكلت آلية انحسار النتاجات الأدبية النسوية؛ من شعر أو نثر ما يشبه الظاهرة العامة؛ قبل القرن العشرين، ولم يقتصر الأمر على الأدب العربي حسب، بل إننا لا نكون مبالغين إذا قلنا حتى على مستوى العالم والثقافات المتقدمة، فقد غابت أو غُيِّبت النصوص الأدبية النسوية وعُدَّت من التابوهات المحرَّمة، حتى في أوروبا نفسها؛ الأمر الذي أجبر كثيراً من الشاعرات والروائيات أنْ يكتُبْنَ من خلف قناع الاسم المستعار. أما في الوطن العربي فالأمر لا يعدو كونه امتداداً لرواسب النظرة الدونية للمرأة مقارنة بالرجل (الفحل) بتعبير الغذامي، من وجهة نظر الرجل نفسه، وربما من وجهة نظر المرأة نفسها أحياناً. الأمر الذي أدَّى إلى تغييب أكثر ما كتبتْه النساء العربيات في معظم مصادر الأدب العربي؛ كما يرى الدكتور مسعود عمشوش فلم تسجل لنا كتب تاريخ الشعر العربي ونقده إلا ما نظمتْه الخنساء قبل الإسلام، وليلى الأخيليَّة في العصر الأموي، ورابعة العدوية في العصر العباسي، وولاَّدة بنت المستكفي في العصر الأندلسي، وعائشة التيمورية في العصر الحديث[1]. يمكن القول: إن البداية الحقيقية التي رَفع فيها الشعر النسوي رايته عربيًا كان مع الشاعرة العراقية نازك الملائكة؛ مع بزوغ حركة الشعر العربي الحديث، التي استطاعت أن تكسر طوق الفحولة الشعرية العربية، نهجاً ونوعاً، ومن تبعها بعد ذلك، مثل: فدوى طوقان، ومي زيادة، وغيرهن من الشاعرات الحداثيات.

أمَّا إذا عُدنا إلى الأدب النسوي الحضرمي، فلمْ تكنْ حضرموت بمعزلٍ عن الأدب العربي العام، ولكن الأمر كان فيها أشدَّ تغييباً لطبيعة البيئة الحضرمية المحافظة، على الرغم من حرصها على تدوين عاداتها وأدبياتها الشعبية من أمثال، ومَحاز، وقصائد رجالية، لم يكن للمرأة الأدبية حظٌّ من ذلك الحفظ والرواية والتدوين إلاَّ ما ندر. وهو أمر ليس بغريب على هذه المنطقة الجغرافية، التي قدَّست العادات والسوارح والتقاليد، حتى أكثر من تقديس بعض التشريع المنزَّل.

لم يكن الأمر نابعًا عن غير هدى أو جهل، من المؤرخين للشاعرات الحضرميات، بل هو الترصُّد حتى من كبار الكرام الكاتبين الذين أرَّخوا لحضرموت؛ كالمؤرخ الأديب عبدالقادر الصبَّان صاحب كتاب (الحركة الأدبية في حضرموت/ 1972م)، لم يشر - كما يرى الدكتور عمشوش - في كتابه إلى أي شاعرة حضرمية[2]، على الرغم من قرب بعضهن منه؛ كشقيقتيه (شفاء وفاطمة محمد الصبان)؛ فقد كانتا تقولان الشعر، وجدَّتُه لأبيه (نور عبدالقادر سالم حسان) (نور قدرية)؛ التي توفيت في سيئون سنة 1961م.







الشاعرة ميمونة أبوبكر الحامد

يمكننا تبرير ذلك بأنَّ التتاجات الشعرية لمن ذُكرن ربما لم تكن في كَمِّها شافعة لدخولها حركة الصبان الأدبية، أو ربما كانت تحت سقف معيارية الصبان الفنية والتأليفية.

أمَّا المستشرق البريطاني روبيرت سيرجانت؛ الذي ألَّف كتاباً في الأدب الشعبي في حضرموت، فأكد أن الذكور هم من ينظمون أشعار الفرائحيات الخاصة حتى بالنساء، ولمْ يحوِ كتابُه شاعرةً حضرمية، على الرغم من وجود شاعرات حضرميات يَقُلْنَ الشعر الغنائي الشعبي الطربي، بل يوثقن صلته بالغناء والرقص والفرح؛ من أمثال: "**خديجة علي، ونور قدرية، وعلوية عبدالله، وشفاء الصبَّان، وفطوم بن طالب**"[3].

أمَّا الباحثة والشاعرة المغربية فاطمة بو هراكة تبرِّر تغييب الأدب النسوي العربي و إقصاءه قائلة: "إن صفة الريادة في طباعة أول ديوان نسائي داخل أي قطر من أقطارنا العربية ليس بالأمر الهيِّن، بل يتطلب إصراراً وجهداً كبيرين؛ لكي يخرج إلى حيز الوجود... إن سياسة التطرف والمغالاة في المجتمع وأسلوب الخنق العائلي المتمثلَين في إسكات صوت المرأة الشعري وإلجامه، ووضع القيود والحواجز أمام إبداعها، جعل هذه الأقلام النسائية مكبَّلة وعاجزة عن طباعة ما تفيض به مشاعرها؛ لهذا لم نجد سوى قلة من الشاعرات اللواتي ظفرن بطبع دواوينهن بعد أن تمكنَّ من مواجهة هذه الضغوطات والقفز على الحواجز المجتمعية المقدسة"[4].

لعلَّ في هذا الاقتباس ما يروي سؤال المتسائل عن سبب إخفاء الأدب النسوي العربي، وتكميم أقلامه.

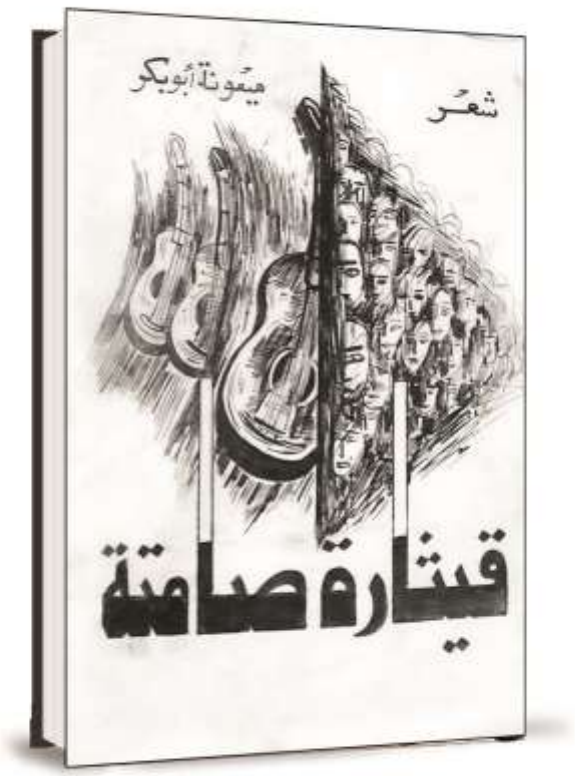
على الرغم من قتامة تلك العُتمة التي ساورت الأدب النسوي العربي؛ والحضرمي على وجه الخصوص، فقد سطعت أسماء نسوية حضرمية في مجال الشعر بطريقته التقليدية الشعبية، وصولاً إلى طباعة الدواوين الشعرية الفصيحة والعامية، وإن كانت بعض هذه الأسماء النسوية كانت تمثل الأدب الحضرمي المُهاجر، الذي وَجد في المهجر بيئة خصبة تروي نباته، وتشكل حدائقه، وتمدُّ من أفنان بهجته، إنْ شعراً وإنْ نثراً؛ كـ(**ميمونة أبوبكر الحامد**)؛ كأول شاعرة يمنية تصدر ديوانًا مطبوعًا؛ هو ديوان (خيوط في الشفق)، عام 1978م، فألحقت به أربعة دواوين شعرية أخرى؛ هي: (قيثارة صامتة) عام 1980م، و(في طيات الانفجار) عام 1982م، و(الهجير) 1984م، و(رمضاء الأيام) عام 2005م. ولها ديوان مخطوط اسمه (أحضان المواهب)، ثم توفيت بالقاهرة عام 2010م.



والشاعرة الحضرمية الدكتورة عفاف صالح الهجري؛ رئيس منتدى المرأة الجنوبية بالمملكة المتحدة، إذ تشكَّلتْ شاعريتها في التطواف بالمهجر العربي والأوروبي مع زوجها السفير عوض راشد، وقد انتقلت إلى باريها في لندن سنة 2020م.

أما على نطاق السرد فتحضر في الذاكرة الأديبة الساردة هدى العطاس، التي بدتْ ملامح البيئة الأوروبية على جرأة قلمها السارد، في مواكبة الأدب الحداثي؛ ولدت في حضرموت، وانمازت بقصصها القصيرة التي حازت في إثرها جائزتي العفيف في عام 1997م، وجائزة الشارقة، وتعد أفضل قاصة في استطلاع الصحافة اليمنية، وقد نشرت مجموعتها الأولى في عدن عام 1995م، ونشرت أربع مجاميع قصصية بعد ذلك.

كذلك إلى المكلا تشير سبَّابة الأدب والسرد إلى القاصة الساردة سعاد عمر سواد (الطبيبة الأديبة)؛ التي كانت أكثر الأديبات الحضرميات غزارة في النشر على الإطلاق؛ إذ نشرت قرابة تسع روايات ومجموعة شعرية، وهي لا زالت تعطي وتبدع في مجالي الطب والأدب.



لم يقع في يدي من تلك الأعمال النسوية سوى ديوان السيدة خديجة بنت الحبشي؛ لذا آثرت أن يكون نموذجًا للوقوف القرائي، الذي تسمح به مساحة هذه الأسطر، ولنوعية المحتوى الشعري الشعبي المتشكل في الديوان.

قراءة في شعر الشاعرة خديجة بنت علي الحبشي (ت: 1353هـ):

لمعت أسماء تشكلت شاعريتها في بيئة حضرمية صوفية روحانية؛ على مر العصور كالشيخة سلطانة الزبيدية (ت: 847هـ)[5]، والسيدة خديجة بنت علي بن محمد الحبَشي؛ وإن كان شعر الزبيدية فصيحًا غير أنَّ ما بقي منه نتف قليلة، على عكس شعر السيدة خديجة الحبشية؛ فقد قفزت شعريتها على قوالب النمط الصوفي الرتيبة، إلى فسحة امتداده ودلالاته البعيدة، التي تزدوج فيها قراءة شعر العشق على مسارين عشق صوفي مرموز، وعشق عاطفي (ذاتي) من الذي يتفلت به القلب نحو المعشوق الغائب؛ فلا تكاد تفصل بين المستويين الشعريين في شعرها. كما هي الحال في أشعار المحضار وحداد، التي انطلقت من البيئة الشعرية ذاتها، فانماز شعر السيدة خديجة في النطاق النسوي بطربيته وغنائيته، فهو شعر راقص مغنٍّ في المقام الأول في أثره الصوتي والإيقاعي؛ فاجتمعت فيه ثلاثية (البكاء والسهر والغناء)؛ وبدا كلٌّ ضلع من أضلاع هذا المثلث يتشكل في صورٍ بديعة، تكمل تمام اللوحة الشعرية المرتضاة.

التجريد بين المنحى الصوفي والقناع الشعري:

على الرغم من تفلُّت شعر السيدة خديجة الحبشية من القيود التي كبَّلت الشعر النسوي الحضرمي، لكنَّه لا يغيب عن وعيك كثافة ضمير الغائب المذكَّر الذي تتمترس خلفه أنا الشعر؛ وهو ما يسمِّيه النقد أسلوب (التجريد)، الأمر الذي يقود قراءتنا إلى التساؤل: هل التجريد عندها كان امتداداً لبعض السطوة الذكورية التي ما زالت تلقي بأثرها على الشعر النسوي الحضرمي، أو أنَّ هذا الإجراء هو امتداد لنمط الخطاب

57
العدد (37)
يوليو
سبتمبر
2025م

الصوفي الذي يقوم على تمجيد ضمير الغائب المفرد: (هو هو حي حي...)، وبين هذا وذاك يظل الاحتمالان قائمَين، وقد يجتمعان؛ فمن التجريد بأسلوب المذكر المفرد الغائب قولها:

والمحبة قال شاعر عذبت حال اليتيم

ريت كل من ضاق قلبه لي تذكّر من يحبه

في وسط غبه يهيم[6].

تُجرِّدُ الشاعرة من ذاتها شاعراً (ذكراً) يقول الشعر: (والمحبة قال شاعر)، ويستمر سياق الشعر بأسلوب التجريد: كل من ضاق/ قلبه/ حال اليتيم. إلى آخر النص.

ومنه أيضاً قولها:

والهوى صعب ما يضبطه خط القلام

من بلي فيه ما يقدر يرد السلام

له سواقي وطيّه يندر الماء ذنوب

من بلي في المحبة ما تهنّى السكون

لي دجى الليل ما يقدر يكس العيون

وان سمع صوت حادي حس قلبه دبوب[7].

(من/ بلي/ ما يقدر/ يرد السلام/ من بلي/ ما تهنّى/ ما يقدر/ ...) تلحظ أن ضمير الغائب هو الفاعل في هذه الشعرية؛ لأنَّ دلالة العشق هنا مفتوحة، وحين تنغلق بطوق المنحى العرفاني الصوفي يحضر ضمير المتكلم المفرد والمجموع؛ في خصوصية نمطية لديوان السيدة خديجة بنت علي، كقولها:

حرّك الصوت في قلبي شجون بات سهران ما جانا سكون

وارد القلب خائف لا يميل

حتى قالت:

روّح ومضواك إلى حوطة عمر عند منية فؤادي والثمر

خَلّق لي بُعدهم عندي ثقيل[8].

يقصد الشعر حوطة عمر العطاس بـ(حريضة)؛ مُجَلِّيًا منحى العشق الصوفي؛ فانفك طوق الغائب ليمثل ضمير الحاضر، في قوله: (قلبي/ ما جانا/ فؤادي/ لي/ عندي...)،



حين تبدَّت وجهة العشق إلى المنحى الصوفي.

وهو المُنجلي في قولها من الشعر الصوفي المحض، في موضع آخر:

وجينا يا حبايب نبغى كرامة عسى كلين يبلغ مرامه[9].

بضمير التكلم تماشيًا مع منهجية الشعرية لديها بالتكلُّم في حضرة المنحى الصوفي لمسار الشعر، والتجريد للغائب في التفلُّت لغويًا على نطاق شعرية التصوف، فيتحول مسار الشعر في هذا الأخير إلى نمط التجارب الفنية الذاتية (الرومانتيكية) العامة كما عند شعراء الأغنية الحضرمية، التي بسقت أغصانها هي الأخرى في التربة الشعرية الحضرمية ذات البُعد الصوفي.

ثالوث شعرية السيدة خديجة: (السّهر، والبكاء، والغناء):

إنَّ هذا الثالوث: (السهر، والبكاء، والغناء) يشكل ملامح الأغنية الحضرمية عامة، وشعر السيدة خديجة يمتح من هذه المدرسة الفنية ذاتها، التي بدأت بدايات صوفيةَ الوجهة الشعرية، ثم تحرَّرت لتعبِّر عن التجارب العاطفية الذاتية الخاصة، وإن في قوالب تمضي وفق المستويات الشعرية الفنية الواسعة، بكل تجلّيات فنيَّتها البلاغية والرمزية.

حين تقرأ قولها:

يا فتى لو كنت داري يوم دمع العين جاري

فوق خدّي مثل الامزان

لو معك طب ينفع كان ما بيتت تسجع

بالمغاني هي والالحان

يومنا حب المغاني ذا متى يصفى زماني

حقّطوا قلبي بالاسهان

بات طول الليل ساهر لو خرج قالوا مسافر

واتبع أهل الشرح والدان[10].

يتجسَّد في هذه المقاطع ثالوث الشعرية عند الشاعرة، الذي سبق ذكره (السهر، والبكاء، والغناء) وهي مظاهر صوفية المنشأ شعريًا؛ فبرز السهر في: (بات طول الليل ساهر)، والبكاء في: (يوم دمع العين جاري فوق خدّي مثل الامزان)، وفي الغناء والطرب: (واتبع أهل الشرح والدان)، فامتدت انثيالات التصوير من هذه الأضلاع الثلاثة مادّةً ومشكِّلة مناكب اللوحة إلى أنماط شتَّى.

وإن طغى المنحى العامي أو الشعبي على نمط شعر السيدة خديجة غير أنه يعدُّ أثرى التجارب الشعرية للأدب الحضرمي النسوي الذي وقفْنا عليه؛ لما انمازَ به من حركة الشعرية وتجدُّدها وتنوعها وتفلُّتها عن صبغة النمط العرفاني المحض، وبلوغها منازل الشعرية الفنية ذات التجارب الخاصة، وإن تبطَّنت هذه الفنية بتلك الأبعاد الصوفية التي انطلقت وتشكلت الشعرية في أحضانها في المقام الأول.

أولاً: تشكيل تصوير السهر:

ومنه قول السيدة خديجة:

قال ساهر طوال الليالي المحبة تُبى الا قلب سالي

كل حبان توخذه نشبه

يا مسيكين من بات ساهر دمع عينه على الخد ماطر

يوم صاحبه يبخل بطِبّه[11].

تولدت في أحضان سياق السهر تصويراتٌ، مثل: دمع عينه على الخد ماطر/ يبخل بطبّه. تجلَّت الدموع مطراً، والخد وجه السماء الحزين، وبدا اللقاء (طبًا)، في سياقات انزياحية تصويرية حية تحيا وحياةَ المشهد التصويري العام. وقد تقدَّم تصوير اللقاء بالطب حين قالت في النص السابق: (لو معك طب ينفع)؛ فبدا الطبُّ دالاً على مدلول الوصال في شعر السيدة خديجة.

ثانياً: تشكيل تصوير البكاء:

حوى هذا البُعد تصويرات تسيل مُزنًا ومطراً في شعر السيدة خديجة، وقد تقدّم معنا شيء من تصوير الدموع بالماطر، والخد بوجه السماء الحزين الباكي، ومن هذا النمط قولُ شاعرتنا:

يومنا قد كنتْ سالي كنَّا قَل احتيالي دمع عيني دال ميم[12].

تلحظ أسلوب تجريد المذكر المفرد في سياق هذا البيت: (يومنا/ كنت سالي/ قل احتيالي)، فلا ثمَّ وجهة عرفانية في هذا النسق الشعري؛ الأمر الذي يُحيل على إقرار مبطَّنٍ من الشاعرات أنفسهن بأحقيَّة تفحيل الشعر؛ حتى يكون على مستوى رفيع في التعبير والتصوير معًا. لكنَّ الأمر الذي ندندن حوله هنا هو صورة الدموع المتناسلة حين قالت: دمع عيني دال ميم. تَكْنِيَةً عن الدَّمِ القاني؛ لشدة احمرار الدموع، وهو انعكاس لبرح الوجد والفراق.

ثالثاً: تشكيل تصوير الغناء والطرب:

قديمًا قال حسان ابن ثابت:

تغنَّ بالشعرِ إمَّا كنتَ قائلَهُ إنَّ الغناءَ لهذا الشعرِ مضمارُ[13].

يرسم حسان في هذا البيت منهجية الشعر المعتمدة على التغنِّي والطرب منذ ذلك الحين، وهذه هي حال الشعر الذي كانت العرب تقوله بدافع التغنِّي به والحداء، وهي سمة مطبوعة في الشعر النسوي الحضرمي، وعند شاعرتنا السيدة خديجة كذلك يكون الغناء والطرب دافعًا لنظم شعر الدان وغالب الأشعار الحضرمية؛ كما تقول:

لي قلب يسلا إذا قد حس حادي بنغماته
على الصوت ناح
وان حس صوت الحما يم فوق روس الشجر
غردن بالسر باح[14].

وتقول في هذا المنحى أيضًا:

لي قلب لي شاف واحد بالمغاني يشل
معاد تقدر عظامي عا الوقا تستقل
يسامر النثر والزهرة ونجم الزبان[15].

يتثال النغم في تصوير صوت الحمايم المغرِّدة على الشجر، وعدم قدرة سكون العظام عن الحركة على الفراش؛ فالنَّغم والانطراب يمثلان الدافع الأساس في السهر وقول الشعر عند شاعرتنا، وقد تكرَّرت هذه التصويرات في نصوص كثيرة من الديوان؛ منها ما تقدَّم من قولها:

يومناحب المغاني ذامتى يصفى زماني حقَّطوا قلبي بالاسهان

إنَّ صورة (حقَّطوا قلبي بالاسهان)، صورة شعبية بلغة حضرمية دارجة في لفظة الفعل (حقّط) أي المضغ بالأسنان بطريقة متأنية وبطيئة الأمر الذي يضمن طحنه، فعَّل التضعيف طاقة حدث الـ(حقط)، فلك أن تتخيل نتيجة هذا الأثر حين يكون القلب هو (المحقَّط)، كان المعجم الشعري الدارج أبلغ في رسم صورة الألم المصاحب للسَّهن والانتظار؛ وقد حضرت هذه الصورة في منحى سياق عشق الغناء وما يحدثه من أثر في الذات الشاعرة.

الخاتمة:

مما تقدم يمكن تلخيص النتائج الآتية:

1 – انشطار الشعر الغنائي الطربي العاطفي (الذاتي)، عن الوجهة التقليدية الأصيلة ذات المسحة الصوفية عند السيدة خديجة، فحضر التجريد في منهجية شعرها؛ إقراراً بالطاعة لقوامة شاعرية الذكر على الشعر النسوي جودةً، فلم يكن التجريد بدواعي تقفِّي النهج العرفاني، بدليل كثافة حضور ضمير (الأنا) في شعرية التصوف لديها.

2 – إقرار الشعر النسوي ذاته –في زمن النص– بأنَّه شعر لمَّا يرقَ بعدُ إلى مستوى الشعر الذكوري؛ من خلال إسناد الفاعلية الشعرية لضمير المفرد المذكر في الشعر الحضرمي في مجتلاه الفنِّي.

3 – أسبقية الشعر النسوي الحضرمي الشعبي فنيًا على الفصيح.

4 – تمخضت أصالة الشعر النسوي الحضرمي (المُقيم) من رحمِ صوفية المشرب شعريًا، أمَّا تحديثه فولَّى وجهته شطر الشعر الغنائي (الذاتي) العاطفي.

5 – لمَّا يزلْ نون النسوة الأدبي بعيد المستوى الفني في مجتلاه الأدبي نوعًا وكمًا عن الأدب الذكوري على مستوى الوطن العربي، ولعلَّ رفض أحلام مستغانمي تسمية (الشعر النسائي) يكون دافعُهُ التخوُّفَ من قيام موازنة محسومة النتائج سلفًا لصالح الفحولة.

توصية:

يوصي بحثنا بإعطاء الأدب النسوي الحضرمي خاصة، واليمني بشكل عام، اهتمامًا من النقد والدراسة والتحليل، وتوجيه الرسائل والأطروحات الجامعية نحو المطبوع منه.

الهوامش:

1. الشعر الشعبي النسوي في حضرموت: أ.د. مسعود عمشوش، ط(1)، 2022م، مركز مهارات للتدريب والدراسات والترجمة والنشر، عدن: ص 11.
2. ينظر، السابق: 13.
3. السابق: 14.
4. موقع عدن الغد، 4/ أغسطس/ 2021م.
5. الشيخة سلطانة الزُّبيدية، ووهج التصوف بين حضرموت والبلاد العربية: د. أحمد هادي باحارثة، تقديم: د. عبدالحكيم الزبيدي، ط(1)، 1445هـ – 2023م، تريم للدراسات والنشر، تريم/ حضرموت: ص107.
6. ديوان السيدة الفاضلة خديجة بنت العلامة الحبيب علي بن محمد الحبشي، جمع وتقديم: علي محمد عبدالرحمن السقاف، جدة: 22.
7. السابق: 14.
8. السابق: 86.
9. السابق: 97.
10. السابق: 19.
11. السابق: 33.
12. السابق: 23.
13. البديع في نقد الشعر: أسامة بن منقذ: 68/ 1.
14. ديوان السيدة خديجة: 16.
15. السابق: 12.



رحلة من قنا (حصن الغراب) إلى شبوت (شبوة)

طريق البخور الجنوبي العربي

محاضرة في ذكرى رحيل بيرتون

هارولد إنجرامز

مجلة الجمعية الملكية الآسيوية لبريطانيا العظمى وأيرلندا 1945 العدد الثاني من صفحة 169 -185 -
الناشر: مطابع جامعة كامبردج

ترجمة:
أ.د. خالد عوض بن مخاشن - محمد عوض باظفر - عوض محمد بن ماضي - عبدالحكيم صالح بن بدر -سالم محمد باسلوم

في أحد الأيام من عام 1921 كنت قاعداً تحت ظل شجرة مانجو، على قمة شامخة، تطل على جدول تشاك - تشاك[1]، المليء بأشجار المانغروف في بمبا[2]، التي يُطلِقُ عليها العربُ الجزيرة الخضراء. كنت ضيفًا عند شيخ قبيلة معولة[3] الشيخ سالم بن خليف، في مزرعة القرنفل الخاصة به في منطقة كاول[4]، كان هناك الكثير من أفراد هذه القبيلة الذين جاءوا من وادي المعاول في عمان، والآن يتبوَّأون مناصب عالية في بيمبا، وجلس معي الشيخ عبدالله مبروك المعولي، حاكم ما يسمى بتشاك- تشاك. كنا نشاهد السفينة الصغيرة (خليفة)، الراسية على مسافة بعيدة منا، وفي هذه الأثناء صعد أحد رفاقي التلَّ وناولني حقيبة بريدية كبيرة، تمَّ إحضارها من السفينة. كان داخلها طردٌ، قمتُ بفتحه، فأخرجت منه كتابًا من مجلَّدَيْنِ كبيرين، بعنوان: (زنجبار، المدينة، الجزيرة والساحل) للسير ريتشارد بيرتون[5] وقدمته له.

نظرنا أنا والشيخ عبد الله في الصُّوَر، وقرأت له ما قاله بيرتون عن تشاك- تشاك قبل حوالي سبعين إلى ثمانين عامًا. من غير المرجح أن يكون هناك أي شخص على قيد الحياة ممن رأوا بيرتون في بيمبا، ولكن في وقت لاحق أخذني الشيخ عبدالله لرؤية الشيخ علي محمد ربحي، الذي يتذكر وصول بيرتون جيداً، وأخبرنا أنَّ بيرتون كان أول رجل إنجليزي يزور الجزيرة، وأخبرنا أنَّه قد سبقه في المجيء بعضُ البرتغاليين الباحثين عن الكنوز. وقد توفي هذا الرجل المُسِنُّ بعد فترة وجيزة عن عمر ناهز 104 أعوام.

عندما وصلنا إلى عدن في عام 1934 كنت مرةً أخرى في أرض مألوفة جداً لبيرتون، حينئذ جمعْتُ غالبَ كُتُبِ بيرتون وما قد كُتِب عنه، وقمْتُ بزيارة عددٍ من الأماكن التي زارها، بل قد عشْتُ في بعضٍ منها. وعندما ذهبْتُ أنا وزوجتي إلى هرر[6] في عام 1942 استخدمْنا كتابه (خطى أولى في شرق أفريقيا واستكشاف هرر) دليلاً لنا،

والذي يتضمَّن دخول "هرر" من البوابة الجنوبية، في حين أن المدخل الرئيس اليوم يقع في الشمال، ومع حدوث تغييرات طفيفة في هرر، غير أن وصف بيرتون ما زال يُعَدُّ دليلاً جيداً. في أثناء التجوُّل في تريستا[7]، فكرْتُ في السنوات السبع عشرة الأخيرة لبيرتون هناك، "وفي أثناء إجازاتي كنت دائمًا ما أقوم بزيارة قبره في مورتليك[8].

ذات مرة ضللْتُ الطريقَ، ووجدْتُ نفسي خارج الكنيسة الأنجليكانية، فسألْتُ أحد السكان المحليين إذا كان بإمكانه إخباري بالطريق إلى الكاثوليكية. فقال: "أخشى أنني لا أعرفها جيداً، إنها ليست تلك التي هناك، إنما تلك هي الكنيسة المسيحية"، حينئذ لم يسعني إلا أن أفكر كمْ كان سيضحك بيرتون من هذا الشيء.

يمكنني القول، إنني كنْتُ مهتمًا ببيرتون لسنوات عديدة، ولكنني لم أتخيَّلْ أبداً أنه في يوم من الأيام ستتمُّ دعوتي لإلقاء محاضرة في ذكرى رحيله، ويجب أن أقول: إنَّ معرفتي به تجعلُني أشعر أنَّني غير مناسب بشكل خاص للقيام بذلك. ولشعوري بعدم القدرة على إلقاء محاضرة عن هذا المستكشف العظيم ورحلاته، فقد اخترْتُ أنْ أقدِّمَ - كبديل عن المحاضرة - وصفًا لرحلةٍ قُمْتُ بها، مُشَابِهَةٍ لرحلات بيرتون.

لم يتمكَّنْ بيرتون أبداً من الوصول إلى حضرموت، على الرغم من أن السيد برترام توماس[9] في محاضرة له عن بيرتون، أشار إلى أنَّ أحد مخططات بيرتون كان السفر من مكة المكرمة إلى المكلا. تلك الرحلة قام بها السيد فيلبي في عام 1936، وقام هو والسيد توماس بإزالة "(هذا العار المُلقَى على عاتق المغامرين)، ألا وهو عدم استكشاف تلك البقعة البيضاء الضخمة، التي لا تزال تُشِيرُ إليها خرائِطُنا، والتي تمثِّلُ المناطق الشرقية الوسطى من شبه الجزيرة العربية".

يقول بيرتون عن البلد الذي كان سيقطعه في طريقه إلى المكلا:

"سمعت عن الربع الخالي بما فيه الكفاية، من ناقلين موثوقين، لأستنتج أن أعماقها الرهيبة تعجُّ بعدد كبير من السكان الذين يتضوَّرون جوعًا؛ " إنها منطقة تكثر فيها الوديان الكبيرة والوديان الصغيرة ومجاري مياه الأمطار والوديان الضيقة، الخصبة جزئيًا بمياه السيول المتقطعة".

وأنا أرى أن هذا الوصف أقرب لوصف أراضي السهول في حضرموت، وليستْ أراضي الربع الخالي. وعلى الرغم من أن هذه المنطقة ليس بها كثافة سكانية بأي حال من الأحوال، لكنَّها أكثر كثافة سكانية من الربع الخالي، وسكَّانُها دائمًا ما يتضوَّرُون جوعًا، وهي بالتأكيد ملأى بالوديان الكبيرة ومجاري مياه الأمطار والوديان الضيقة، ولكنْ لا أظن أن هذا وصف جيد للربع الخالي. وفي رحلة السيد فيلبي من مكة المكرمة إلى المكلا، أجرى أول دراسة أولية شاملة لشبوة، وشبوة هي الهدف الرئيس للرحلة القصيرة، التي سأقوم بوصفها في هذه المحاضرة. ولا يسعني إلا التفكير فيما كان سيفعله بيرتون لو أن الفرصة سنحتْ له للقيام برحلة كهذه، فلن يكون لديه الكثير ليقوله عن البدو فقط، بل إنه أيضًا سيُعطي علم الآثار ما يكفي من المعلومات الكافية لملء مجلَّدٍ كبير آخر أو اثنين. وفي الوقت الذي قام فيه بيرتون برحلاته، كان ويلستيد قد اكتشف بالفعل أول النقوش الحميرية، بما في ذلك واحد رأيْتُهُ في رحلتي، ووجد فون وريد[10] نقشًا آخرَ طويلاً في خط رحلتي نفسه، ولكن هذا النقش لمْ تتمَّ رؤيته مرة أخرى إلا بعد ما يقارب مائة عام، وقد أعادتْ زوجتي اكتشاف هذا النقش. تعهَّد السيد فيلبي بالتعليق على بعض النقوش التي رأيْتُها بالفعل في طريقي، حيث يتم تزويد القارئ في النهاية بمادة أثرية شيقة في أثناء هذا الجهد المتواضع والبسيط. (انظر الصورة رقم 2).



صورة رقم (2)

كل ما عرفناه تقريبًا عن طريق البخور حتى السنوات الأخيرة يأتي من الكُتَّاب الكلاسيكيين، وغالبه من كتابات بلينيوس[11]، الذي أعطى تفاصيل عن تمويل هذه التجارة (تجارة البخور)، وعن أخذ الكهنة عُشْرَ البخور في شبوة، وذهاب الأسهم الأخرى لأمناء الملك، وحارس البخور، وحُرَّاس البوَّابات، وغيرهم من الموظفين. ربما كانت هذه رشاوى عادية أو عمولة غير شرعية تؤخذ في الجنوب العربي. يأخذُ ملك مملكة الجنابيين[12] ضريبة عند مرور تلك القوافل في بلده، وعلى امتداد كل الطريق كان يوجد مكان واحد فقط، يُبَاعُ فيه الماء، ومكان آخر للمسكن، وهناك أيضًا تُدفَعُ مختلف التكاليف والضرائب. كما يأخذ المعينيّون في الشمال حِصَّتَهُمْ من ذلك، وفي البتراء يَفرِضُ الأنباطُ ضريبةً كبيرة، وحين وصول البخور إلى البحر الأبيض المتوسط، تكونُ نفقات حمولة الجمل الواحد من البخور قد وصلتْ إلى 688 ديناراً. وكانت المعلومات التفصيلية لدى بليني وبطليموس[13] دقيقة جداً، مما يجعل المرء يعتقد أنهما ربَّما استطاعا الوصول إلى كشوفات حسابات المسافرين الإسكندرانيين الحقيقيين، الذين كانوا يشقُّون طريقهم من قنا إلى البحر الأبيض المتوسط. يا لَهُ من اكتشاف رائع، سيكون اكتشاف حسابات كتلك.

في السنوات الأخيرة، أحيتْ فريا ستارك الاهتمام بطريق البخور إلى حد كبير؛ إذ قدَّمَتْ في كتابها (البوابات الجنوبية للجزيرة العربية)، مُلخَّصًا ممتازاً لما كان معروفًا.

وفي شتاء 1937-1938 جاءت فريا ستارك مرة أخرى إلى حضرموت، برفقة عالمة الآثار الآنسة كاتون طومسون[14]، وعالمة الجيولوجيا الآنسة غاردنر[15]، وكانت وجهتهن حريضة. وقد نُشِرَ ما تمَّ التوصل إليه واكتشافه في هذه الرحلة في كتابي فريا ستارك[16] (شتاء في شبه الجزيرة العربية رحلة عبر اليمن)، وكذا في كتاب الآنسة كاتون طومسون (القبور ومعبد إله القمر)[17] في حريضة.

وفي نهاية رحلتهن، سافرت الآنسة ستارك من حريضة[18] عبر طريق "وادي عمد" و"بلاد الديّن" ومن "عزَّان إلى بلحاف". وكانت تميل إلى الاعتقاد أنَّ طريق البخور يمرُّ عبر وادي عمد ووادي جردان والمنطقة التي عبرتْها.

إن دراسة الآنسة كاتون طومسون المثيرة للإعجاب تسهم أكثر من أي دراسة أخرى في إثراء معرفتنا بعرب الجنوب القدامى، فلدينا الآن صورة لمجتمع زراعي صغير، يقع في الضواحي الشرقية لحضارة حضرموت القديمة تمامًا كما تقع الآن في الغرب. صحيحٌ أنَّ بحثها لم يتمَّ على إحدى المواقع القديمة الكبرى، ولكن هذه المواقع الكبرى ستحظى بلا شك بالكثير من الاهتمام في المستقبل؛ إذ أجرتْ دراستها في قرية ريفية، قد لا تلقى اهتمامًا ويتمُّ إهمالها.

ربما كنتُ أكثر جرأة في تسمية محاضرتي "طريق البخور"، إذا أخذنا في الحسبان ما تقول الآنسة كاتون طومسون:

"لا يمكننا اكتشاف حقائق ثابتة عن طريق محاولة تطبيق منهجيات الحفريات التي اتبعها رُوَّادنا على طريق لا يزال طريقًا افتراضيًا، ألا وهو طريق البخور، ذلك الطريق الذي أثار الكثير من التكهُّنات والحدس، والذي حاول عدد من البحَّاثين المتحفّزين مؤخراً وبحماس شديد استكشافه، دون الأخذ في الحسبانِ المتطلبات الأساسية لخريطة التوزيع الأثري، وجنوحهم نحو التبسيط المفرط من خلال افتراض تزامن الأطلال السطحية القليلة، التي تظهر في الممسوحات الطبوغرافية غير المكتملة أصلاً حتى الآن لجنوب شبه الجزيرة العربية".

لذا يجب أنْ أقدِّم بعض المبرِّرات، التي تؤكّد اعتقادي أنَّ الطريق الذي أنا بصدد وصفه يُعَدُّ بداية طريق البخور الرئيس من جنوب الجزيرة العربية إلى البحر الأبيض المتوسط. وأنا لا أرغب في الاستدلال على أن البخور لم يكنْ يُحمَلْ عبر طرق أخرى أيضًا. ولم تكن شبه الجزيرة العربية القديمة أقلَّ عُرضَةً للمشكلات الداخلية من شبه

الجزيرة العربية اليوم، فلا يُوجَدُ شَكٌّ في أنه كان يتمُّ تحويل حركة السير في كثير من الأحيان.

يُخبِرُنَا الدَّلِيلُ المِلَاحِيُّ المُسمَّى رحماني[19] بالآتي:

"بعد مدينة عمون- العربية السعيدة[20] يوجد هناك ساحل طويل ممتدٌّ، وخليج يمتد بحوالي 2000 ستاديون[21] أو أكثر، وعلى طول الطريق الذي يوجد فيه الكثير من البدو الرُّحَّل وآكلُوا الأسماك، الذين يعيشون في القرى (تمامًا كما هو الحال اليوم)، خلفَ الرأسِ الذي يبرز من هذا الخليج (كما هو واضح جداً على الخريطة)، توجد هناك مدينة أخرى فيها سوق مركزيٌّ على الشاطئ، قنا، من مملكة العزيلط[22]، بلد اللبان؛ وتواجهها جزيرتان صحراويتان، إحداهما تسمى جزيرة الطيور، والأخرى تسمى جزيرة القبة، وتبعد بمقدار مائة وعشرين ستاديون من قنا[23] (يمكن التعرف بسهولة على هاتين الجزيرتين حاليًا، الأولى لأنها مأوى عددٍ لا يحصى من الطيور البحرية التي توفر ذرق الطائر الثمين، والأخرى لأنها على شكل القبة. ونحو الأراضي الداخلية في هذا المكان تقع شبوت[24]، الحاضرة والعاصمة التي يعيش فيها المَلِك. ويتمُّ جلب جميع اللبان المُنتَجُ من كافة البلاد بوساطة الجمال إلى ذلك المكان ليتمَّ تخزينُه، ويُنقل إلى قنا على طوَّافات بحرية، محمولة على جلود منتفخة، وهذه العبارات كانت سائدة في ذلك البلد، ومن ثم يُحمَلُ في المراكب. "خلف منطقة قنا تنخفض الأرض بشكل كبير، ويتبعُها خليج عميق جدّاً، يمتدُّ على طريق رائع عبر بلد اللبان الجبلية والوعرة... على هذا الخليج هناك صخور ساحلية تقابل الشرق تسمى سياغروس[25] الذي هو... مرفأ ومخزن للبخور الذي يتم جمعه".

يُستنتج من هذا الوصف أمرانِ واضحانِ: أولاً، أنَّ البخور الذي يتمُّ جمعه في حضرموت نفسها يتمُّ جَلبُهُ بوساطة الجِمَال إلى شبّاتا؛ أو شبوت كما يصفها بليني (شبوة حاليًا)، ليتمَّ تخزينه هناك، ثانيًا، البخور الآتي من بلد اللُّبَان (ظفار الآن) يتمُّ تخزينُه في فرتك، ويتمُّ نقلُه عن طريق البحر إلى قنا، (حصن الغراب الآن) أو قلعة رافين، ويتمُّ نقلُه عبر القوافل إلى شبوة. ومن شبوة، ينقل عبر البتراء إلى البحر الأبيض المتوسط. وضَّح بليني أنَّ البخور كان أهمَّ ما يتمُّ نقلُه عبر هذا الطريق، لهذا يبدو لي أنه لا جدوى من تخيُّل أن أولئك الذين نقلوا البخور قاموا بنقله عبر طرق ملتوية وغير مباشرة. حتى البخور الذي يتمُّ حملُهُ في المراكب الشراعية من ظفار إلى عدن حاليًا يتطلَّب قوافلَ كاملةً إذا تمَّ نقلُه بَـراً، ولا يُوجَدُ سبب لافتراض أنَّ القوافل القديمة اتَّبعتْ أيَّ طريق آخر غير ذلك الطريق الأقصر بين حصن الغراب وشبوة. وعندما اتَّبَعْتُ هذا الطريق وجدتُ أن هناك الكثير من الأدلَّة على استخدام هذا الطريق قديمًا، على الرغم من أنه مهجور عمليًا في الوقت الحاضر. على الأرجح كان هذا هو الطريق الرئيس، كما أنَّني وجدْتُ أيضًا أدلةً تُشِيرُ إلى أنَّ منطقة إنتاج البخور في حضرموت، كانت أصغر بكثير من منطقه إنتاجه في محافظة ظفار المجاورة.

تمَّ ترتيبُ رحلتي في الفور، ونحن الآن في شهر أبريل من العام 1939م، وكان من المقرَّر أنْ أبدأ بجولة في مالايا وجاوة وحيدر آباد في يونيو. لقد مرَّ وقتٌ طويلٌ منذ أنْ أمضيتُ نُزهَةً رائعةً على ظُهُورِ الجِمَال، وكانت حينها الحرارة في أَشُدِّها في المكلا، وكان هناك الكثير من الأعمال الإدارية في مقرِّ المستشار المُقِيم؛ إذ كان مساعدي في جولة، وكانت زوجتي قد عادتْ في توِّها من رحلةٍ مثيرةٍ من منطقة حجر. وذات صباح في الخامس عشر من أبريل كنتُ أفكِّرُ مَلِيًّا في ملفٍّ خاصٍّ بشؤون بئرِ علي، التي تحتاج إلى اهتمامٍ أكبرَ مِمَّا كانتْ تحصلُ عليه. وعندما أحضر الساعي برقيَّةً عبر اللاسلكي – في اليوم العاشر من أيام الاضطرابات التي كانت تدور في منطقة شبوة ومنطقة العبر، فقُلتُ في نفسي لماذا لا أذهبُ وأرى ذلك بنفسي؟ لماذا لا أسافر من بئر علي إلى شبوة وأرى طريق البخور في الوقت نفسه؟

في اليوم السابع عشر، صعدْتُ مع شخصين مرافقين على مركبٍ شراعيٍّ صغير، وكان ذلك المركبُ يُدعَى فينوس. أحد هذين الشخصين كان صالح علي الخلاقي، صديقي اليافعي، الذي تعرَّفْتُ إليه من خلال رحلات سابقة، وكان قد عاد في تَـوٍّهِ مع زوجتي من رحلة الى حجر، ولكنَّه كان مستعداً تماماً للبدء من جديد في رحلة أخرى، والآخر يُدعَى عمر محيريز، أحد مساعديَّ السياسيين. وكان القبطان واثقاً من أننا يجب أن نصل بئر علي في صباح اليوم التالي، ولكن كانت هناك بعض الرياح ونكادُ كنا نتحرَّك، وبعد ثلاث ساعات وعند انتصاف الليل أطفئت أضواء المكلا، وحينئذ خلدتُ إلى النوم.

استيقظتُ عند الفجر لأجد أننا لسنا قريبين من بئر علي، ولكننا بالقرب من بروم، التي هي على بُعد أربعة عشر ميلاً من المكلا. أخذتْ نسمات الريح في التجدُّد، حتَّى وصلنا ميناء بئر علي قبيل الغروب. ولمَّا لمْ يكنْ أحدٌ على علم بأننا قادمون؛ أطلق صالح طلقتين بالبندقية ليعلمهم بقدومنا. ولكن النتيجة كانت غير مشجِّعة، فقد رأينا بواباتِ سُورِ المدينة تُغلَقُ، وسارع جميعُ مَنْ في الشاطئ بالدخول إلى البوابات الصغيرة.

السلاطين وأمثالهم فقط هم الذين يطلقون طلقات نارية عند الوصول، وبما أن جميع السلاطين كانوا موجودين، ولم يكن أحدٌ منهم خارج بئر علي؛ فقد ظنُّوا أنَّ القادم إليهم ليس بصديق؛ لذلك اتخذوا احتياطاتهم. وعلى الرغم من ذلك جاء إلينا صَبِيٌّ في الحال على متن زورق للتحقُّق من الأمر، ثم عاد إلى الشاطئ، لتنفتح بعدَها البوَّاباتُ مرة أخرى، وانطلق قاربٌ مُتَّجِهـاً إلينا، وعندما وصلنا إلى الشاطئ كان هناك السلطان ناصر بن طالب، أمام صفٍّ طويل من رجال القبائل، يُرَحِّبُونَ بنا، ويُطلِقُونَ نيران البنادق، التي أضاءتِ الليلَ بومضاتٍ من الضوء.

وكُنَّا في رحلتنا هذه لم نأكل سوى السمك منذ الليلة السابقة، لذلك كُنَّا مُقدِّرِينَ حَقَّ التقدير، كل تلك الأكوام من لحمِ الضأن وكعكِ القمح وعسلِ جردان، التي قُدِّمَت لنا حوالي الساعة العاشرة، بعد ان استيقظْنا من النوم على سطح القصر.

في صباح اليوم التالي، وبعد وجبة الإفطار التي شربْنا فيها القهوة، وأكلْنا كعك القمح والعسل، ركبْنا في الزوارق، وزُرْنا حصن الغراب والمناطق المجاورة له، والتي هي بقايا أثرية لشبوة. ولو كُنتُ أعلم بما كُنَّا سنلاقيه في ذلك الصباح من مشقَّةٍ عند تسلُّقِ التَّلِّ، ما كنتُ فعلتُ هذا الشيء أبداً، فقد كانتِ الطريقُ شديدةَ الانحدارِ، والأمطارُ الأخيرةُ قد جعلت الأمر أكثرَ صعوبةً من المعتاد، مع وجود ثلاثةِ أماكنَ مُدَلَّاةٍ أكادُ أستطيعُ الزحفَ تحتَها وتخطِّيها.

كان موقع القلعة رائعًا، فالجزء العلوي مُغَطًّى بحُطَامِ المنازل والصهاريج والأنقاض، كما أنَّ العُمقَ الرَّمليَّ في الأسفل يربطُ القلعة بالبرِّ الرئيس، وتُوجَدُ به آثارٌ لمبنًى قديم. لقد رأيتُ النَّقْشَ الذي سجَّله وليستد في حوالي عام 1838م، وليس هناك مِنْ شكٍّ في أنَّ هذه كانت (قنا)، التي ذُكِرَتْ في كتاب روحاني (الملاحة البحرية)، ولكنَّها أيضًا ربما تكون (كنّه) التي ذُكِرَت في سفر حزقيال[26].

عندما عُدْنَا إلى بئر علي، لمْ تكنِ الجِمَالُ التي ستُقِلُّنا في رحلتنا قد أتتْ بعدُ، ولكنْ في أثناء الغداء أتى كينيدي من بلحاف في طريقِ عودته إلى المكلا مع ثلاثة جِمالٍ بائسةٍ تمشي خلفَه. تسلَّمْنا تلك الجِمال، فغادرْنا بئر علي في حوالي الساعة الثانية، مُصطَحِبِينَ جَمَلَيْنِ من تلك الجِمَال، وبدويًّا مُسَلَّحًا. إنه لأمر مثيرٌ للاهتمام أنِ استطعنا السفرَ في حضرموت هذه الأيام دُونَ سِلَاحٍ لتعبر بلاد الذيبي. ولكن هذا ما حدث حقًا؛ إذْ لمْ نلقَ أيَّ شخصٍ طوال الطريق حتَّى اقتربْنا من وادي حجر بعد يومٍ ونصف. وتُعَدُّ حجرٌ من أكثر المناطق عُزْلَةً، ويبدأ وادي حجر بالرَّملِ وبعض الأحجار البركانية، ومن ثم تأتي صخور فقط. وقد أشار البدو الذين كانوا معنا إلى أنه الربع الخالي، وقالوا إن الكثير من الناس يعرفونه على هذا النحو منذُ زمن،

ثُمَّ وصلْنا إلى السور في (بنا) ظهر اليوم التالي.

في عددٍ من الأماكن من الطريق مررْنا ببعض المنحوتات الحميرية وبعض الأحرف الغريبة، والكلمات المحفورة على الصخور، وقد تبيَّن لنا من ذلك أنَّنا نسير في طريقٍ مُوغِلٍ في القِدَم. إن أهمية هذا الطريق لا ترقى إلى الشك أبداً؛ ذلك لأننا عندما اقتربْنا من وادي بنا، وهو مجرى صغير للماء يمكن أن يوفِّر طريقاً بديلاً، كان الطريق قد أغلِقَ بجدار صخري، ولا يُوجَدُ إلا مَمَرٌّ وحيد بِعَرْضِ 7 أقدام يمرُّ عبرَ هذا الجدار المثير للإعجاب، والبالغ طوله حوالي 200 ياردة، ويمتدُّ من جانب الجبل إلى حافَّة الوادي شديدة الانحدار. تمَّ بناء الجدار من أحجار متشكّلة، وسُمْكُهُ حوالي 4 أقدام أو 5، وربما كان ارتفاعه حوالي 20 قدماً، على الرغم من أنَّ مساراته العلوية قد تضرَّرتْ كثيراً. في هذا الممر البالغ طوله 17 قدماً يُوجَدُ النقشُ الذي نسخه فون وريد قبل حوالي مائة عام، والذي نسختْهُ زوجتي قبل بضعة أسابيع، ولمْ يرَهُ أحد من الأوربيين. (انظر الصورة رقم 1)



صورة رقم (1)

وقد تمَّ اختيارُ ذلك المكان بدقَّةٍ عالية، وقد أكَّد لنا البدويُّ المرافق لنا (علي) بالحرفِ الواحدِ أنه لا يُوجَدُ طريق آخر يمكن أنْ نسلُكَه. ووادي بنا هنا يكون عميقاً جدّاً، وبأسفله مياه، وأنَّ حوافَّهُ غير قابلة للتوسُّع، وشديدة الانحدار، وهو ضيِّق جداً لدرجةٍ تذكِّرُني بمنطقة السيق[27]، أو كما يسمى وادي موسى في البتراء، وينفتح على مساحة أوسع مثل تلك المساحة التي تقع فيها البتراء. كان هناك عدد قليل من الكهوف، ولكن لا يوجد شيء يوكِّدُ أنه كانت هناك مستوطنة بشرية. وأنا أميلُ إلى الاعتقاد أنَّ هذه هي بنا التي ذكرَها بطليموس، وليستْ وادي بنا، الذي يبعد حوالي 150 ميلاً غرباً في أبين، في بلد الفضلي. وهناك تقليدٌ في حضرموت مفادُه أنَّ الموطن الأصليَّ لأبناء عاد كان في بنا، ونظراً لعدم معرفة المؤرِّخين المحليِّين به؛ اعتقدوا خطأً أنَّه وادي بنا الموجود في أبين. ولكنْ لا توجد آثارٌ تاريخية في وادي بنا أبين، ومن المحتمل أن يكون بطليموس قد وضعَ على خريطته مراحل طريق البخور، التي يجب أن تكون إحدى أشهر الطرق المعروفة في تلك الأيام الغابرة. زيادةً على ذلك، يُشِيرُ كلُّ شيء إلى حقيقة رواية بليني، التي تقولُ إنَّ هناك مساراً واحداً لتجارة البخور، وأنَّ الانحراف عنه جريمة يُعَاقَبُ عليها بالإعدام. وقد أطلقَ فون وريد على هذا المكان أوبني أو لبني، وقد أدى هذا الخطأ إلى تجاهل الاسم الحقيقي لذلك الوادي.

تُخبِرُنَا النقوشُ أنَّ بنا كانت حدّاً فاصلاً بين الممالك، ومن المثير للاهتمام مقارنة الوضع في المنطقة حاليًا بما نعرفه عن الماضي. فلا تزال بنا حداً بين مملكتَيْنِ، هما سلطنة الواحدي ودولة القعيطي، ولكنْ لمْ يسيطر القعيطي على حجر إلا في الثلاثين عاماً الماضية.

وفي الماضي، كانت مملكة حمير تسيطر على الساحل، قد يكون من العدل أن نفترض أنَّ نقب حجر، مدينة ميفع التي ذكرها بطليموس، كانت عاصمتهم.

لا يزال الاسم ميفع باقيًا، حيث إن الوادي الذي توجد فيه النقوش يسمَّى ميفعة. وكانت تلك تُعد بالنسبة لهم بريتوريا[28] الخاصة بهم، وكانت كيب تاون الخاصة بهم هي قنا – حصن الغراب. في الوقت الحاضر تقسَّمت بلد الواحدي على سلطنتَيْنِ، تُهَيمِنُ عليهما فروعٌ من العائلة نفسها. فرع بئر علي ويسكنون منطقة بئر علي، على بُعد ميل من حصن الغراب، ويستخدمون المرفأ نفسه، وفرع

بلحاف في عزان، على بُعدِ أميالٍ قليلةٍ من نقب الحجر، لقد قاموا بإنشاء ميناء جديد في بلحاف، وهو ميناء أصغر بكثير من ذلك الذي في بئر علي. وبغض النظر عن هذا الانقسام الأخير، فإنه لايزال لديك بريتوريا وكيب تاون في المواقع القديمة تقريباً. زيادة على ذلك، لا يزال هناك فصيلٌ من قبيلة الواحدي يُطلَقُ عليهم حِمْيَرَ، وما حدث اليوم هو أنَّ فصيلاً آخَرَ أصبح هو المهيمن، كما يحدث غالبًا في التاريخ العربي.

وجِدَارُ بنا هو أيضًا حدٌّ قبليٌّ، يفصلُ بين قبائل الواحدي وقبائل حجر، وأعتقدُ أنها كانت قبائل تحت حكم مملكة حضرموت، وعاصمتُها شبوت أو شبوة.

وبمرور الزمن سيطرتْ حِمْيَرُ على سبأ، وعندما كنتُ سائراً في طريقي بعد أنْ تعدَّيْتُ بَنَا سألتُ لأسباب سياسية، كل القبائل المختلفة بما في ذلك كونفدرالية قبائل بلعبيد، ما إذا كانت مستقلة، أو خاضعة لسيادة أي دولة، فأخبرني الجميع، بما في ذلك الحاكم في معبر، أنهم كانوا مستقلِّين، ولكن سلطان بئر علي القديم كان بمنزلة دولة لهم. ويبدو لي أن هناك أثراً لغزو حمير لسبأ، وكما نعلم جيداً في المكلا في وقتنا الحالي، أنَّ سلطان بئر علي القديم كان يدَّعي دائمًا تبعيَّة شبوة وقبائل حجر، الخاضعة الآن للحكم القعيطي واتحاد قبائل بلعبيد، له، كما ادَّعى أيضًا أنَّ وادي جردان الذي ذكره بطلميوس باسم (جوردا) يتبعُ له.

وهناك قصةٌ مفادُها أنَّ الإمبراطورة هيلينا[29] الباحثة التي لا تعرفُ الكللَ، والتي تتبع مواقع مرتبطة بقصة العهد الجديد، أرسلتْ مبعوثين إلى جنوب شبه الجزيرة العربية لاكتشاف عظام الجاي، وقالوا إنهم عثروا عليهم في سيسانيا أدروميتوريوم، وعادوا بالعظام في حينها إلى القسطنطينية، وظلُّوا هناك حتى تمَّ نقلها إلى ميلانو. وفي عام 1164 تم نقلها إلى كاتدرائية كولونيا[30]. والمكان الوحيد في حضرموت الذي يحمل اسمًا مقاربًا لسيسانيا هو عزان، المدينة التي أخذتْ مكانة مدينة ميفع.

ومن المحتمل أن تكون القِدِّيسة هيلينا قد توصَّلتْ إلى كتابات الجغرافيين الكلاسيكيين عن بلد البخور، وإذا كان الأمر كذلك، فإن تلك المدينة، سواء في موقعها القديم أو الجديد، ستكون مكانًا مثاليًا للبحث والتنقيب، ولرُبَّما كانت تُعرَفُ باسم سيسانيا الحضارم، حاضرة وادي ميفعة.

في تلك الليلة، وبعد نزولنا عبر طريق مُتعِبٍ في النقوب، صِرْنَا على بعد أميال قليلة من نهر وادي حجر، ومررْنا بعددٍ من النقوش، التي لمْ أَقُمْ بنسخها، إلا أنَّ زوجتي وصالحًا قاما بنسخها بالفعل. وكان هناك عدد كبير من النقوش غير المرتبة على جانب الطريق، وهذه وحدَها تشير إلى أهمية الطريق. كما هو الحال في يومنا هذا، لا شك في أن غالب سكان البلاد حينئذٍ كانوا أُمِّيِّينَ، ولمْ يكنْ سوى "الكتبة" والتُّجَّار المرافقين للقوافل هم الذين نحتوا أسماءهم أو حروفهم الغريبة على جانب الطريق عند توقُّفهم هناك للراحة. وبالفعل أشار ابن خلكان[31] في إحدى سيره الذاتية إلى أن الطبقات العليا فقط هي التي سُمِحَ لها بتعلم خط المسند الحميري. وهناك تجد أحيانًا خربشات على غالب الطرق الرئيسة في حضرموت، ولكنني لم أرَ الكثير من تلك الخربشات.

كُنتُ مهتمًا برؤية نوع من الحجر المنقوش، الذي اكتشفتْهُ زوجتي في منطقة حجر، وجلبَتْ معها عيِّنةً منها للمتحف في المكلا. وكانت تلك أحجاراً منتصبة، ومنحوتة في بعض الأحيان في شكلِ وُجُوهٍ مُلتَحِيَة، وتحتها أشياء تُشبِهُ إلى حدٍّ ما الرموز المصريَّة. على جوانب الحجر كان هناك أحجار أخرى وُضِعَتْ حجرةٌ مسطَّحةٌ أمامها، بحيث بدأ المهد وكأنَّه كُرسِيٌّ. وربما كانت هذه أماكن للصلاة على جانب الطريق، وكانت بعض الأحجار مكتملة، وبعضها غير مكتملة وغير منحوتة.

في صباح اليوم التالي قُمْنَا بتغيير الإبل، وارتحلْنا راكبين الإبلَ لِمُدَّةِ يومين بمحاذاةِ النهر، حيث نقوم بالاستحمام والسباحة، وغسل أنفسنا وثيابنا في مياه النهر الخضراء الصافية

(انظر الصورة 2). وقد كان هذان اليومان ممتعَين، وكان يشاركُنا ضيوفٌ في وجبات الطعام في الغداء، عادةً ما نجعلُ زُوَّارَنَا يُعِدُّون الخُبزَ على الجمر والرَّماد، من العجينِ المُحَلَّى بالشاي، وعادةً ما يكون عمر متعبًا أو بالأحرى كسولاً في الليل، وكنتُ أنا وصالح معتادَيْنِ على طبخ العشاء بالتناوُبِ. والعشاء دائما ما يكون الأرزَ والسَّمكَ المجفَّفَ المطبوخَ بالبهارات، وعلبة صغيرة من الطماطم، وهذا يُعَدُّ طعامًا جيِّداً جداً، وإذا كُنَّا وحدَنا نقومُ بقَلْيِ السمكِ والطماطم مع السمن والأرز، ولكنْ إذا كان لدينا ضيوف كان علينا أن نقتصد؛ لذا نقومُ بطهو الأرز بشكلٍ منفصل، ومن ثمَّ نصنعُ حساءَ السَّمكِ والطماطم لِنَسْكُبَهُ فوق الأرز.

في هذين اليومين شاهدْنا نقوشًا مرة أخرى على جانبي الطريق، التي أوصلتْنا إلى منطقة الصدارة، وعلى قمم الأماكن العالية والحاكمة تُوجَدُ أنقاضٌ وبقايا القلاع القديمة المنسوبة إلى أبناء عادٍ، وعلى المرتفعات المحيطة بالصدارة يُوجَدُ المزيد من هذه القلاع التي تُسمَّى بالمصانع، وشعرْتُ بالثقةِ في أن هذا المكان الحاكم هو منطقة الصدارة التي ذكرها بطليموس.

هنا في منطقة الصدارة تناولتُ مشروبي الأول من النبيذ، وهو الخمر الذي يتمُّ استخراجه من نخيل النارجيل، وكان ذلك في فترة ما بعد الظهيرة عندما تمَّ إحضارُه إلينا، على أساس أنه طازجٌ، ولذيذٌ ومنعش. وبعد الشعور بالانتعاش الناتج من شرب ثلاثة أكواب كبيرة منه أدركْتُ أنه بدأ يتخمَّر ولمْ يعُدْ طازجًا، ولكننا أقسمْنا جميعًا أنه كان طازجًا تمامًا، حيث إنه محرَّم على المسلمين تناول الشراب المخمَّر.

من المؤكد أنَّ وادي حجر هو نهر بريون، الذي أشار إليه بطليموس؛ والسبب الأول في تأكيد هذا الاعتقاد أن الخرائط تشير إلى أنَّ مجرى ذلك النهر هو مجرى وادي حجر نفسه، والسبب الآخر هو أن حجر تقع على طريق البخور من قنا إلى شبوة، ولا بد أنْ يكون لها نهرٌ أكثرُ شهرةً من نهر المسيلة في حضرموت، الذي أشار إليه هوغارث[32]. ومثل نهر المسيلة فإن نهر حجر يتدفق بشكل دائم، ويصل إلى البحر. أمَّا لماذا أطلق عليه بطليموس اسم منشار النهر؟ فهو أمر لا يزال غامضًا. وقد أشار فورستر ذات مرة إلى أن البريون هو جدول، تمتدُّ على جانبَيْهِ جبال عالية مسنَّنة، وعلى نحو مثير للإعجاب كذلك هو الحال بالنسبة لحجر؛ إذ توجد جبال عالية مسنَّنة تحدّد مجراه، في حينِ أنَّ المسيلة تجري في الجول، وهو مسطَّحُ القمَّةِ، ولا يعطي الانطباع نفسَه عندما يمرُّ المرء عبر واديها. وقد سألت أهالي منطقة الصدارة عما إذا كان بإمكانهم تقديم تفسير لهذه التسمية الغريبة (منشار النهر)، فقدَّمُوا لي تفسيراً بارعًا، وذلك أنَّ النهر سُمِّيَ هكذا لوجود أشجار النخيل المسنَّنة، التي يُنتَجُ منها النبيذ، وتسمَّى النخلة (النشار)، وكلمة المنشار أتت من الجذر العربي نفسه.



وقد رأت زوجتي في رحلتها إلى حجر عدداً كبيراً من الثعابين، التي لمْ تشهدْها من قبل في جميع أنحاء حضرموت، وكانت تجربتي مماثلة لها، فحينما كنتُ راكبًا ذاتَ صباحٍ إذ قطعَ ثعبانٌ أخضرُ الطريقَ، وسألْتُ عما إذا كان سامًا، فقيل لي إنه كذلك، ولكن ليس بالقدر الكافي، ولكن كان هناك في المنطقة ثعبانٌ أحمرُ لدغتُهُ تسبِّبُ الموت في الفور، وذلك الثعبان الذي يقفزُ عليك، كان أحمرَ اللَّون، أو أحمر أو بُنِيَّ اللون، ونادراً ما يُوجَدُ خارج منطقة وادي حجر. ولم يُذكَرْ هذا فقط في قصة هيرودوتس[33] عن الثعابين المجنَّحة التي كانت تحرسُ أشجار البخور، ولكن أيضًا

تمَّ ذكرُها في تقرير أرطميدورس[34]، نقلاً عن سترابو[35]، الذي قال إنَّ هذه الثعابين كانت طويلةً وحمراءَ اللَّون، وشُوهِدَتْ في ارتفاعٍ يصلُ إلى الفخذ، وأنَّ لدغة تلك الثعابين كانت غيرَ قابلةٍ للشفاء. وبدأتُ أتساءلُ عمَّا إذا كانت منطقه حجر ليستْ منطقة بخور حضرموت القديمة؛ لأنَّ أشجار البخور لا تزال مزدهرةً في كثير من الوديان الجافَّة والصغيرة القريبة منه، ويتمُّ جمع البخور منها بوساطة الصوماليّين.

لقد سافر أحدُ هؤلاء الصومال معنا على متن مركبنا الشراعي إلى بئر علي، فأخبرني أنَّهُ من الممكن صُنعُ أشياءَ من البخور أكثر مما يُصنع منه حاليًا، ولكن انعدام الأمن حتى عهد قريب حال دون ذلك. يقول بليني: إنَّ منطقة بخور حضرموت كانت لها ثماني محطات من شبوت (شبوة)، وكان يُطلَقُ عليها سبأ. وكان من الصعب الوصولُ إليها بسبب الصخور الضخمة على جنباتها، والآتي إليها من البحر، الذي يحدُّها من اليمين، ستصدُّه المنحدرات الجبليَّة الشاهقة المُشرِفة على السواحل. إنَّ وصف بليني لأرض البخور يتطابق مع خصائص منطقة حجر، وكذلك مع وادي حضرموت، لكنَّه أقرب إلى حجر؛ نظراً لجبالها الصعبة، وممرَّاتها المُرعِبة، فهي حقّاً منطقةٌ يَصعُبُ الوصول إليها.



يقول بليني: كان السبأيّون دون غيرهم من العرب هُمْ مَنْ كان يتعامل مع أشجار البخور، وليس كل السبأيين، إنما كان ما لا يزيد عن 3000 أسرة لها الحق في هذا الامتياز المتوارث، مقدِّمًا أسبابًا دينية لذلك. هذا الأمر يذكِّرني بوجود سلعتَيْنِ شحيحتَيْنِ في حضرموت، كُلٌّ منهما تُعَدُّ حكراً على قبيلة معينة. في الواقع قد يكون ذلك الاحتكار لبعض عائلات تلك القبيلة وليس للقبيلة كلها. هاتان السلعتان هما: المانجو، التي تُزرَعُ في ثلة السفلى فقط، على بُعدِ اثني عشر ميلاً من مدينة المكلا، وأوراق التنبول وجوز الأريكا، التي تزرعها قبيلة بحسن، وهي بيتٌ من بيوت قبيلة الحموم في منطقة المعدي. حاول البعض في كثير من الأحيان زراعة هذه المنتجات، لكنَّ البدو المعنيين كانوا لهم بالمرصاد؛ إذ يقومون بتدمير تلك الحقول حال اكتشافها؛ حفاظًا على احتكارهم لها، فهي تدرُّ عليهم أموالاً كثيرة. لذا، ربما كان هناك احتكار سبئي لأشجار البخور.

غادرْنا منطقة الصدارة والنهر، ثُمَّ تناولْنا وجبة الغداء في يومنا الأول في منطقة المتناق، حيث كانت هناك بعضُ أشجار النخيل من نوعٍ لمْ أرَهُ من قبل قط، وهناك الينابيع الساخنة، وجبل الملح. كان مذاق ملح ذلك الجبل ممتازاً، وأظنُّ أنَّه أفضل بكثير من طعم ملح شبوة، حاولْنا أن نقتطع قطعة من عرق الملح الأبيض الضخم، والمكشوف في ذلك التل الأسود، ولكنْ لمْ نستطعْ. بِتْنَا تلك الليلة في وادٍ قاحل، وفي صباح اليوم التالي رأينا أشجار البخور (اللبان) المنتشرة، والكثير من النقوش على الطريق، ووصلْنا ليلاً إلى يبعث، حيث مكثْنا هناك مع الأصدقاء.

على الرغم من أن فون وريد قد زار بَنَا، لكنَّه لمْ يرسم الطريق بشكل صحيح، ولذلك فإن الطريق من بئر علي لم يسلكْهُ أحد قط من قبل. في الطريق من بئر علي إلى حجر، التي رسمها فون ويسمان[36] بشكل جيد، قمْتُ بعملِ مسحٍ اجتيازي بالبوصلة. أمَّا الطريق من حجر إلى يبعث

فكُلُّ شيء قد قام به فون وايسمان، فما كانت هناك حاجة لأشغل نفسي بالوصلة، لكن في الطريق من يبعث إلى شبوة كان عليَّ أن أرجع للبوصلة مرَّة أخرى؛ لأنه لمْ يتمَّ رسمُ أيِّ خريطة لتلك المنطقة. كانت غالبُ الاتجاهات من بئر علي إلى حجر مفتوحة، فقد كان هناك اتجاه من يبعث فصاعداً، وآخر إلى منطقة يبعث نفسها، ومنها تمتدُّ طريق للقوافل مستخدمة كثيراً، ولكن قيل لي إنَّ حركة السَّيْرِ فيه كانت قليلة. تميَّزت الطريق بأكملها بوجود النقوش، وأكوام غريبة من الحجارة تُسمَّى (عروم). والتي أيضاً لاحظْناها في بلاد الصيعر، حول منطقة العبر وفي أماكن أخرى. كان بيرترام توماس Bertram Thomas[37] قد شاهد أيضاً تلك العروم في بلاد المهرة. تلك العروم تتكوَّن عادةً من أكوام من الحجارة (اثني عشر كوماً أو أكثر من الحجارة، منها كبيرة في وضع مستقيم)، مكوِّنةً سياجاً دائرياً، إما في منتصف الصف وإمَّا في نهايته. لمْ أجدْ أبداً تفسيراً مقنعاً لتلك العروم. عادةً ما تكون تلك العروم على جانبَي الطرق، وفي قمم التلال المطلة على تلك الطرق. أشار البدو إلى أنَّ تلك العروم إمَّا أن تكون أماكن يختبئ فيها الصيادون لقنص الغزلان أو لحماية أنفسهم، وإمَّا أنْ تكون أماكن يتمركز فيها حُرَّاسُ الطرق.

وقد عرضتْ علينا بعض النقوش الموجودة في وادي يبعث نفسه، وتضمَّنتْ أقداماً منحوتة على بعض الحجارة، التي وجدْتُها أيضاً مرتبطة بالصلبان الموجودة في الأماكن التي يُزعم أنَّها أماكن للعبادة المسيحية القديمة في سقطرى. لقد رأيْتُ أيضاً صلباناً وأقداماً منحوتة على الرخام في متحف القاهرة، ووجدتِ الآنسة كاتون طومسون Canton Thompson قدماً منقوشة في حريضة. ولكنني أشُكُّ في نزول قوافل البخور إلى داخل الوادي، فلمْ تكنْ هناك حاجة لنزولها إلى الوادي للتزوُّدِ بالمياه طالما كان باستطاعتها أخذُ ما تحتاجه من المياه من تلك الصهاريج، التي لا تزال مستخدمة إلى الآن في الأعلى، زيادةً على أنَّ العِقَابَ المؤدّيةَ للوديان كانت خطيرة ومُرعِبةً جِدّاً.

في اليوم التالي غادرْنا المكان الذي يُسمَّى بالعقبة البيضاء، بعد تناول وجبة غداءٍ شهيَّة، والاستحمام في جدولٍ تحتَ ظلال النخيل في غيل. جلسْنا أيضاً هناك تحت الأشجار نُنَاقِشُ بعض الأمور والأنشطة الاجتماعية مع شيخ قبيلة نعمان، وهي القبيلة التي تسكنُ هذا الجزء من البلاد، وهو الرَّجُلُ الذي قام بمرافقتنا من قريته القونا[38]، ثم قام ذلك الشيخ بفك (الفص) – وهو عقيقٌ أحمرُ، مُرَصَّعٌ بالفِضَّةِ، يَرتَدِيهِ غالبُ رجال القبائل، ويقال إن له خصائص طبِّيَّة – من عُنُقِهِ ورَبْطِهِ في عنقي، قائلاً لي: بما أنني قد عِشتُ عِيشتَهُمْ عِيشةَ البدو فكان لزاماً عليَّ أنْ أرتدي ما يَرْتَدُونَهُ، وبعد هذا قام بتوديعي (انظر الصور 3، و4، و7).



بدأتُ في صعود العقبة البيضاء قبل الساعة الثانية، ولمْ أصل إلى قمَّتِها إلا بعد الساعة الخامسة والنصف، بعد أنْ تقطَّعتْ أحذيتي تماماً. بِمُجرَّدِ وصولنا إلى القمَّة، لمْ نُوَاجِهْ أيَّةَ صعوبات أخرى حتى وصولنا إلى (عقبة وادي عرما)، على بعد ثلاثة أيام. مررْنا بمناطق البدو من المشاجرة، وبينَ الفَيْنَةِ والأخرى كُنَّا نُصَادِفُ الرُّعَاةَ منهم مع قُطْعَانِهِمْ، وفي الليلة الثانية وصلْنا إلى قرية الشعبات الصغيرة، في بلاد آل بلعبيد. لمْ يرَ أيٌّ من سُكَّانِ قرية الشعبات أوروبياً من قبل، ولكنْ بمجرد أنْ عرفوا اسمي، رحَّبُوا بنا ترحيباً حاراً.

لقد انضمُّوا إلى صلح حضرموت، وكانوا ممتنِّين للحياة الهادئة، التي يعيشونها الآن. قاموا بتقديم العشاء من المَرَقِ السَّاخِنِ ولَحْمِ الضَّأْنِ البارد والخبز، ولكنْ أُتِيَ به متأخّراً كالمعتاد. رغم أنني وصالحًا كُنَّا في غايةِ السعادةِ؛ لأنَّنا لمْ نكنْ مضطرِّين تلك الليلة إلى تفتيت السمك المجفَّفِ (اللّخم) لكنَّنا كنا نثمِّن عاليًا تلك الوجبات البسيطة، التي نَعُدُّها وَسْطَ أنقاضِ المباني والآثار خارج القرية؛ إذ كان علينا أن ننام بدلاً من النوم هاهنا في بيتٍ الجوُّ فيه حارٌّ، وبه الكثير من البعوض.

الشعبات قرية صغيرة وجذّابة، حقولها وأشجارها كلُّها خضراء؛ بسبب الأمطار، التي هطلتْ عليها مؤخراً، ولكنْ لمْ تكنْ بها آثار قديمة. قال لي رجلٌ مُسِنٌّ وهو زعيم قرية الشعبات وهو المقدم عمر بن سالم باظفر الهميمي إنَّهُ سيأخُذني الى مكانٍ، تُوجَدُ فيه بعض الآثار القديمة. لقد كان صادقًا في وَعْدِهِ، ففي وقتٍ مبكِّرٍ من صباح اليوم الثاني كُنَّا في طريقنا إلى منطقة معبر بصحبة ذلك الرجل المسن. على الرغم من أنَّ الطريق لمْ يُعَدْ مستخدمًا كثيراً لكنَّه كان مهمًّا في يوم من الأيام، فبصرف النظر عمَّا فيه من العروم والنقوش والمنحوتات المعتادة للوعول والشمس والإبل، فقد كان عريضًا جداً. لكن بعد ساعة أو ساعتين من المشي عبر ذلك الطريق ذهبْنا إلى طريق فرعيٍّ، يؤدي إلى منطقة معبر. نزلْنا في وادٍ، وكان طريقنا يحاذي العروم، وطريقٌ آخرُ مُعَدٌّ في شكل ممشى، يؤدي إلى مذبح معبد في الأعلى. قيل لنا إنَّه تمَّ العثورُ على تمثال رخامي في هذا المكان. في حقلٍ أخضرَ في الأسفل كانت هناك قاعدة من الرخام الأبيض، يبدو أنه كان يوجد هناك معبد صغير، مستطيل الشكل وجميل. بحثْنا بين الأنقاض الموجودة في أعلاه وحوله، لكنَّنا لمْ نعثُرْ على شيء سوى بعض القطع الخزفية.

بعد غداء خفيف وقهوة مع شيخ معبر المسن وأتباعه غادرْنا المكان تحفُّنا دعواته لنا، لمْ يرَ ذلك الشيخُ أوروبيًا من قبل، ولمْ يغادرْ معبر إطلاقًا من قبل، لكنْ كانت بيني وبينه مراسلات عن موضوع الصُّلح. عُدْنَا الى الطريق القديم بعد حوالي ساعة أوْ ساعتين، من الواضح أنَّهُ الطريق الرئيس، ونصبْنا خِيَامَنَا في جَولٍ مهجُورٍ، بالقرب من خَزَّانِ مياه، وشاهدْنا الكثيرَ من المنقوشات الأثريَّةِ على الجُدْرَانِ ورسومات الوعول والشمس وهلال القمر.

في اليوم التالي أتانا لِصَّانِ وقدَّما لنا تفسيراً غيرَ مُقْنِعٍ بأنَّهما كانا جالسَيْنِ على تلَّةٍ ينتظران صديقًا وعدَهما بإحضار هديَّة من البير. في جميع أنحاء هذه البلد يُشَارُ إلى بئر علي باسم (البير)، وتسمَّى بلحاف (الرأس)، والمكلا تسمى بالسوق. انضمَّ إلينا هذان الرجلان، أحدُهما كان كثير الكلام والآخر أكثر هدوءاً وأكثر نفعًا، وصلْنا الآن إلى (الماجورا). قيل لنا إنه كان طريقًا للسيارات، وهو يبدو كذلك. تمَّ إزالة الصخور والحجارة من ذلك الطريق، وتمَّ تكديسُها على جانبَيْهِ، تمامًا مثلُها مثلُ الطرقات في حضرموت. سألْتُ مَنِ الذي قام بعمل ذلك الطريق؟ وكان الجواب: إنَّ أبناءَ عادٍ هم مَنْ فعلوا ذلك: وهل استخدم أبناءُ عادٍ السيَّاراتِ أيضًا؟!!. استدعى هذا التفسير رؤى جميلة لعمالقة شباب من أيام سفر التكوين وهم يركبون سيارات اوستن سيفين ويمشون بها بسرعة جنونية في الجول.

قُدِّم لنا تفسيرٌ آخرُ وهو إنها الطريق التي سارتْ عليها ناقةُ النبيِّ صالح؛ فعَرَبُ جنوب الجزيرة العربية يدَّعون أيضًا أنَّ نبيَّ ثمود كان مِنْ عندِهم. من الممكن أنَّه تمَّ تنظيفُ هذه الطرق للسَّمَاحِ بنقل كتلٍ كبيرة من الحجارة للقيام بأعمال البناء في شبوة، ونقلها على جذوع الأشجار المستخدمة كبكرات.

امتدَّتِ الماجورا إلى أميال، وبعد أنْ بدأت الفجوات مرة أخرى ووصلتْ تقريبًا إلى (عقبة فوتورا)، التي تؤدي إلى وادي عرما. عندما كُنَّا في الطريق أَرُونَا المكان الذي تقع فيه (كلوة)، التي تعدُّ أحد محاجر شبوة، ومررْنا عبر

71
العدد (37)
يوليو
سبتمبر
2025م

محجر قديم يسمَّى (قضية). بعد منحدرٍ سهلٍ وطويلٍ وصلْنا إلى العقبة، بالقرب من قمة العقبة كان يوجد هناك نقشٌ حميريٌّ طويلٌ، نُحِتَ بشكلٍ جيّدٍ للغاية. قمت بنسخهِ، متسابقًا مع ما تبقى من ضوءٍ باهتٍ للشمس الآفلة، واستطعْنا قراءةَ بعضِ الكلماتِ، مثل: "الملك فلان وفلان، ابن الملك فلان وفلان"، "عرما"، "4 فهود"، وقد استنتجْنا أنَّ هذا النقش تمَّ إعدادُه لإحياء ذكرى بعثة الصيد. ولكن السيد فيلبي سيخبركم أكثر عن ذلك.

لقد بنى القدماء طريقًا حجريَّة واسعة ورائعة، اسمُها طريق العادية، ولكن للأسف قد اختفتْ تلك الطريق، وحين وصلْنا إلى أسفل ذلك الطريق كان الجزء الأسفل من جزمتي الأخرى قد انفصل عنها. لمْ يكنْ لدينا ماءٌ، ولكنْ من شدَّة ما أصابنا من التعب غَلَبَنَا النَّومُ فوق الرمال.

استيقظت بعد ذلك بساعتين على صوت أنثوي، يقول: "لبن، لبن". جلبتْ لنا ثلاثُ فتياتٍ بدويَّاتٍ اللَّبَنَ والماء. جميعهُنَّ كُنَّ حسناواتٍ، إلا واحدةً كانتْ تفوقُهن جمالاً. لقد أعدْنَ لنا الحياةَ، فقُمْنَا نَعُدُّ العشاءَ، وانتظرْنَ ليشاركْنَنا تناول ذلك العشاء، وبعد ذلك قُمْنَ بتعليمنا ألعابًا بدوية على الرمال، مثل لعبة المتاهة، ولعبة الإغارة أو المداهمة، وعند انتصاف الليل غادرْنَ إلى بيوتهن، وأوَيْنَا نحن إلى ألحفتنا (بطانيَّاتنا)، ومرَّة أخرى جلبْنَ لنا اللبن الطازج في الصباح.

في اليوم التالي تجوَّلْنا في الوادي وصولاً إلى (المافود)، حيث تمَّ استقبالنا هناك بالتحيَّة، وبالطريقة القبلية المعتادة عبر إطلاق النار من البنادق. لكن هذه التحية في هذه المنطقة الواقعة بين حضرموت والمحميَّة الغربيَّة مُقْلِقَةٌ للغاية. فبدلاً من إطلاق النار عاليًا في الهواء، يقومون بإطلاق النار فوق رأسك مباشرةً، ومن المفترض أن تبدو كما لوْ كُنتَ تُحِبُّ ذلك. ونظراً لأنني أطول من الطول المعتاد للعرب الجنوبيين فقد كُنتُ لا أحب تلك التحية على الإطلاق.



بعد الغداء افترقْنا مع الشيخ الذي جاء بنا من يبعث، وانطلقْنا مع شقيق المقدَّم على ثلاثة جِمَالٍ جيِّدة، مُتَّجِهِينَ إلى شبوة، قاصدين المبيت فيها. كان وادي عرما مليئًا بالرسومات القديمة، والمباني البسيطة، وأعمال الري، ولكن الأكثر إثارة للاهتمام من كل شيءٍ كان العقبة التي سبق وغادرناها. بقيت الكثير من أعمال البناء القديمة التي بناها الشبوانيون، وكما أشار دليلنا، كانت واسعة بما يكفي للمركبات ذات العجلات. في الواقع كان عرضها حوالي 16 قدمًا، وتعد أوسعَ بكثيرٍ من أيِّ عقبةٍ أخرى مبنيَّةٍ رأيْتُها في أي مكان آخر. هو أيضًا قام بتكرار قصة السيارات، لكنَّه قال إنه على الرغم من أنَّه لا يعتقد أنَّ القدماء كانوا يمتلكونها، لكنْ بدا واضحًا أنَّهم استخدموا المركبات ذات العجلات، بأي حال من الأحوال كانت تستخدم لجلب الأحجار الكبيرة المقطوعة إلى شبوة. حلَّ الغَسَقُ مرَّةً أخرى عندما نزلْنا من هذه العقبة، ولمْ يكنْ لديَّ الوقت إلا لنسخِ أوَّلِ ثلاثة نقوش طويلة رأيْناها، وكانت منقوشة بطريقة مذهلة.

في الصباح قطعْنا تلك الأميال المتبقية إلى شبوة، وكانت أشبهَ بجزيرة في الصحراء، ولاحظْنا العلامات والآثار الكثيرة، التي تدلُّ على مدى انتشار الزراعة في تلك الأزمنة الغابرة، التي تؤكِّدُ أنَّ شبوة في أوج عطائها كانت تقدّم مشهداً رائعًا للمباني البيضاء، القابعة على التلال المحاطة بالحقول الخضراء.

لقد دخلْنا عبر بقايا آثار بوابة قديمة، وقُلْتُ لمرشدنا عن قصة بليني إن هذه البوابة كانت تُترَكُ دائمًا مفتوحة لمرور قوافل البخور بحضور أمناء الملك، فردَّ علي قائلاً: "هذا الكلام صحيح، وهناك كان يجلس أولئك الأمناء، مُشيراً بيده إلى قبَّةٍ مشابهة لتلك القبب الموجودة حاليًا على بوَّابات مُدُنِ حضرموت، حيثُ يجلسُ المُوَظَّفُ المسؤول عن تسلُّمِ الجمارك.

اتضح لي جليًا أن آثار شبوة في وضعٍ بائسٍ جداً، يتهدَّدُها الإهمال والخراب. وجدْنا أيضًا رسمًا لامرأةٍ مجنَّحةٍ تحملُ قرنَ الوفرة (إناء في شكلِ قَرْنٍ)، وبعد أنْ شربْنا الكثير من لبنِ الإبل شاهدْنا مناجم المِلح، ومررْنا عَبْرَ بوَّابةٍ أخرى تؤدِّي إلى الصحراء. ولهؤلاء البدو عاداتٌ حسنةٌ فيما يتعلق بلبن الإبل. فبإمكان أيِّ شخصٍ غريبٍ أنْ يحلبَ له لبنًا مِنْ أيِّ ناقةٍ، وإذا أتى مالك الناقة أو أيُّ شخصٍ آخر ساعده على القيام بذلك.

كُنَّا سعداء جداً من هذه العادة الحسنة، فقد كانتْ أمامَنا رحلة ستستمر عشرين ساعة عبر الصحراء بدون قطرة ماء أو ظلٍ نستظلُّه. كان الجو ممتعًا بما فيه الكفاية في الليل، لكنَّ التسلُّقَ اللامتناهي للكثبان الرملية الصفراء التي يضاهي ارتفاعُها ارتفاع المنازل، ثُمَّ النزول منها في الأول من شهر مايو جعلني أُقِرُّ أنَّني قد نِلْتُ من صحراء الربع الخالي ما يكفيني. وبعدَ أنْ حلبْنا كُلَّ ناقة وجدْناها في طريقنا، وصلْنا أخيراً إلى العبر في مساء اليوم التالي.

أجدُ أنَّه من المثير للاهتمام مقارنة حالة البلد قديمًا وحالها اليوم، والسؤال عما إذا كانت الحضارة في ذلك الوقت أفضل من الآن. يرى بعض الأشخاص، الذين يرونَ الفقرَ المُدقِعَ والحياة البائسة والمحفوفة بالمخاطر للبدو الذين يعيشون حاليًا في هذه الأماكن الأثرية وما حولها، أنَّ حال البلد قديمًا أفضل بكثير مما هو عليه الآن، ويميل المرء أحيانًا إلى الاعتقاد أنها كانت كذلك؛ لأن البَنَّائِينَ القدماء استخدموا الأحجار، وهي أكثرُ مقاومةً وصموداً من الطين



المستخدم حاليًا. فقد قام القدماء بتشكيل أحجارهم، ونقشوا منقوشاتهم بطريقةٍ لا يفعلُها بنَّاؤُو حضرموت اليوم. لكنْ بصرفِ النظرِ عن ذلك، ماهي الصورتان؟ في اعتقادي المقارنة الصحيحة ليستْ بين بلد حمير وسبأ القديمتَيْنِ وحالتهما الحالية، ولكنْ بين حضرموت آنذاك والآن.

قديمًا كانت هناك مملكة حمير الساحلية القائمة على مدينة ميفع أو سيسانيا وقنا، وكانت هناك مملكة حضرموت الداخلية القائمة على شاباتا أو شبوت. أخذ ملوك هذه الأماكن حصة أرباح كبيرة من البضائع المارة في البلاد، وكانت هناك حروب مستمرة وتغيير في السلطة. كانت هناك طبقة مثقَّفة تحتكر العلم، وكانت هناك قبائل بدوية، مثل قبيلة كندة، التي أنجبت شاعراً مثل امرئ القيس. يبدو أنَّ سُكَّانَ المُدُنِ لمْ يُنْتِجُوا شيئًا ذا قيمة فنية. كانت زراعتُهم تتمُّ بعمليَّةِ الرّي والاعتماد على السدود، وللحصول على وصف عن حياة القرية يجب أن تقرأ دراسة الآنسة كاتون طومسون. كانت حريضة (حينئذ تسمى مذاب)، قرية ريفية تقع في الضواحي الشرقية لمدينة سبأ. هل كانت البلاد تعتمدُ على الزراعة؟ الجواب بالطبع لا، بلْ كانتْ تعتمدُ على تجارة البخور. في نهاية المطاف كان الناس في مصر واليونان وروما هم من دفعُوا ثمنَ معابدِ شبوت (شبوة).

حالياً إلى الشرق من الممالك القديمة، توجد سلطنة القعيطي الساحلية، الواقعة في مدينة المكلا، والسلطنة الداخلية للكثيري الواقعة في سيئون. حكام هذه الأماكن يأخذون رسوماً ضريبية على البضائع المارَّة على مناطقهم. هناك طبقة متعلِّمة بشكل أساسي من السادة، وهناك قبائل بدوية، أحفاد القبائل البدوية القديمة، مثل قبائل الصيعر، الذين ينحدرون من قبائل كندة، أو أحفاد الحميريين والسبأيين الذين أصبحوا بَدْواً. كانت السُلالات الحاكمة حالياً بدويةً بالأمس والعكس صحيح. تمارس الزراعة الآن كما كانت تمارس من قبل، لكنْ لا يمكن للبلد الاعتماد عليها الآن أكثر مما كان يعتمد عليها في ذلك الوقت. قبل الحرب كانت جاوة وسنغافورة هي التي دفعتْ تكاليف قصور سيئون وتريم.

عندما أخذ الرومان البخور عن طريق البحر هلكت حضرموت الأولى، فتعلَّمت حضرموت الجديدة الهجرة وجلب الأموال من الخارج. على الرغم من أنهم يبنون بيوتهم مستخدمين الطين، لكنَّهم يبنون بشكل جيد للغاية، بحيث لا يمكن اعتبارهم أدنى مهارة من الحرفيين الحضارم القدماء. أظهر سقوط سنغافورة وجاوة أن حضرموت الحاضر ستهلك تماماً كما هلكت حضرموت القديمة إذا لم تستطع البلد الحصول على الأموال من الخارج.

ملاحظات المترجمين

(1) مدينة تقع في جزيرة بمبا في تنزانيا.

(2) الجزيرة الخضراء، وهي الجزيرة الثانية من أرخبيل زنجبار الواقع قبالة الساحل الشرقي لأفريقيا المطل على المحيط الهندي.

(3) قبيلة عمانية.

(4) موقع تاريخي وطني، يقع في منطقة باجامويو في منطقة بواني في تنزانيا.

(5) مستكشف ومستشرق وعسكري ومترجم إنجليزي 1821–1890.

(6) هراري ولاية في إثيوبيا.

(7) مدينة في إيطاليا.

(8) منطقة في ضواحي مدينة لندن على الضفة الجنوبية لنهر التايمز.

(9) رحَّالة وعالم متخصص في الأنثروبومترية إنجليزي. (1892–1950م) وهو أول مستشرق يعبر صحراء الربع الخالي.

(10) رحالة ومستكشف ألماني (1807–1863).

(11) مؤلف وفيلسوف روماني (61–113م).

(12) مملكة الجنيبيين أو الجنابيين (ذكرت في ا لقرن الثاني أو الأول قبل الميلاد والقرن الأول من الميلاد، وامتدت من ظفار جنوباً حتى وسط وشرق عمان شمالاً، على الشريط الساحلي وكانت تتحكم في تجارة اللبان، من حيث حصاده وتسويقه وتصديره وتجارته.

(13) بطليموس القلوذي أو كلوديوس بطليموس (87م –150م) رياضي وعالم فلك وجغرافيّ ومنجّم وشاعر.

(14) عالمة آثار إنجليزية (1888–1985) أجرتْ أبحاثاً أثرية في مصر، وعملت أيضاً في رحلات استكشافيه إلى زيمبابوي ومالطا وجنوب الجزيرة العربية.

(15) عالمة أثار إنجليزية.

(16) كاتبة ومستكشفة أمريكية (1893–1993).

(17) معبد تاريخي في محافظة حضرموت – منطقة حريضة.

(18) مدينة في محافظة حضرموت على مدخل وادي عمد.

(19) رحماني، ويعرف أيضاً باسم الرحمانية، هو عبارة عن سجل كان يستخدمه البحارة كدليل ملاحة. ويعتقد أنها تعريب لكلمة معناها بالفارسية "كتاب الطريق".

(20) الاسم القديم لمدينة عدن.

(21) وحدة قياس يونانية قديمة للأطوال والمسافات، كانت تعتمد على مقدار محيط الملاعب الرياضية في ذلك الوقت، ووفقاً للمؤرخ اليوناني هيرودوت فإن قيمة 1 ستاديون تساوي 600 قدم يوناني.

(22) مملكة تقع في بلاد البخور وتسمى بمملكة العزيلط.

(23) تسمى حالياً بئر علي.

(24) شبوة.

(25) رأس فرتك.

(26) نبي مبجَّل عند اليهود والمسيحيين (ذو الكفل).

(27) المدخل الرئيس لمدينة البتراء الأثرية في جنوب الأردن، ويسمى أيضاً وادي موسى.

(28) مدينة في الجزء الشمالي من مقاطعة غوتنغ في جنوب أفريقيا وتعد من العواصم الثلاث الرئيسة لدولة جنوب أفريقيا.

(29) إمبراطورة رومانية، وأصغر بنات الإمبراطور قسطنطين العظيم من زوجته فاوستا.

(30) واحدة من أشهر الصروح المعمارية والدينية المهيبة في ألمانيا.

(31) قاضي القضاة شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان، مؤرّخ وقاض وأديب، يعد من أعلام مدينة دمشق.

(32) ديفيد جورج هوغارث (23مايو 1862 – 6 نوفمبر 1927)، عالم آثار وباحث بريطاني.

(33) مؤرخ يوناني عاش في القرن الخامس قبل الميلاد (حوالي 484 ق.م – 425 ق).

(34) رطميدورس الإفسي، عالم أغريقي، عاش في القرن الثاني الميلادي صاحب كتاب تعبير الرؤيا.

(35) عالم جغرافيا وفيلسوف ومؤرخ يوناني (24 – 63 ق.م).

(36) مستكشف ألماني.

(37) بيرترام توماس (يونيو 1892 – ديسمبر 1950) دبلوماسي ومستكشف إنجليزي، أول غربي يعبر الربع الخالي.

74
العدد (37)
يوليو
سبتمبر
2025م

هجرة الحضارمة لأريتريا ودورهم في المجالات الاقتصادية

عبارو البحر الأحمر: الهجرة الحضرميّة، ريادة الأعمال، واستراتيجيات الاندماج في إريتريا، 1840 - 1970م

(2 - 1)

جوناثان ميران

جامعة ويسترن واشنطن، بيلينغهام، واشنطن، الولايات المتحدة الأمريكية



ترجمة: منى عمر العماري

الملخص:

تتناول هذه الدراسة الأدوار المحورية التي أدّاها الحضارم في التاريخ الاقتصادي والسياسي والديني والعمراني والفكري لإريتريا خلال القرنين التاسع عشر والعشرين؛ فقد انتقل رُوَّاد الأعمال والعمال الحضارم إلى إريتريا واستقروا فيها، وانتعشوا تحت الحكم المصري (1865– 1885م) ثم الإيطالي (1885– 1941م) في مجالات الاستيراد والتصدير، وتجارة الجملة والتجزئة، والبناء الحضري، والعقارات، والنقل، والمشاريع الصناعية الخفيفة والزراعية. كما أدّوا أدواراً مركزية كقادة في المؤسسات البلدية والتجارية، وقدموا دعماً سخياً لتأسيس وإدارة المساجد والمؤسسات التعليمية الإسلامية.

أسهم الحضارم أيضاً في تشكيل الساحة السياسية الإريترية؛ إذ برز عدد من القادة البارزين في رابطة المسلمين من أصول حضرمية؛ إذ طرحوا خطابات سياسية تأثرت بالفكر الإسلامي الإصلاحي، والتيارات القومية العالمية، إضافة إلى الأيديولوجيات المرتبطة بالإصلاح الاجتماعي والتعليم والتقدم. ومع ذلك، فقد أدت السياسات القومية الطائفية، وتشديد الرقابة على تدفقات العملة الدولية، والحد من حركة التنقل عبر الحدود الوطنية الجديدة بحلول منتصف القرن العشرين، إلى تقويض الحضور الحضرمي في إريتريا، وإضعاف شبكاتهم الاقتصادية والاجتماعية والثقافية العابرة للحدود. فقد أدّت هذه التغيرات إلى تقليص قدرة الحضارم على التنقل، وتحجيم نفوذهم الاقتصادي، ومحدودية مشاركتهم في الحياة العامة، مما أسهم تدريجيًا في تهميش دورهم التاريخي في البلاد. وعلى الرغم من هذه التحديات، ظل تأثير الحضارم واضحًا في بعض المجالات، ولا سيما في الذاكرة الجماعية للمجتمعات المحلية وفي بُنى الحياة الحضرية والدينية والتعليمية في إريتريا.

الهجرة الحضرميّة العابرة للحدود في البحر الأحمر والمحيط الهندي: شبكة من المجتمعات:

في مدى العقدين الماضيين، أنتجت الأبحاث المتعلقة بالشتات الحضرمي حول حافة المحيط الهندي دراسات مهمة، تناولت تاريخ الحضارم ومكانتهم وأدوارهم في سياقات متنوعة، تمتد من شرق إفريقيا إلى جنوب شرق آسيا[1]. وتُظهر هذه الدراسات مجتمعةً أن المهاجرين من منطقة حضرموت جنوب الجزيرة العربية شكّلوا مجتمعًا عابراً للمحليات، يتميز بالحركة والمرونة والقدرة على التكيّف، وعلى الرغم من عددهم المحدود نسبيًا، غير أنهم قد أثبتوا نجاحًا ملحوظًا في مجالات التجارة والدين والسياسة في فترات وسياقات مختلفة[2]. ورغم أن الحضارم في شرق إفريقيا حظوا ببعض الاهتمام الأكاديمي، لكن وجودهم في منطقة القرن الإفريقي، وتحديداً في الأراضي الصومالية وإثيوبيا وإريتريا وجيبوتي، لم يحظَ بالدراسة الكافية حتى الآن[3].

تَظهر أسماء الأفراد والعائلات ذات الأصول الحضرمية كعناصر بارزة في التاريخ الاقتصادي والسياسي والديني والفكري لإريتريا خلال القرنين الماضيين. تميّز الحضارم الناجحون في إريتريا كرُوَّاد في عالم الأعمال، ورعاة وداعمين، وقادة بلديين ومجتمعيين، ومتخصصين دينيين، وناشطين سياسيين وطنيين مؤثرين، على غرار أدوارهم في مجتمعات أخرى على امتداد حافة المحيط الهندي، وبطريقة قد تبدو غير متناسبة مع حجمهم العددي الإجمالي. كما نجح الحضارم في تجميع رأس المال وتنويعه وتحويله لبناء النفوذ وتعزيز مكانتهم، من خلال ما امتلكوه من مرونة استثنائية، وقدرة على التكيّف، ومهارات فردية، إضافة إلى الروابط المشتركة والقيم الأخلاقية التي تجمعهم. وقد تمكنوا بذكاء من التنقل بين مختلف الدوائر الاقتصادية والسياسية المحلية والإقليمية والعالمية، وتكيّفوا بمهارة مع تعاقب القوى التي حكمت إريتريا، بدءاً بالإمبراطورية العثمانية (حتى عام 1865م)، ثم مصر الخديوية (1865–1885م)، فإيطاليا (1885–1941م)، ثم بريطانيا العظمى (1941–1952م)، وأخيراً إثيوبيا (1952–1991م).

وإذا كان من المناسب تناول هذا الموضوع من منظور الكيان السياسي والإقليمي الذي أصبحت عليه إريتريا في أواخر القرن التاسع عشر، فإن دور الحضارم في المنطقة الإريترية يستحق أيضًا أن يُنظر إليه من زوايا أوسع.

كانت الهجرة النشطة للحضارم إلى هذه المنطقة نتيجة من نتائج التحوّلات الواسعة في الاقتصاد السياسي للبحر الأحمر، والتي أعقبت ما يُعرف بـ"ثورة النقل"، أي إدخال الملاحة البخارية في ثلاثينيات القرن التاسع عشر وافتتاح قناة السويس في عام 1869م. وإذا ما اعتمدنا على فهم سوجاتا بوز* لمفهوم المحيط الهندي باعتباره "ساحة بين إقليمية"، فإن ثورة النقل وما ترتب عليها من آثار اقتصادية وسياسية يمكن اعتبارها من العوامل الحاسمة في إعادة ترتيب التكوينات والعلاقات الخاصة داخل الساحات الإقليمية في ضمن هذا الفضاء المائي، وكذلك بين هذه الساحات المختلفة[4]. استقر رُوَّاد الأعمال الحضارم في معظم موانئ البحر الأحمر وخليج عدن، وأدّوا دوراً محوريًا في نسج شبكات متنوعة من الأعمال والعمالة والنقل، ما أسهم في خلق فضاء ديناميكي للتبادل والتفاعل. وقد عملوا ضمن شبكات إقليمية وبين إقليمية وعابرة للمحليات في منطقة جنوب البحر الأحمر، وفي إطار نظام شتاتي أوسع يربط الحضارم في مختلف مناطق المحيط الهندي.

حدثت الهجرة الحضرمية إلى إريتريا على مدى فترة زمنية طويلة، وتضمنت موجات واضحة من الهجرة إلى جانب تحركات أكثر عشوائية. فبعض المهاجرين قَدِمُوا واستقرُّوا استقراراً دائمًا، في حين كان البعض الآخر من رجال الأعمال العابرين أو العمال اليدويين الذين أقاموا لفترة قصيرة لا تتجاوز بضع سنوات؛ إذ حافظوا على روابط

محدودة وغير دائمة مع إريتريا قبل انتقالهم إلى مواقع أخرى ضمن الشتات الحضرمي الممتد. وكان الوجود الحضرمي في إريتريا يكاد يقتصر على ميناء مصوّع حتى العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر 480، حيث تمركز التجار وروّاد الأعمال في إطار التكوينات الشبكية الجديدة التي كانت تتبلور في منطقة البحر الأحمر المتغيرة بسرعة. ومع مطلع القرن العشرين، وبالتزامن مع ترسيخ الوجود الاستعماري الإيطالي في إريتريا وإنشاء العاصمة الجديدة في المرتفعات الداخلية (أسمرا)، أعاد بعض الحضارم تنظيم حياتهم وأعمالهم ومشاريعهم سواء كانت اقتصادية أو دينية أو سياسية بما يتماشى مع هذا الكيان الإقليمي والسياسي الجديد.

ليس من المستغرب أن تكون النخب الحضرمية من السادة، والأثرياء، والناجحين الجدد أكثر حضوراً في السجلات التاريخية. ويمكن قراءة هذه الدراسة بأنها سيرة جماعية لمجموعة من الأفراد والعائلات الحضرمية الناجحة إلى حدٍّ ما. ومع ذلك، لا ينبغي لهذا التوجه أن يحجب حقيقةَ أنَّ جميع الحضارم في إريتريا لم يتركوا أثراً مماثلاً في الوثائق التاريخية، كما أنهم لم يشكّلوا في أي وقت من الأوقات جماعة متجانسة أو مترابطة بشكل وثيق. ويعزى ذلك إلى كون بعضهم منتمين إلى أعلى طبقات المجتمع الحضرمي، في حين جاء آخرون من الطبقات الدنيا ضمن التسلسل الاجتماعي[5]. وبشكل عام، كانوا أفراداً منحدرين من إقليم واحد، هو حضرموت، لكنهم كانوا متنوعين في المكانة الاجتماعية والوضع الاقتصادي، وتفاوتت علاقاتهم مع مجتمعات شمال شرق إفريقيا بين التعايش والانخراط بدرجات وأساليب مختلفة[6].

من القيود التي تعتري النقاشات حول الاندماج والانصهار الاجتماعي والثقافي، الميل إلى الافتراض المسبق بأن كيانات ثقافية واجتماعية متميزة وثابتة قد اندمجت أو انصهرت مع كيانات مماثلة أخرى. إن مثل هذه الافتراضات الجوهرية تبدو غير منطقية في البيئة الديناميكية سياسيًا واجتماعيًا وثقافيًا التي تميزت بها منطقة حافة المحيط الهندي، حيث كانت المدن الساحلية والموانئ تخضع لتحولات وتشكّلات اجتماعية وثقافية كبرى بين منتصف القرن التاسع عشر ومنتصف القرن العشرين. وإذا أخذنا مدينة مصوّع في أواخر القرن التاسع عشر كمثال، يمكن القول إن المهاجرين الحضارم، في سعيهم لترسيخ وجودهم المحلي، شاركوا بنشاط إلى جانب جماعات أخرى في تشكيل الطابع السياسي والاجتماعي والثقافي المميز لتلك البيئة الحضرية متعددة الثقافات. فقد أدَّى الحضارم دوراً محورياً في إنتاج أنماط حضرية وحداثية دولية في عالم المحيط الهندي[7]. وكان نطاق الهويات التي يمكن أن يعبّر عنها الأفراد المنحدرون من حضرموت في إريتريا مشروطًا بعوامل عدَّة سياسية وثقافية؛ إذ كانت تشكيلات الهوية مختلفة، ووظيفية، ومرنة في الغالب، تتشكل عبر جدلية الوضعيات الذاتية من جهة، والتصورات والتسميات الخارجية، التي كانت سياسية أو ذات جذور سياسية، من جهة أخرى. فقد يستخدم الشخص الواحد مؤشرات هوية مختلفة مثل (حضرمي)، (عربي)، (مسلم)، (عربي- إريتري)، (إريتري)، أو (مصوّعي) حسب السياق والغرض. وبالطبع، كانت هذه الهويات تتغير بمرور الزمن. فعلى سبيل المثال، وكما أشارت أولريكه فرايتاغ**، يمكن اعتبار أن (الحضرميّة) لدى السادة لم تكن سوى جانب واحد من هويتهم، غالبًا ما كان يُعبَّر عنه في سياق انتمائهم الديني [8]. ولذا لا أهدفُ في هذه الدراسة إلى نسب أي فهم تبسيطي أو ضيق للهوية إلى الفاعلين الرئيسيين فيها. إنني أستخدم مصطلح (حضرمي) بمعناه الأوسع والأشمل، للدلالة على الأشخاص الذين هاجروا من حضرموت، أو الذين ينحدر أسلافهم من حضرموت إلى إريتريا.

المهاجرون، ورُوّاد الأعمال التجاريون، والوسطاء الاستعماريون:

ترجع العلاقة التاريخية بين المناطق اليمنية والإريترية إلى عصور موغلة في القِدم؛ فقد كانت السلع والناس والأفكار والممارسات الثقافية تنتقل بين هاتين المنطقتين منذ ما قبل العصر الإسلامي. ولا تزال آثار هذه الروابط بين حضرموت والساحل الإريتري واضحة في أسماء الأماكن والبيئة المعمارية في منطقة مدينة مصوّع الكبرى، حيث توجد مساجد سُمِّيت بأسماء علماء دين وأولياء حضارم بارزين. فعلى سبيل المثال، تُعرَف جزيرة الشيخ سعيد الصغيرة وغير المأهولة، والتي تُعرَف اليوم باسم "الجزيرة الخضراء"، بمسجدها الذي سُمِّي تيمُّنًا بالشيخ سعيد بن عيسى العمودي (توفي عام 1272م)، وهو ولي صوفي ومؤسس النسب العمودي في وادي دوعن. وهناك مساجد أخرى سُميت بأسماء أولياء بارزين من جنوب الجزيرة العربية، مثل عبد الله أسعد اليافعي (1298–1367م) وإسماعيل الحضرمي (توفي عام 1298م)، الذي كان عالمًا مرموقًا في الفقه الشافعي، وأستاذاً لعدد من فقهاء شمال شرق أفريقيا الذين نشروا الإسلام في تلك المنطقة [9].

رغم أن الضغوط السكانية والمجاعات والفيضانات والاضطرابات السياسية في جنوب الجزيرة العربية كانت تدفع بالمهاجرين إلى مغادرة حضرموت على نحو متقطع لقرون طويلة، لكنَّ الكُتّاب العرب سجّلوا هجرة كبيرة للحضارم وغيرهم من العرب إلى منطقة القرن الأفريقي في النصف الأول من القرن السادس عشر. وقد ارتبط هذا السياق مباشرة بالجهادات الإسلامية ضد (إثيوبيا المسيحية)، وهي الحملات التي جذبت علماء حضارم، وأولياء، ومجاهدين من الجزيرة العربية رأوا في المشاركة فيها واجبًا دينيًا في سبيل توسيع حدود دار الإسلام. وكان عدد من هؤلاء ينتمون إلى أنساب تعود إلى النبي محمد ﷺ (السادة، الأشراف)، ومن ثم كانوا يتمتعون بحق عرفي في الحصول على نصيب مميز من الغنائم (الخُمس، أي الخُمس من الغنيمة)، وكانوا يرون في أنفسهم الورثة الطبيعيين للمناصب الدينية في الأراضي التي تخضع للحكم الإسلامي. غير أن الفتوحات الإسلامية في مرتفعات إثيوبيا لم تدم طويلاً، وبعد الهزيمة، اختار كثير من الحضارم عدم العودة إلى موطنهم الفقير، واستقروا بدلاً من ذلك في عدد من مدن الموانئ في شمال أفريقيا وشرقها؛ إذ أكسبتهم مكانتهم الدينية و(البركة) مواقع مؤثرة، مثل مناصب القضاة وأئمة المساجد [10]. وتُجسّد شجرة النسب لعائلة الحيّوتي الإريترية الحالية (من سلالة آل الحبشي) هذا النمط. فهذه الأسرة من السادة الذين تعود أصولهم إلى مدينة تريم في حضرموت، ويُعد مؤسس السلالة هو المقدّم محمد (توفي عام 1255م)، الذي يُعتقد أنه أدخل التصوف إلى حضرموت ويُعد مؤسس الطريقة العلوية الصوفية. وتُظهر الوثيقة أن أول أجداد آل الحيّوتي الذي استقر في مصوّع (ربما قادمًا من زيلع حيث تُوفي جده) كان شيخان بن حسين بن علي، وذلك حوالي عام 1552م (960 هـ)، أي بعد أقل من عقد من وفاة القائد الشهير أحمد بن إبراهيم الغازي (نحو 1506–1543م)، المعروف باسم أحمد "غرّان" (أي "الأعسر") [11].

رغم أن الوجود الحضرمي في مدينة مصوّع ظل قائمًا بشكل مستمر منذ القرن السادس عشر، غير أن الوثائق المتوافرة عن هذا الوجود نادرة للغاية قبل منتصف القرن التاسع عشر. وتشير السجلات التاريخية الضعيفة إلى أن الحضور الحضرمي المبكر كان في الأرجح يقتصر على السادة وغيرهم من أفراد الطبقات العليا في المجتمع الحضرمي. ومن الأمثلة الجديرة بالاهتمام حالة تعود إلى منتصف القرن الثامن عشر تقريبًا، حين تزوّج أحد أفراد أسرة آل باعلوي في مصوّع من سيتّل، ابنة النائب عثمان أمير (حكم بين 1741–1781م)، المنتمي إلى السلالة الساحلية

من الزعماء المحليين. وانتقل الزوجان إلى البر الرئيس، الأكثر اعتدالاً في الحرارة وفقًا للتقليد المحلي، حيث أسّسا قرية أُمكُلّو. وتكشف هذه الحالة عن صعود الحضرميين في المشهد الحضري الساحلي، وكذلك عن استراتيجياتهم في الاندماج وبناء النفوذ؛ إذ دخل أحد أفراد نخبة السادة في علاقة مصاهرة مع الأسرة البلوية الحاكمة من خلال الزواج بابنتهم، وهي السلالة التي كانت تسيطر على مناطق واسعة من شرق إريتريا وشمالها. وتشير هذه الحالة إلى وجود استراتيجيات زواج خارج الجماعة، كما تدل على مرونة قواعد الكفاءة الاجتماعية أو الزواج الداخلي لدى الحضارم عندما تكون هناك مكاسب محتملة يُمكن تحقيقها[12].

ازدهار البحر الأحمر، بناء رأس المال وصناعة مصوّع (1840 إلى العقد الأول من القرن العشرين):

شهد البحر الأحمر تحوّلات جذرية بدأت في العقود الأولى من القرن التاسع عشر. فقد أدى إدخال الملاحة البخارية وافتتاح قناة السويس إلى توسّع تجاري كبير، تميز بتزايد تدفق السلع والعمالة والمعرفة التجارية والخدمات عبر المنطقة على نطاق عابر للأقاليم. وقد مكّنت تكنولوجيا السفن البخارية من تجاوز نظام الرياح الفريد، الذي كان يقسّم البحر الأحمر سابقًا على مجالين شبه منفصلين للملاحة والتجارة، وأسّست لدور هذا الحوض كطريق مائي مميَّز يربط بين البحر الأبيض المتوسط والمحيط الهندي. وأسهمت هذه العملية كذلك في إعادة تشكيل تراتبية الموانئ وشبكات التجارة، وأطلقت أنماطًا جديدة من الحركة والتنقّل، بما في ذلك الحركة النشطة المرتبطة بالحج الإسلامي إلى مكة المكرمة. وقد تكيّفت شبكات الشحن التجارية العربية والهندية المتنافسة بسرعة مع التكوين الجديد للبحر الأحمر، الذي وعد بتحقيق ثروات جديدة للمبادرين التجاريين[13].

هاجر التجّار وغيرهم من رُوَّاد الأعمال التجاريين إلى مدن الموانئ الواقعة على البحر الأحمر، وأسهموا في تطوير مراكز حضرية دولية جديدة و(حديثة)، ذات طابع اجتماعي وثقافي معقّد. وقد شهدت الهجرة الحضرمية إلى منطقة البحر الأحمر نمواً سريعًا، وبرزت في البداية وربما بشكل أكثر وضوحًا في مدينة جُدَّة، التي كانت المنفذ التجاري الدولي الأهم في هذا الحوض البحري. كما سارع الحضارم إلى الانتشار في موانئ تهامة، مثل الحديدة، واللُّحيَّة، والقنفذة، وكذلك في عدن، وموانئ الساحل الإفريقي، وعلى رأسها سواكن ومصوّع. وعلى الرغم من وجود بعض الحضرميين في مصوّع في أوائل القرن التاسع عشر، لكنَّ التدفق الكبير إلى هذه المدينة الساحلية لم يبدأ فعليًا إلا في أربعينيات وخمسينيات القرن نفسه؛ إذ أورد تقرير بريطاني وجود 23 تاجراً حضرميًا في مصوّع في عام 1858م، في حين أشار تقرير آخر عام 1865م وهو العام الذي تولّى فيه الخديوي إسماعيل حكم الميناء الإرتري من العثمانيين، غير أن الحضرميين والهنود كانوا يهيمنون على التجارة في المدينة. وتشير أدلة تعود إلى منتصف القرن إلى أن بعض الحضرميين العاملين في مصوّع (مثل آل با جنيد) كانوا منخرطين في تجارة الرقيق، سواء كناقِلين بحريين أو ربما كتجّار، وإن كانت التفاصيل المتاحة عن ذلك محدودة للغاية. ويبدو أن المرسوم العثماني الصادر عام 1857م والذي حظر تجارة الرقيق الأفارقة، قد قوبل بمقاومة من قِبل تجّار حضرميين في مصوّع، شاركوا بحماس في تمرُّد محلي ضد السلطات عام 1858م[14].

أدّى إعادة ترتيب هياكل الموانئ، وشبكات الشحن، وأنماط التجارة، إلى انتقال بعض الحضرميين إلى مدينة مصوّع من موانئ أخرى على البحر الأحمر، وليس مباشرة من حضرموت. وينطبق هذا مثلاً على محمد سالم باطوق (العمودي) (نحو 1843–1935م)، الذي وُلد في جُدَّة لأب حضرمي وأم مصرية، ممثّلاً إلى حدّ ما نموذج

(إنسان البحر الأحمر) الجديد في منتصف القرن التاسع عشر. انتقل مع والدته إلى مصوّع في فترة مراهقته المبكرة، ودخل مجال تجارة الأقمشة من خلال زواج يُحتمل أنه كان مفصليًا من ابنة أكبر تاجر أقمشة في مصوّع آنذاك، عبدالنبي القَبولي. وقد تمكّن محمد سالم من تجميع قدر كبير من رأس المال في طريقه ليصبح أحد أغنى مواطني المدينة.

انتقل بعض الحضرميين إلى مصوّع مباشرة من حضرموت بين خمسينيات وثمانينيات القرن التاسع عشر. وغالبًا ما كانوا يصلون وهم في سن المراهقة، وبشكل فردي، ثم يجلبون أفراد أسرهم إلى إريتريا بعد أن يحققوا استقراراً ماليًا نسبيًا. وكان الأبناء، والإخوة، وأبناء العم، وأبناء الأخ، الذين يُجلبون إلى إريتريا – وغالبًا لا يزالون مراهقين – ينضمون إلى أعمال تجارية عائلية الطابع. وقد انخرط بعض الحضرميين في عمليات استيراد وتصدير، وتاجروا في الأقمشة، والحبوب، والجلود، والبُن، ومنتجات بحرية متنوعة، في حين بدأ آخرون من الصفر، وعملوا كباعة متجوّلين، وحمّالين، وعمّال أرصفة، وفي وظائف يدوية بسيطة أخرى. وتُظهر قصص عدَّةٌ نجاح نوع الفرص التي وفّرها هذا الازدهار التجاري للأفراد الطموحين والمجتهدين وذوي الحظ. ومن أبرز هذه القصص، قصة عبيد بن أحمد بن عبدالله باحبيشي (1871–1934م)، الذي وُلد في وادي دوعن بحضرموت، ووصل إلى مصوّع عام 1886م، وبدأ عمله كبائع متجوّل يبيع التبغ والبهارات في الشوارع. وخلال سنوات قليلة، تمكّن من توسيع أعماله التجارية في التوزيع والتسويق، وجمع رأس مال مكّنه لاحقًا من امتلاك عقارات كبيرة. وقد وصفه شهود في مصوّع بأنه مثال على قصة "من الفقر إلى الثراء"؛ إذ انتقل من بائع متجوّل بسيط إلى مالك عقارات بارز [15].

شهدت مدينة مصوّع نمواً وتطوراً ملحوظين في ظل الحكمين المصري والإيطالي، أتاح ذلك فرصًا في مجالات الاستيراد والتصدير، وتجارة الجملة والتجزئة، وصرافة الأموال، والشحن البحري. ويُظهر دليل تجاري خاص بتجّار ومؤسسات مصوّع يعود إلى عام 1912م وجود 31 اسمًا حضرميًا يمكن تمييزه، منهم 20 مقرُّهم في جزيرة مصوّع، والبقية في ضواحي المدينة وأطرافها. ويُبيّن الدليل أن أبرز الحضرميين الناجحين اقتصاديًا مثل باطوق، والصافي، وباجنيد، وباحمدون، وبامشموس، وبازرعة كانوا يتاجرون في اللؤلؤ، وأصداف اللؤلؤ، والجلود، والأقمشة، والدخن. وكانوا ينافسون بقوة التجّار الهنود من طائفة البانيان، الذين كانوا أيضًا بارزين في تجارة هذه السلع. وتشير البيانات إلى أن نحو نصف الحضرميين المدرجين في الدليل كانوا يتاجرون في الدخن، في حين تاجر عدد آخر في الذرة، والتوابل، والتمر، والعطور، والمواد الغذائية، والبقالة. كما سُجّل اثنان يعملان كـ "سماسرة"، وواحد كجزار [16]. لكن لم يكن جميع الحضرميين في إريتريا من التجّار. فقد لاحظ تقرير إيطالي استعماري من عام 1895م أن الحمالين القادمين من جنوب الجزيرة العربية حلّوا تدريجيًا، خلال السنوات السابقة، محلّ الحمالين الإريتيريين المحليين العاملين في القوافل. وتضمنت قائمة مرفقة بالتقرير، تضم 44 حمّالاً يعملون لدى السلطات الإيطالية، في الأقل ثمانية أو تسعة أسماء (حوالي 20٪) يمكن تمييزها بسهولة كأسماء حضرمية، وكانوا قد بدأوا العمل في أواخر ثمانينيات القرن التاسع عشر وأوائل التسعينيات منه [17].

شهدت مدينة مصوّع ازدهاراً في قطاع البناء والعقارات منذ سبعينيات القرن التاسع عشر. واتّبع الحضرميون الذين نجحوا اقتصاديًا نمطًا مألوفًا، يتمثل في تنويع استثماراتهم من خلال تملّك العقارات، كما هو الحال في مناطق أخرى ضمن نطاق المحيط الهندي. كما تُظهر سجلات المعاملات العقارية الموثّقة في المحكمة الشرعية الإسلامية في مصوّع كيف استحوذ أفرادٌ من عائلتي باجنيد وبازرعة – وهم من كبار مستوردي الأقمشة ومصدّري البن والعاج – على عدد كبير من المحلات التجارية، والمنازل، وقطع

الأراضي في المدينة بين أواخر ستينيات القرن التاسع عشر وأواخر الثمانينيات منه [18].

بينما توحي هذه الملكيات العقارية الواسعة بأن الحضرميين (اشتروا المدينة)، فإن الأرقام السكانية التي تعكس التدفق اللافت للمهاجرين الوافدين من الخارج تشير إلى أن الحضرميين وسواهم من العرب (استحوذوا) عليها فعلياً؛ فبيانات التعداد السكاني تظهر أن عدد السكان المصنّفين "عرباً" في مصوّع قد تضاعف تقريباً ثلاث مرات، من 358 نسمة في عام 1886م إلى 924 نسمة في عام 1910م، من أصل مجموع سكاني مقداره 4,335 نسمة. وتُظهر هذه البيانات أن في عام 1910م، كانت 37 من أصل 83 عائلة مقيمة في جزيرة مصوّع -أي نحو 45٪ -تعود أصولها إلى شبه الجزيرة العربية (منها 12 عائلة من حضرموت، و11 من الحجاز، و14 من جيزان واليمن)[19]. ومن المؤكّد أن بعض الأفراد المصنّفين تحت (الحجاز) كانوا في الواقع من أصول حضرمية.

وقد بذلت السلطات الاستعمارية المصرية ثم الإيطالية جهوداً كبيرة لجعل مستعمراتها في منطقة القرن الإفريقي ذات جدوى اقتصادية، منتجة، ومربحة. ومن هذا المنطلق، فقد اعتبرت الحضرميين وسائر التجار العرب البارعين شركاء تجاريين متميّزين، يُسهِمون في تحقيق تلك الأهداف الاقتصادية. كما أن الخيال الاستشراقي لدى النخبة الاستعمارية الإيطالية صنّف الحضارم - بوصفهم عرباً ومسلمين- كمنتمين إلى حضارةٍ تُعَدُّ، في نظرهم، أرقى من الحضارات الإفريقية المحلية [20]. ونتيجة لذلك، فإنَّ كثيراً ما صُنّف العرب (إلى جانب الهنود والأتراك) في تعدادات سكان مصوّع ضمن الفئة القانونية الاستعمارية المعروفة بـ (المستوعَبين)، وهي فئة قانونية استعمارية إيطالية، تشير إلى الأفراد المنتمين إلى (حضارات) تشبه (أو تطمح إلى أن تشبه) الحضارة الأوروبية.

وحرص الحضارم، من جهتهم، على بناء علاقات جيدة مع الإدارات الاستعمارية. فقد حقق بعضهم، مثل محمد سليم با طوق، ثروات طائلة من خلال تزويد القوات الاستعمارية الإيطالية بإمدادات حيوية، مثل المواد المعدنية والماشية. كما أشار الحاكم الإيطالي فرديناندو مارتيني في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر (1897–1907م) إلى أن كبار تجار مصوّع كانوا يأتون إليه في مناسبات متعددة لمناقشة الأوضاع التجارية، وكانوا يتقدمون بمطالب لتحسينها، من بينها خفض الرسوم الجمركية على الواردات. وفي عام 1900م، قدموا أيضاً التماساً لتحويل مصوّع إلى منطقة حُرَّة ذات أنظمة جمركية مخففة؛ ليساعدها على مواجهة المنافسة القادمة من جيبوتي [21]. شغل بعض الحضارم وظائف في الإدارات الاستعمارية، بما في ذلك مناصب تتعلق بالشؤون السياسية. فعلى سبيل المثال، عمل حسن أحمد حيّوتي (1850–1939م) سكرتيراً للبعثة المصرية التي تفاوضت في أسمرة مع رأس ألولا، بعد معاهدة هيويت عام 1884م، بشأن شروط رفع الحصار الذي فرضتْه قوات الدراويش على القوات المصرية في كسلا [22].

أسّس عدد من رجال الأعمال الحضارم المقيمين في مصوّع علاقات تجارية ورعاية مع المنتجين والمورّدين في المناطق الداخلية. فقد نظّم محمد سالم باطوق قوافل وأرسلها إلى قوندار لشراء البضائع، في حين موّل أحد أفراد عائلة بازرعة المدعو (عبد الجيلين) (على الأرجح خطأ في كتابة الاسم) في كرن برأس مال لشراء المواشي والأراضي [23]. وفي أواخر القرن التاسع عشر، امتلك محمد عمر بازرعة عدداً من المراكب، وكان أحدها في الأقل يعمل بين مصوّع وسواكن. وأنشأ أفرادٌ من عائلة بازرعة شركات استيراد وتصدير في كل من أديس أبابا، ودسي، وجيبوتي في أوائل القرن العشرين [24]. واستطاع كل من بازرعة وباطوق السيطرة على عمليات تجارية تربط مناطق في إريتريا وإثيوبيا بشبكات الشحن والتجارة الحضرمية واسعة النطاق في هذه الحالات.

أدّى الحضارم دوراً مهمًا في عمليات الشحن البحري من ميناء مصوّع؛ إذ تُظهر قوائم المراكب المسجلة في مصوّع عامي 1901 و1908م أن كلًّا من باجنيد، وباطوق، وباعلوي، وصافي، وباحمدون كانوا من بين كبار مالكي السفن في الميناء[25]. وكانت غالب هذه المراكب من نوع السنبوك، وتُستخدم لنقل البضائع عبر البحر الأحمر، إضافة إلى عمليات الغوص لاستخراج اللؤلؤ في أرخبيل دهلك. ولا شك أن بعض هذه المراكب استُخدم في أنشطة غير قانونية، مثل تهريب العبيد واللآلئ غير المصرَّح بها. ويُعَدُّ محمد سالم باطوق أحد أبرز رُوَّاد الشحن البحري في مصوّع؛ إذ امتلك خمس سفن، وبتفويض من الإدارة الاستعمارية، بدأ في نقل الحجاج المسلمين، وكان كثيرٌ منهم من (التكرور) القادمين من غرب إفريقيا عبر البحر الأحمر إلى موانئ تهامة والحجاز. كما قام باطوق بشراء 20 مركبًا من نوع السنبوك، ووسّع نطاق هذه الخدمة في عام 1915م[26].

إن الجهود الإيطالية لتعزيز التجارة الإريترية مع اليمن وشبه الجزيرة العربية من جهة، وتزايد رغبة السلطات في السيطرة على الفضاء والتنقل، ولا سيما تحركات مَنْ وصفتْهم السلطات الاستعمارية بـ (الرعايا المسلمين الخطرين المحتملين) من جهة أخرى، أدّت إلى إطلاق مبادرة لتنظيم خدمات الشحن البحري انطلاقًا من ميناء مصوّع بشكل أكبر. حيث تم تأسيس شركة مشتركة خاصة إيطالية– مصوّعية تُدعى(الشركة البحرية الإريترية (Società)) Marittima Eritrea في عام 1916م، كان هدفها توفير خدمات النقل البحري بالبواخر لتعزيز التجارة مع سواحل شبه الجزيرة العربية، وكذلك نقل الحجاج المسلمين عبر البحر الأحمر. وقد تم تمويل هذه المبادرة من خلال رؤوس أموال إيطالية ومحلية من مصوّع، وكان من بين المساهمين الستة من سكان المدينة اثنان من الحضارم. وواصلت الشركة عملها لسنوات عدَّة إلى أن انهارت أمام منافسة الشركات الإيطالية الخاصة، فأدى إلى تصفيتها في عام 1921م[27]. واصل محمد سالم باطوق تشغيل خدمات النقل الخاصة به حتى وفاته في عام 1935م، ثم تولّى ابنه حسن محمد باطوق إدارة الأعمال لسنوات عدَّة. وفي عامي 1948 و1951م، وخلال فترة الإدارة العسكرية البريطانية (BMA)، حاول حسن محمد مرتين إحياء المشروع من خلال التقدم بطلب رسمي للسماح له بشراء قوارب جديدة تعمل بمحركات. غير أن السلطات البريطانية رفضت طلبه، مفضّلة توجيه الحجاج إلى ميناء سواكن لاجتياز البحر إلى جدة[28].

من الأمثلة الأخرى على المشاريع الريادية التي نُفذت بالتعاون مع الحكومة الاستعمارية، تلك المرتبطة بمجال الزراعة. فقد شارك عدد من الحضارم في جهود مشتركة مع السلطات الاستعمارية الإيطالية لتطوير الإنتاج الزراعي في المناطق الساحلية شمال مدينة مصوّع. حصل السيد حسن محمد الصافي على امتياز لزراعة 300 هكتار من الأراضي في منطقة ويقيرو في عام 1905م، في حين حصل محمد سالم باطوق في عام 1908م على امتياز آخر بمساحة 906 هكتارات في المنطقة نفسها وللغرض نفسه. وكان الصافي رائداً استثنائيًا في مجال ريادة الأعمال؛ إذ قام بتطوير أنظمة ري مبتكرة لزراعة التبغ، والقطن، والدخن الرفيع (المعروف محليًا بـ"بلتكbultuk – ")، والقمح، والذرة (granturco)، والدخن (dura). وقد استأجر الصافي فلاحين وعمالاً زراعيين من اليمن، كانوا قد فرّوا نتيجة للاضطرابات السياسية التي أعقبت صعود الإمام الزيدي يحيى محمد حميد الدين إلى السلطة في عام 1904م. وأُطلق على هؤلاء العمال اسم (برّع عرب) أي (العرب الغرباء) من قِبل سكان السواحل، وقد عملوا في مزارع ويقيرو وأسّسوا قريتي دبّت وربربت. وقد اعترفت السلطات الاستعمارية الإيطالية بإنجازات الصافي ومنحته جوائز تقديرية على مبادراته خلال المعرض الدولي الذي أُقيم في مدينة ميلانو عام 1925م[29].

ملاحظات:

أود أن أشكر المراجعين وهم الجنود المجهولون للمجلة وكذلك كيمبرلي لين على التعليقات والاقتراحات المفيدة. كما أوجه الشكر لجوزيف فينوسا، ماسيمو زاكاريا، وكريستين سميث-سيمونسن على مشاركتهم المصادر التي كانت جميعها ذات قيمة كبيرة لهذه الدراسة.

---

* سوجاتا بوز: مؤرخ وسياسي هندي، يشغل منصب أستاذ للتاريخ بجامعة هارفارد بالولايات المتحدة الأمريكية.

** أ.د. أولريكة فرايتاج: هي مؤرخة ومستشرقة ألمانية وباحثة في التاريخ الإسلامي ومديرة مركز الشرق الحديث في برلين.

المراجع:

1) Ahmad Ibrahim Abushouk and Hassan Ahmad Ibrahim (eds.), The Hadhrami Diaspora in Southeast Asia: Identity Preservation or Integration? (Leiden and Boston: Brill, 2009); Ulrich Freitag, Indian Ocean Migrants and State Formation in Hadhramaut: Reforming the Homeland (Leiden: Brill, 2003); Ulrich Freitag and William G. Clarence-Smith (eds.), Merchants, Scholars, or International Men? Hadhrami Migrants in the Indian Ocean World, 1750s-1960s (Leiden: Brill, 1997); Inge Seng Ho, Tombs of Tarim: Genealogy and Mobility in the Indian Ocean (Berkeley: University of California Press, 2006); Nico Kaptein and Hoeb De Jong (eds.), Crossing Borders: Arabs, Politics, Trade, and Islam in Southeast Asia (Leiden: KITLV Press, 2002); Natalie Mobini-Kesheh, The Awakening of the Hadhrami: Community and Identity in the Netherlands East Indies 1900-1942 (Ithaca, New York: Southeast Asia Program Publications, Cornell University, 1999).

2) On the concept of "translocality" as a framework of connections, exchanges, and transfers that transcend the local but not necessarily on a global scale, and on the diverse spaces and arenas these connections shape, see Ulrich Freitag and Achim von Oppen, "Introduction: 'Translocality': An Approach to Connection and Transformation in Area Studies," in Translocality: The Study of Global Processes from a Southern Perspective, ed. Ulrich Freitag and Achim von Oppen (Leiden and Boston: Brill, 2010), 1-21.

3) Among the few studies on Yemenis and Hadhramis in Ethiopia and the Horn of Africa, see: Hussein Ahmed, "A Brief Note on the Yemeni Arabs in Ethiopia," in Proceedings of the Thirteenth International Conference of Ethiopian Studies, ed. Katsuyoshi Fukui, Issei Kori Moto, and Masayoshi Shigeta (Kyoto: Shokado Book Sellers, 1997), 1:339-348; Hussein Ahmed, "Archival Sources on the Yemeni Arabs in Ethiopian Urban Settings: The Dessi Municipality," History in Africa 27 (2000): 31-37; Leif Manger, The Hadhrami Diaspora: Community Building on the Indian Ocean Rim (New York and Oxford: Berghahn, 2010), 65-105; Alan R. Rowe, "The Yemeni Migration," in Arabian Peninsula, History and Civilization, Volume 2, Yemeni Society from Migration to Modern Ideologies, ed. Joseph Schlohod (Paris: Mais Soffie and Larose, 1984), 229-237.

4) Sugata Bose, A Hundred Horizons: The Indian Ocean in the Age of Global Empire (Cambridge, Massachusetts: Harvard University Press, 2006).

5) The social structure of Hadhramaut distinguishes six stratified categories: Sada, Sheikhs, Tribes, Hadhrami Poor, Weak Poor, and Slaves. Walter Dostal, "The Saints of Hadhramaut," in Breaking Tradition: Custom, Law, and the Individual in the Muslim Mediterranean ed. Walter Dostal and Wolfgang Kraus (London and New York: I.B. Tauris, 2005), 235.

6) On broader questions of integration, "hybridity," and "creolization," see R. Michael Feiner, "Hybridity and the Hadhrami Diaspora in Indian Ocean Networks," Asian Journal of Social Science 32, no. 3 (2004): 353-372; Ulrich Freitag, "Reflections on the Longevity of the Hadhrami Diaspora in the Indian Ocean," in The Hadhrami Diaspora, ed. Abushouk and Ibrahim, 17-32; Inge Seng Ho, "Names Beyond Nations: Crafting the Local Cosmopolitans," Rural Studies Journal 163-164 (2002): 215-232; Ho, Tombs of Tarim.

7) On migration and urban modernity in the context of the Ottoman Empire, see Ulrich Freitag, Malte Forman, Nora Lafi, and Florian Riedler (eds.), The City in the Ottoman Empire: Migration and the Making of Urban Modernity (London: Routledge, 2011). An interesting contribution in the context of the Western Indian Ocean is Nelida Fokaro, "Pearl Cities and Early Oil Cities: Migration and Integration on the Arabian Coast of the Gulf," in The City in the Ottoman Empire, ed. Freitag et al., 99-116.

8) Freitag, "Reflections on Longevity," 19.

9) Jonathan Miran, Red Sea Translocals: Hadrami Migration, Entrepreneurship, and Strategies of Integration in Eritrea, 1840s-1970s (Bloomington: Indiana University Press, 2009), 189-190, 193, 195, 247; Alessandro Gori, "Yemen and Islam in East Africa: Connections, Texts, Personalities," in History and Culture of Yemen in the Islamic Period with Special Reference to the Rasulid Era, Leone Kaitani Foundation (Rome: Bardeviditor, 2006), 201-218.

10) P. J. Martin, "Hadhrami Migrations to East Africa and Indonesia, c.1200 to 1900," Research Bulletin (University of Ibadan, Nigeria) 7, nos. 1-2: 1-21; P. J. Martin, "Arab Migrations to East Africa in the Middle Ages," International Journal of African History Studies 7, no. 3 (1974): 367-390; P. J. Martin, "The Mahdiyya, Muslim Clerics, and Holy Wars in Ethiopia, 1300-1600," in Proceedings of the First Ethiopian Studies Conference in the United States, 1973, ed. Harold G. Marcus (East Lansing: African Studies Center, Michigan State University, 1975), 91-100.

11) Roland E. Miller, "Hadhrami Emigrants in Zanzibar," **Journal of the International African Institute** 12, no. 2 (1972): 116-131.

12) Ahmed Al-Mansoori, **Al-Hadhrami: The Heroic Heritage of the Hadhramis** (Beirut: Dar Al-Hekma, 1999).

13) Clifford Geertz, **Peddler and Princes: Social Change and Economic Modernization in Two Indonesian Towns** (Chicago: University of Chicago Press, 1963).

14) H. L. A. Hart, **The Concept of Law** (Oxford: Oxford University Press, 1961).

15) Mahmoud S. H. Aly, "Hadhrami Traders and Social Networks in Zanzibar: The Role of Religion in Economic Interaction," in **Economic Aspects of Arab Trade in the Indian Ocean** (London: Routledge, 2001), 99-122.

16) P. J. Martin, "Hadhrami Migrations to East Africa and Indonesia, c.1200 to 1900," **Research Bulletin** (University of Ibadan, Nigeria) 7, nos. 1-2: 1-21.

17) M. G. Best, "The Hadhrami Diaspora and the Role of Islam in East African Commercial Networks," in **Studies in East African History**, ed. W. A. Brown and P. A. M. Rogers (London: Macmillan, 1992), 232-245.

18) P. D. King, "Hadhrami Traders in the Indian Ocean Basin: Origins and Integration," **Journal of Historical Geography** 24, no. 3 (1998): 317-338.

19) Mona L. Russell, **The Economics of the Hadhrami Diaspora: A Study of International Trade in the Indian Ocean** (New York: Oxford University Press, 1994).

20) J. P. Mohamad, **Migration and Transformation in the Hadhrami Diaspora** (Beirut: Al-Ahli Publications, 2007).

21) Jonathan Miran, **Red Sea Translocals: Hadrami Migration, Entrepreneurship, and Strategies of Integration in Eritrea, 1840s–1970s** (Bloomington: Indiana University Press, 2009).

22) William G. Clarence-Smith, "Hadhrami Merchants in Southeast Asia," in **Merchants, Scholars, or International Men? Hadhrami Migrants in the Indian Ocean World, 1750s–1960s**, ed. Ulrich Freitag and William G. Clarence-Smith (Leiden: Brill, 1997), 200-214.

23) G. R. Tewksbury, "The Hadhrami Diaspora: Migration, Identity, and Entrepreneurship," **Globalization Studies Journal** 5, no. 2 (2003): 98-112.

24) R. C. W. Lister, "Hadhrami Entrepreneurs and the Development of East Africa: 1860-1940," **Journal of African History** 24, no. 4 (2001): 540-553.

25) Abushouk, Ahmad Ibrahim, "Hadhrami Diasporic Networks and Arab Muslim Entrepreneurs," in **The Hadhrami Diaspora** (Leiden: Brill, 2009), 42-59.

26) W. P. Wickham, "Arabian Commerce in the Indian Ocean," **International Economic Review** 10, no. 3 (1969): 409-420.

27) Natalie Mobini-Kesheh, **The Awakening of the Hadhrami: Community and Identity in the Netherlands East Indies 1900-1942** (Ithaca, New York: Southeast Asia Program Publications, Cornell University, 1999).

28) L. R. Smith, "The Urbanization of Hadhramaut: The Impact of Migration and Urban Development," **Social Studies Review** 13, no. 4 (1989): 48-62.

29) Anwar O. Jamil, "Hadhrami Influence on Trade and Social Structures in the Horn of Africa," **Economic History Review** 13, no. 2 (1986): 158-176.

84
العدد (37)
يوليو
سبتمبر
2025م



سؤال أحمد شوقي الكبير : كم قبراً تسعُ هذه الدار ؟



طارق بن محمد سكلوع العمودي

كنتُ كتبتُ قبل سنين مقالة بعنوان: "من على فراش الموت كيف كان رد الإمام الألباني؟"

وقلت فيها: (إن الصورة التي نقلناها عن الألباني وهو على فراش الموت حريّ أن تلتحق بمثيلاتها عن العظماء المذكورين في الكتاب القيم الرائق الفريد: "**على فراش الموت**" للأستاذ الأديب طاهر أحمد الطناحي -رحمه الله-).

وقبل فترة وجيزة؛ وبالتحديد في اليوم الأول من عيد الفطر المبارك من عامنا هذا (1446هـ/ 2025م) كتبت مقالة بعنوان: "من درر فارتر" لأديب الألمان الكبير وفيلسوفهم يوهان غوته (ت 1830م)؛ قلت في ختامها: (كما ذكّرني قول غوته بقصة لأمير الشعراء أحمد شوقي (ت 1932م) -رحمه الله-، حدثتُ له في آخر أيامه، محزنة مؤثرة ذات عبرة وعظة، بما يدخل تحت مقولة غوته، لعلي أرجوها في مقالة مفردة، والله ولي التوفيق).

وها أنا اليوم بنعمة من الله وفضل؛ قد فسح وأذن لي بأن أوفي بمقصود ما ذكرت؛ بذكر قصة أمير الشعراء أحمد شوقي -رحمه الله- المؤثرة المحزنة المعبرة التي حدثت في أواخر أيامه؛ من ذلكم الكتاب البديع : "على فراش الموت" للطناحي - رحمه الله -.

لقد قرأتُها قديمًا من سنين طويلة، ولطالما حدَّثتُ نفسي بإعداد مقالة لها، وكان يصرفني عن ذلك أمور، منها: كيف أجاري الطناحي في تعبيره وبلاغته التي لا تجارى، وهل يصح ذكر قصة شوقي كذا بتمامها بالحرف -وهي طويلة- بقلم الطناحي الرشيق؛ ثم أعدُّ ذلك مقالة بقلمي؟!

هكذا جلستُ في حيرة، واضطربت أفكاري، من خلف قضبان الموانع التي حسبتُها موانع؛ وهي في الحقيقة صوارف ليس إلا، حتى مرَّت الأيام و السنون؛ ولكني لم أنس أبداً قصة شوقي، ولا كتاب الطناحي، فمتى ما سنحت الفرصة ذكرتهما في مقالاتي، وما في صدر مقالي هنا إلا تمثيل وتدليل على ذلك.

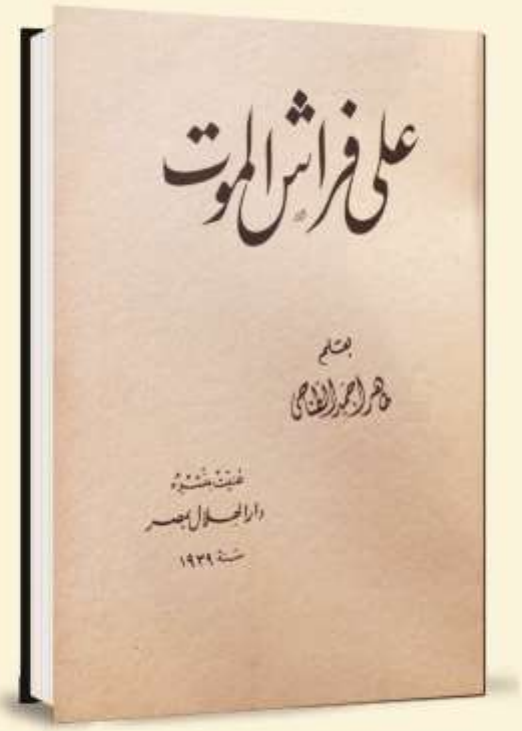
واليوم قررت ذكر قصته؛ ولو كان مجرَّد نقلٍ، مادام في ذلك فائدة للقارئ وعظة وعبرة، وإيقاظ للقصة من رقادها في ذلكم الكتاب العتيق، من خلال إحيائها بذكرها.

وزاد إصراري على ذلك، من أنَّ الغالب الأعم؛ إنْ لم يكن على التمام؛ إغفال تلكم القصة التي بطلُها شوقي عند مترجميه، ولولا تسطير الطناحي لها لما علمْنا بها أصلاً.

85
العدد (37)
يوليو
سبتمبر
2025م



الأديب طاهر أحمد الطناحي



وأحمد شوقي شخصية سامقة عالية، حياته حافلة بالأحداث والخطوب، واختلفت فيها الآراء في جوانب معينة، وخاصة في تلقيبه بأمير الشعراء.

وكنتُ في كتابي المطبوع: "كل ما هو حضرمي من العود الهندي"، (ص42) عقدتُ عنوانًا هو: (المصنِّف وأمير الشعراء أحمد شوقي)، وأقصد بـ (المصنِّف) العلاَّمة الفقيه الأديب عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف (ت 1375هـ) - رحمه الله -؛ إذ ذكر له بيتًا؛ هو:

مرحبًا بالربيع في ريعانه وبأنواره وطيب زمانه

فكتب مقالة في نقده، فلتنظر هناك لمن رام التفصيل.

وفي: "إدام القوت في ذكر بلدان حضرموت" للسقاف كذلك، (ص869) قال بالحرف: (أمَّا شوقي؛ فلم أقرأ شعره إلا بعد ذلك، فلم يكن عندي شيئًا في جانب جيد حافظ، وما أرى إغراق بعضهم فيه وتأميره وتفضيله إلا من جنس تفضيل جرير على الفرزدق، بدون حق، حسبما فصَّلتُه بدلائله في "العود الهندي").

قلتُ: وهذا مثال عابر ذكرتُه حيال اختلاف الناس في أحمد شوقي، وما الاختلاف في شخصيته؛ إلا دلالة على بُعْد صيتها، وتأثيرها فيما تكتب أو تقول.

وحقيقة القول: إنَّ أحمد شوقي ترك خلفه إرثًا أدبيًا لا ينكره أحد، فهو شاعر القصر، وهو الشاعر المنفي، وهو شاعر الوطن والشعب، فمن قال عنه أمير الشعراء ما كذب.

واشتهر عنه أن آخر ما كتبه هو:

قف دوّن رأيكَ في الحياة مُجاهداً إنّ الحياة عقيدةٌ وجهادُ
ما دامَ هذا العُمر يأتي مرّةً مُتْ واقفًا.. يُقهر بكَ الجلاّدُ

قالوا: كتبَ ذلك ليلاً، فأصبح ميتًا - رحمه الله -.

ولنعد إلى صلب موضوعنا من خلال ما نثره الطناحي، فلتُنصتْ أخي القارئ، ولو كان بجانبك فنجان من القهوة لكان أحسن، وافتح قلبك قبلَ عقلكَ لما هو آت. علمًا أني قد أتجاوز بعض الأبيات والكلمات؛ طمعًا في الاختصار؛ غير المخلّ قطعًا.

لـمَّا قال أمير الشعراء أحمد شوقي في رثاء شاعر النيل حافظ إبراهيم:

قد كنت أوثر أن تقول رثائي يا منصف الموتى من الأحياء
لكن سبقت وكل طول سلامة قدر، وكل منية بقضاء

قلنا: لقد نعى أميرُ الشعراء نفسَهُ، وآذنت شمسُ حياته بالمغيب، وما نحسب أنه مقيمٌ بيننا طويلاً، وقد لا ينتهي العام، حتى نفتقده بين الصفائح والرجام.

وكنا وقتئذٍ في آخر يوليو سنة 1932م، ولم يجفَّ دمعنا على شاعر النيل، ثم مضتْ بعدَ وفاته ثلاثة وثمانون يومًا، وفي صبيحة اليوم الرابع والثمانين - وهو 14 من أكتوبر - طوى مصر والجزيرة العربية والشرق كلَّه نبأٌ، فزعت فيه دولة الأدب بآمالها إلى الكذب؛ لأنه كان نبأً مفاجئًا، ولأنها كانت تتمنى لشوقي حياة طويلة، ولها من نبوغه ثروة جديدة.

وقبل أن يموت بأيام عاد في المساء إلى داره «كرمة ابن هاني»، فلمَّا دخلَها وقف بالحديقة وقال لسكرتيره:

- كم قبراً تسعُ هذه الدار؟

فدُهشَ السكرتير، وقال له:

- ولماذا هذا السؤال يا باشا؟!

فقال: لا شيءَ، لكنَّهُ خاطرٌ مرَّ بنفسي، فذكرتُ الموتَ، وطالما خالجتْني ذكراه في هذه الأيام، فهَبْ أنِّي متُّ فماذا يكون؟!



أمير الشعراء أحمد شوقي وبجانبه شاعر النيل حافظ إبراهيم - رحمهما الله

عشتَ يا أمير الشعراء، ولا رُوِّعتْ فيك مصر، ولا نجع بك الشرق العربي.

- لا تخف فليس الموت بالمصيبة العظمى، وقد يكون منجاة من حَسَدِ حاسدٍ أو حقْدِ حاقد، والقبر أبقى من هذه الدار، وهو لا يشغل غير عشرة أمتار، أمَّا هي فقد شغلتْ خمسة آلاف متر، فلو بُنِيَتْ في مكانها قبورٌ لاتَّسعَت الخمسُمائة قبر، أليس كذلك؟

فأُسْقِطَ في يد السكرتير، وعاد شوقي فاستأنفَ كلامَهُ، فقال: أيْ إنَّ "كرمة ابن هاني" تشغلُ من الأرض ما يكفي ثلاثة آلاف من الموتى. فما أعظمَ طمعَنا في دار الفناء!، وقناعتَنا في دار البقاء!.

أراك اليوم تذكِّرُ الموت، وقد نهيْتَنا عن ذكره في مجالسك، وتمنَّيْتَ لنا منه النجاة.

- نعم، ولكنِّي ما خفْتُهُ يومًا، وما ذَمَمْتُهُ قطُّ، ولا لُذْتُ منه بالفرار، ولا نقمتُ لأجله على الأقدار.

أنا من لا يرى الفرار من المو ت، ومن لا يرى من الموت بُدَّا
إنما الموت منتهى كل حي لم يصبْ مالك من الملك خلدا
سنة الله في العباد، وأمر ناطق عن بقائه، لن يردا

ولماذا الفرار من راحة بعد عناء، ونعيم بعد شقاء، فإنَّ الحياة كعهدك بها معصية، عن الحظيرة مقصيَّة، وخلوة حلوة عواقبها نقص، ومشاربها غصص، أفعى خداعة، ولذَّة لذاعة، شوك بعض الورد، وقذى نقص الورد، أمور شتَّى الأعنَّة، وحوادث وقع وأجنَّة، فقُلْ لمن أطال التفكير، وبالغ في التفكير، وكدَّ باله، ومد بلباله، واحترق احتراق الذبالة:

خل اهتمامك ناحيه وخذ الحياة كما هيه

ولنعد إلى "كرمة ابن هاني"، أليستْ واسعةَ الجوانب؟ ثم أليستْ تتَّسع الخمسمائة قبر، في كل قبر ستةُ أموات، فتكفي إذن ثلاثة آلاف ميت؛ فبئس حرص الإنسان، وبئست نفسه المدمنة على الشهوات.

87
العدد (37)
يوليو
سبتمبر
2025م

أين رومية وقَيصرُها، وجنَّةُ الطَّلْحِ ومعتمدُها، وأين نابليون وصولته، وصقرُ قريش ومنيته؛ لقد صار القصرُ له قبراً، ثم ذهب القبر وصاحبه، وأصبح ذكراً في الأفواه، وخاطراً في النفوس، أو سطراً في الطروس.

ثم ماذا، أنَسِيتَ السؤالَ:

كم قبراً تسع هذه الدار ؟

- .. ..

- أليستْ "كرمة ابن هاني" تسع خمسمائة قبر ؟ وأليست هذه القبور تتسع الثلاثة آلاف من الموتى ؟ ثم ألسنا مسرفين جداً؟. لقد شغلنا من الأرض كبيراً، وعطَّلنا من منافع الناس كثيراً. فبُعداً لطمع الإنسان يطلب الجاه، ويستزيد من المال، ويستعمر من الأرض آلافًا، ويكلِّفُ نفسه المتاعب، ويبني حولَ حجرته حجرات، وفوق طبقته طبقات، ويرجو أنْ ينطح بها عَنَانَ السموات، وما درى أنَّ الحياة دقائق ولحظات. فما أضلَّه وأعجب عقله! . لقد شغل بنفسه عن رَمْسِه، ونسي أنه زائلٌ ولو طال به المدى، وأنه واصل ولو أبطأت به المطيَّة.

إنِّي لأشعر بتعب في هذه الأيام، وقد استهلك جسمي الضعفُ، وعصرتني الشيخوخة، فما أبقتْ منِّي غيرَ مُخٍّ في عظام، وما أحسبُ أنِّي مقيمٌ طويلاً، فيا ترى على أية الحالين يأتيني الأجل؟ أبعدَ الرُّقادِ أيَّاماً؟ أمْ في غفلةٍ من النفس، وسِنَةٍ من الحسِّ:

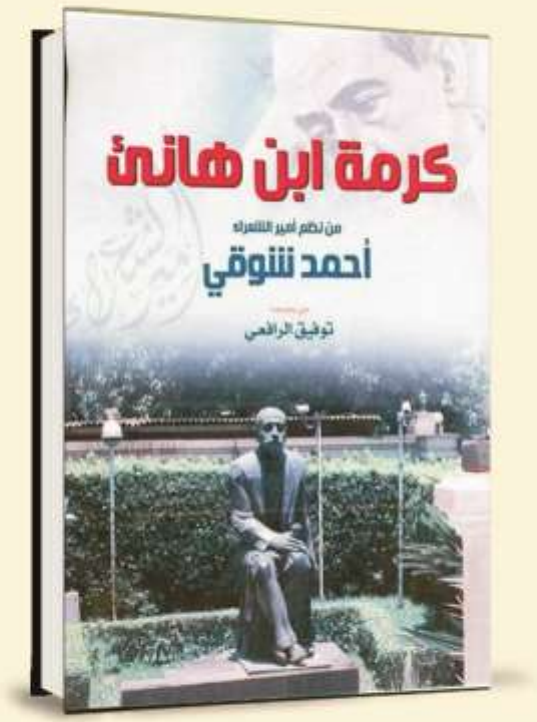
وأيُّ المصرعَيْنِ أشدُّ، موت

على علم، أم الموت الفوات

وهل تقع النفوس على أمان

كما وقعت على الحرم القطاة

وكان أمير الشعراء قد اشتد ضعفُه في السنوات الأخيرة، وبدا أكبر من سنه، وقد دفعته شدة ضعفه إلى زيادة عطفه على الفقراء ومواساة البؤساء، وكان يقول: (حسبي أن أسمع من إنسان أنه مريض، أو ضعيف أو بائس، فيعروني ألمٌ عميق،



ووَجْدٌ شديد، هل ترونني أزورُ الآن العظماء أو ذوي الجاه؟ لا، إنني ضعيفٌ وأُحبُّ الضعفاء).

وكان شوقي قد أصيب بمرض تصلُّب الشرايين، وكانت أعصابه طول حياته ضعيفة، وقد زادت ضعفًا بهذا المرض، وبما كان يبذله من مجهود أدبي في شيخوخته، فأصبحتْ تتأثر بأقلِّ مؤثِّر، حتى تكاد تتأثر بخطرات النسيم، أو بلمس الحرير. وكان إذا دخل عليه إنسان ممَّنْ يعرفُهم ومَنْ لا يعرفهم اختلجتْ أعصابُه، فيسلِّم عليه في حركة عصبية ترتعشُ لها يدُه، ويمكثُ نحو دقيقتين في هذه الرعشة فلا يطمئن الزائر إلى حديثه إلا بعد بُرهَة، أو بعد أن يشرب القهوة.

وقد نصحه طبيبُه كثيراً بالكفِّ عن العمل والإنتاج، والانقطاع إلى الراحة من عناء الحياة، ولكن العمل الأدبيَّ له طبيعة، والإنتاج الشعريُّ له دَيْدَن، فكان من المحال أن يحقِّق رجاء الطبيب.

واستمر يسهر الليل كله، ويعاني قرض الشعر، وتأليف الروايات، حتى نزلت به المنيَّة فجأة بعد ما مهَّد لها بهذا الضعف الجسمي، والمجهود النفسي الذي كابده أربعين عامًا، فخلف للأدب العربي ثروة ضخمة، وبنى لنفسه مجداً خالداً.

وكانت أوائل أكتوبر، فاعتزمتْ جمعية القرش إقامة احتفال في يوم 14 من هذا الشهر لافتتاح مصنع الطرابيش، ورغبتْ إليه أن يتوّج هذه الحفلة بقصيدة من قصائده، فنظم لها هذه القصيدة:

الملك بالمال والرجال لم يبن ملك بغير مال
والمال ركن الشعوب يؤوى إليه في السلم والقتال

ثم قال:

الحمد لله قام منا أواخر تمموا أوالي
وسد جيل مكان جيل لله من سابق وتال

وما درى أحدٌ أن أمير الشعراء سيغادر عالم الشقاء في اليوم الذي تُلقَى فيه آخر قصيدة له وهو على فراش الموت.

ففي اليوم السابق لهذا اليوم أحسَّ شوقي بتحسُّنٍ في صحته، فطابت نفسُه الصباح، ذلك اليوم الهنيء، الذى ذاق فيه من لذة الشفاء مالم يَذُقْهُ منذ سنوات، وكاد يستعيدُ بما خالجه من طربٍ وسرور بهجة الماضي، وما طوى فيه من عيشٍ ظليل، وعهد باسم الوجنات جميل.

وفي منتصف السابعة مساءً ركب أمير الشعراء السيارة مع سكرتيره، وذهب للرياضة في مصر الجديدة... وفي الطريق قال له:

– أراني اليوم منشرح النفس جداً، فإني أشعر براحة تامة، واعتدال في بنيتي، وقد تناولت الغداء بشهوة.

وفى عودته مرَّ بأحد المطاعم، فتناول فيه العشاء، ثُمَّ توجَّه إلى دار الجهاد، فدخل حجرة السكرتير، وعلم الأستاذ توفيق دياب بقدومه، فانتقل إليه، قدَّم له شوقي بك سيجارة، ولاحظ الأستاذ دياب أنه يسعل سعالاً خفيفًا، فسأله عمَّا به؟ فأجاب:

– ذلك برد بسيط، وهو عارض منتشر في هذه الأيام.

– لعله من اختلاف الفصول.

– أظنُّ ذلك.

ومكث شوقي إلى الساعة الحادية عشرة، ونهض قائلاً: (إنِّي ذاهبٌ إلى داري لأستريح، وألتمسُ شيئًا من الدفء).

وركب السيارة حتَّى وصل إلى "كرمة ابن هاني"، وقبل أن يدخل غرفته وقف برهة في الحديقة، وقال لسكرتيره:

– هيه كم قبراً تسع هذه الدار ؟

– لماذا يا باشا نعود إلى هذا السؤال؟!

– لا شيء... لكنه خاطر مرَّ بنفسي كما مرَّ بها منذ أيام.

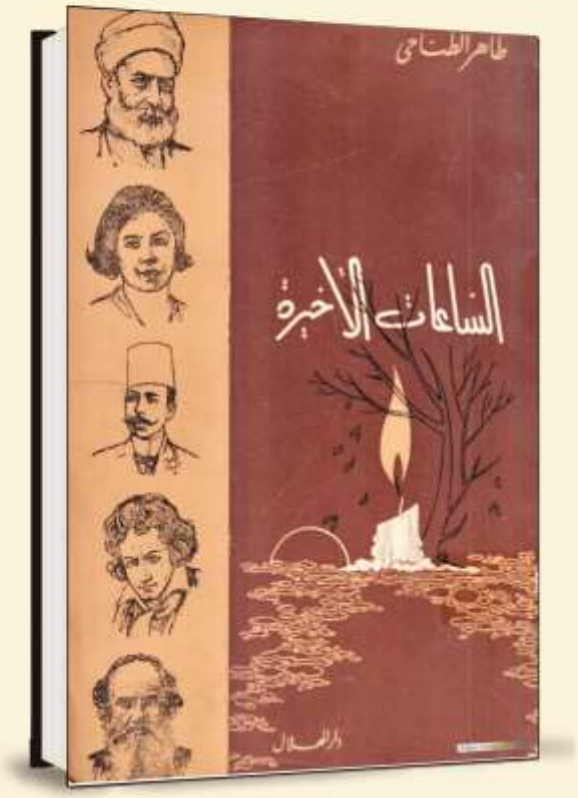
– إنه خاطر يمر كثيراً بنفوس الناس، وهو وَهْمٌ باطل.

– بل إنَّ الموتَ حقٌّ .. ثم .. ألمْ أقُلْ لك: إن هذه الدار تسع خمسمائة قبر، وإنها تتَّسع لثلاثة آلاف من الأموات.



منزل أمير الشعراء المسمى (كرمة ابن هاني) الذي جرى عليه السؤال الكبير لأحمد شوقي "كم قبراً تسعُ هذه الدار؟"

89
العدد (37)
يوليو
سبتمبر
2025م



- لقد ذكرتَ لي أنك بصحة جيدة، فلماذا هذا الخاطر المخيف.

- لا شيء .. لا شيء .. اذهبْ ونم.

وأوى أمير الشعراء إلى مضجعه، وأراد النوم، فاعتراه أرقٌ وسُعَال، فتدثَّر حتَّى دفئ، لكنه لم يسكن إلى الدفء، ولم يطمئنَّ إلى الفراش، وشعر بآلامٍ في صدره، ثم ضيقٍ في تنفُّسه فأيقظَ الخادمَ وأمرَهُ أن يقوم بإسعاف خاصٍ بالتصلُّب الشرياني، فلمْ يُفِدْهُ هذا الإسعاف. فأمره أن يستدعي الدكتور جلاد، وأن يوقظ أسرته.

وكان الموت يسرع إليه الخطى، وينشر أجنحته على سريره، ويناجي شاعراً طالما ناجى النُّجُومَ في أفلاكها، والطَّيرَ في أجوائها، والأزهارَ على أفنانها، وطوى القرون القهقرى حتى أتى الرشيد في ناديه، والمأمون في مغانيه، وسيف الدولة في مجالس متنبِّيه، فسحر النفوسَ بعجائبَ سِحرِه، وامتلك القلوب بعظمة شعره، وشأى الأوائل بعظيم إنتاجه، وبزهم بفيض نفسه، وباهر تفنُّنه.

وعاد الخادمُ، فوجد سيِّدَهُ يجودُ بنفسه، فطمأنه إلى حضور الطبيب.

فقال شوقي:

- لا أملَ بعدَ الآن. إنَّ أمري قد انتهى، فسلام على أولادي وأصدقائي.

وحضرت السيِّدة زوجتُه وأولادُه، فرأوه في النزع الأخير، فارتاعوا. وجاء الطبيب، فوجد الشاعر العظيم يختتمُ حياةً لم تنح للعربية منذ أجيال.

قلتُ: هذا كل شيء، ممَّا سطَّره يَرَاعُ الطناحي حيَالَ الأيام الأخيرة، ثم الساعات المتعاقبة، فالدقائق والثواني النهائية من أنفاس الشاعر والأديب الكبير أحمد شوقي.

فكَمْ فيها من عظات، وعبرات؛ تسيل لها الدموع، وتحفر لوعةً، بل لوعات في خلجات النفس لا تمحى، بل من الصعب التعبير عنها، مع خيانة القلم في تبيينها.

ويبقى سؤالُ شوقي الكبير الذي كرَّره قبل موته بأيام، ثم أعاده قبل سويعات من لقاء ربه ذي العزة والجلال والملكوت: كم قبراً تَسَعُ هذه الدار؟

-انظر: "على فراش الموت"، (ص151- 157).

ودارُ (كرمة ابن هاني)، هُو المنزلُ الذي قضَى فيه أميرُ الشعراء (أحمد شوقي) أزهَى سنوات عمره، تمَّ تحويلهُ في عام 1973م إلى متحفٍ وصرحٍ ثقافيٍّ في عهدِ الرئيسِ الأسبقِ محمد أنور السادات.

أطلقَ علَى منزله لقبَ «كرمة ابن هاني» تيمُّنًا بالشَّاعرِ العباسيِّ «الحسن بن هاني»، الذي اشتُهِرَ بلقبِ «أبي نواس».

90
العدد (37)
يوليو
سبتمبر
2025م

بين ثقافتين

إيمان العولقي





''أخشى أن هناك لاجئًا آخر على الأراضي الهندية'' ... قال السيد بيرزادة
أجابه أبي، ''لقد وصل عددهم إلى تسعة ملايين وفقًا للتقديرات الأخيرة''
مقطع من قصة، ''عندما أتى السيد بيرزادة لتناول الطعام'' للمؤلفة جومبا لاهيري، ترجمة، مروة هاشم

''ما دام الولايات المتحدة توفر حياةً جديدة لضحايا القمع السياسي، لكنني أحتاج إلى دليلٍ كي ...''
حياة جديدة، يوغونا منحها حياةً جديدةً. وأدهشها كيف استطاع أن يحولها سريعًا إلى هُويَّتها الجديدة، وجعل منها إنسانة جديدة''.
مقطع من قصة ''السفارة الأمريكية'' للكاتبة تشيماماندا نجوزي أديتشي، ترجمة، د. عابد إسماعيل

يُنسب للفيلسوف الإغريقي أرسطو حيثية لامعة عن العلاقة بين المشاهد والنص التمثيلي تُدعى «التطهير»، الذي يظهر، قياسًا على ذلك، تفسيراً بلاغيًا عن ثنائية العلاقة بين القارئ والكاتب. إن أجمل ما تقدمه القراءة لممارسيها ذلك الإحساس بالتخلص أو بالتخفف من مشاعر يُصعب التحرر منها من غير المشاركة الوجدانية الموجودة بين دواخل حميميات القراءة.

في هذا المقال أضرب مثالين لكاتبتين قرأتُ لهما مجموعتيهما القصصية: الأولى مجموعة الكاتبة النيجيرية تشيماماندا نجوزي أديتشي «ذلك الشيء حول عنقك»؛ إذ ضمت بين دفتيها اثنتي عشرة قصة. والثانية مجموعة الكاتبة الأمريكية الهندية جومبا لاهيري «ترجمان الأوجاع» بمعدل تسع قصص.

كُتبت المجموعتان كلاهما باللغة الإنجليزية والترجمة العربية، ونقلتا النصين بشفافية واحترافية مقدرة، تبدو الترجمة خلال ذلك لغة مستقلة بذاتها كما يصفها العملاق نغوجي واثيونغو. تأتي كلا الكاتبتين من خلفيتين ثقافيتين مختلفتين جمعت بينهما الهجرة والاستقرار في أمريكا.

91
العدد (37)
يوليو
سبتمبر
2025م

تمثيلات الهجنة الثقافية ويوميات المهاجرين وصعوبات التعايش استحوذت على أكثر القصص باستثناء لمحة خفيفة من الثقافة الخاصة، مثل قصتي «شفاء بيبي هالدر» و«الزنزانة رقم واحد».



الكاتبة النيجيرية
تشيماماندا نجوزي أديتشي



الكاتبة الأمريكية الهندية
جومبا لاهيري

فازت مجموعة «ترجمان الأوجاع» بجائزة بوليتزر في الأدب 2000، إذ كُتبت قصصها في أثناء الدراسة الجامعية لجومبا لاهيري، ولأنها ولدت في لندن فنظرتُها تختلف، وتكاد تبتعد عن الواقع السياسي والاجتماعي للقارة الهندية عن نظرة مَنْ وُلد في بلده الأصلي مثل تشيماماندا نجوزي أديتشي، التي فازت قصتها «السفارة الأمريكية» بجائزة أو. هنري السنوية 2003، إنها قصة قوية المتن، ومتماسكة فنيًا، وتحمل نقداً هجائيًا صادقًا لفشل السياسيين النيجيريين.

حملت أكثر من قصة لنجوزي أديتشي مفهوم أن يحظى الإنسان النيجيري بفرصة للهجرة إلى أمريكا الحلم ولو عن طريق زواج مدبر غير متكافئ، فالوصول إلى الأرض الأمريكية بمثابة نجاة، وبدء حياة جديدة - وإن كانت شاقة وذات طرق وعرة للاستقرار. في قصصها نجد أيضًا ذلك البعد ما بعد الكولونيالي، مثل قصة «المؤرخة العنيدة».

أما قصص جومبا لاهيري فإن أقرب ما تمثله هو واقع الهجنة الثقافية، وبدايات الالتصاق بالحضارة المختلفة عن الأرض الأم، بطبيعة الحال لن تكون نسخة مطابقة أو مشابهة لها، ولن تصير إلى نسخة غربية أو حتى تتبناها، إنها حياة جديدة تمزج بين الثقافتين والحضارتين في نسخة هجينة خاصة ومختلفة.

ومن نظرة قرائية أخرى، وعودة لتطهير أرسطو، فإن جمالية الفن السردي تظل هي المعيار الأول الحقيقي لقبول القارئ، ما شأن قارئة عربية للإعجاب بقصص كُتاب من آسيا وإفريقيا؟ إنها تلك البلاغة الجمالية والفنية في سرد الحكاية المميزة لأي نمط كتابي، تتكرر المعاني وهي مطروحة على الطريق كما يعلمنا الجاحظ، لكن الكلمات والجمل والفقرات والأسلوب برُمَّته يبقى صنعة تخص المؤلف أو المؤلفة للنص الأدبي، وعند نجاحها بعد ذلك تحقق جمالية كونية أبعد من ذات الكاتب ودائرته الخاصة كما يعبر عن ذلك الفيلسوف الفرنسي إدغار موران بقوله عن ما يميز جمالية الرواية (بما فيها القصة):

"ما ينقص العلوم الإنسانية هو معرفة الإنسان في تعقيده، إذ الإنسان فيها على العكس منقسم ومجزأ بين التخصصات. أما الرواية فتبرز التعقيد الإنساني".

92
العدد (37)
يوليو
سبتمبر
2025م

حضارمة استثنائيون

السيدة الجليلة
فاطمة عبدالقادر بن علوي العيدروس (فطّم)

الحلقة الرابعة



شكري نصر مرسال

برزت الثالثة من المراحل في حياة السيدة فطّم عبدالقادر بن علوي العيدروس منذ أن شدّت الرحيل ذات ظهيرة مشمسة، ومضت تدب على قدميها برفقة والدتها، تحملها سنواتها السبع من منزل عائلتها الكبير بتاريبة إلى ديار "ثِبي"، إحدى قرى مدينة تريم، للاستقرار بها والعيش بكنفها. فمرجع اتخاذ القرار أنَّ جدَّها علوي لأبيها مَنْ كان يُسندها بكفوفه الحانيات، قد أسلم روحه ذات ليلة لأقدار الموت، ما شاء للطفلة الصغيرة أن ترحل مرغمة لتلك الديار للعيش عند أهلها من والدتها.

وبين معابر الأيام بفترات وجيزة، التحقت الطفلة الجميلة بمدرسة العيدروس "بثِبي" لتدرس مواد اللغة العربية والحساب إلى جانب تعليمها معارف من فقه علوم الدين، وكان ذلك تقديراً في ميلاد العام 1936م. كما كان يدرس في صرح المدرسة من جهة صفوف البنين طالبٌ متميزٌ في تفاصيل مداركه الحسية، مثله مثل تفاصيل المطر في فصل الخريف، تنبأ الكثير بمستقبله البهيج، وقد حفظ نهج البلاغة في العاشرة من عمره، يُدعى علي عقيل بن يحيى.

وتأتي هذه المدرسة ضمن بعض مدارس آل العيدروس التي شُيّدت فصولها من حر مال هذه العائلة الكريمة، ينفقون على جل برامجها التنويرية، ويباشرون مصالحها التعليمية؛ لتظل أبوابها مفتوحة مرحبة لمن أراد اللحاق بها من عموم أطياف المجتمع الحضرمي.

ومن لطائف الصدف أن سارت بعلي عقيل صروف أقداره تجرُّه من مسيلة آل الشيخ بمدينة تريم إلى قرية "ثِبي" ليتخذها محلة، والأصل في وجوده هناك ليكون قريباً من شقيقته الوحيدة، التي كانت حديثة عهد بزواجها من أحد المناصب لأسرة العيدروس. وكان الشقيق الأوحد علي عقيل بن يحيى في حينها طفلاً لم يزل يسبح في مجرى عمره الصغير بين الحادية عشرة والثانية عشرة من السنين.

ومن غبار تلك الأيام تشكل ضبابٌ باردٌ من رياح النصيب، فتزوجت خلاله الشريفة الحسناء فطم العيدروس من الشاب البليغ علي عقيل بن يحيى في أواخر ميلاد العام 1943م، وانتقلت فطم عبدالقادر العيدروس إلى بيت الزوجية، كما قدر لها. ومن جديد يعود علي عقيل ليعيش بمسيلة آل الشيخ في مساحة منزلية متواضعة، فبدأ الرجل باكراً يعلن

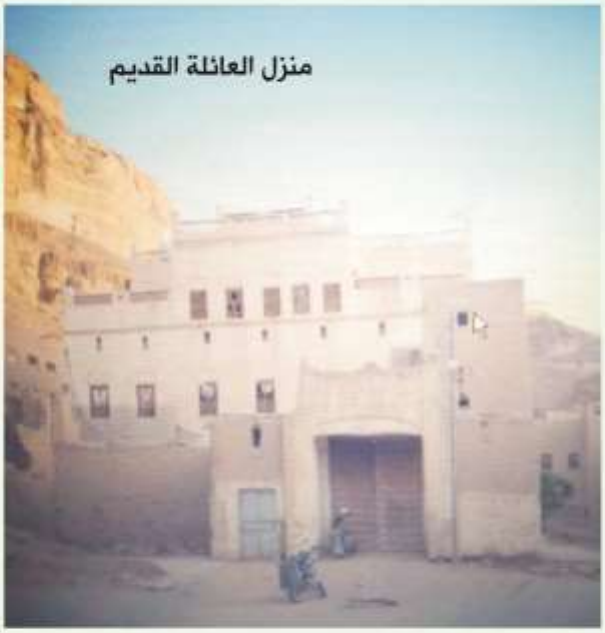
93
العدد (37)
يوليو
سبتمبر
2025م

بموضوعية عن ترتيب أوراق قناعاته الحياتية في استشراف مستقبل الأيام المقبلة، بما يحفظ له وأسرته واقع الحياة العزيزة، ببصيرة نافذة تعنى بالأوليَّات.

ومختلفة ربما عن بعض طرق المسلمات المألوفة المستبدة العالقة في خارطة ادعاءات ذلك الواقع المعيش، وبجانبه تجلس الروح الملهمة فطم العيدروس مصغيةً، تشاركه منطقها السليم، مستوعبًا علي عقيل من خلالها الواقع من دور الأم في محاكاة مستقبل الأبناء. ولمْ تدرِ فطم العيدروس المرأة الرائعة أن من ظفر بها زوجة وأمًا لأبنائه سيكون له شأن الكبار من الناس، وسيصبح في مسارح الدنيا منارة فكرية ورمزاً عربيًا، ستحتفظ بسيرته محابر العقود العابرة إلى مخطوطات الدهور.

فحظيت هذه الحواء الملهمة بداية بعناية في تعليمها، ومتعرضة لرعاية فائقة في تنوع سبل معارفها، فكان للأستاذ علي عقيل دورٌ محوريٌّ داعمًا ومبادراً في هذا الاتجاه، الذي ظل يتعاطاه ويشيّد أسسه كضرورة حياتية ملحة، مستعينًا بأهمية تثقيف دور الأم في حمل مهام تربية الأبناء وترشيدهم؛ ليكونوا على استعداد من خلال مكتسبات العلم في مجابهة مداهمات الحياة.

ففي هذه الفترة شاء القدر أن يغادر السيد علي عقيل حضرموت إلى دمشق يرأس أول بعثة طلابية لا يزيد عددها عن الخمسة طلاب المرشحين للدراسة إلى الجمهورية السورية؛ من أجل الانضمام إلى إنجاز نيل مرحلة الثانوية، أظنها جازمًا في أواخر العام 1947م. ومن هناك من حيث إقامته بدمشق ظل المثقف الكبير ابن يحيى علي عقيل يزود السيدة فطم بمجاميع من إصدارات جديدة من الكتب والمجلات تُبعث لها من سوريا عند سانحة كل فرصة، مما جعلها امرأة قارئة مطلعة، ومكثرة في ثقافتها حتى تكونت لديها شهية ثقافية واسعة، عملت خلالها إلى مد رحاب الآخرين بأكسجين المعارف.


منزل العائلة القديم

وحال ابتعاث علي عقيل طالبًا للدراسة في أول رحلة إلى سوريا كما أسلفنا، توجهت السيدة فطم إلى مدينة تريم برفقة والدتها السيدة عائشة العيدروس بغرض تعليم ابنها العزيز عباس، وتمكينه من اللحاق بمدارس تريم، الخبر الذي سُرَّ به علي عقيل، وشكرها بكثير من الإعجاب والثناء، معتبراً هذه الخطوة توجهًا جميلاً على الطريق الصحيح.

وبين فترة تريم صادفت الأم الصبورة ظروف المعيشة الصعبة، فعلي عقيل لم يزل طالبًا بسوريا وبالكاد أن تغطي التزاماته تلك المنحة المتواضعة المقررة له كطالبًا، ففرض على الوالدة فطَم أن تطلق العنان لنفسها مجاهدة متهيبة لمصارعة شظف العيش من خلال اختيارها للعمل مباشرة على ماكينة الخياطة اليدوية، تخلط الليل بالنهار مرغمة؛ لتتمكن قدر المستطاع من تحقيق احتياجات العيش الكريم لوالدتها وابنها الطالب الصغير عبر إدارتها بكفاءة لمشروع الخياطة، الذي رفع من رصيد إشهارها لدى الكثير من العوائل الحضرمية.

ولكون هذه المرأة الحكيمة سبق أن عاشت شبعانة، وتمرغت في مناعم الرخاء، تمكنت من مخاض تلك التجربة المريرة بأسلوبها من غير أن تُشعِر مَنْ حولها بأنها قد تأذَّتْ أو مسَّها الضُّرُّ من ضيق ذات القل.

94
العدد (37)
يوليو
سبتمبر
2025م

مِن عينات إلى المقطّم
رحلة عالم تقيٍّ ونفس زكية



في رُبى العلم ونفحات التقى، وفي مدينة تريم الغنّاء، مهوى أفئدة العلماء ومرتع الفضلاء من بلاد حضرموت، بزغ نجم من أعلام الهدى، وعلم من أعلام الفقه والقضاء، إنه الفقيه العلامة القاضي الوالد الشيخ علي بن محمد بن علي بن زاكن باحنان الأشعثي الكندي الحضرمي رحمه الله تعالى، الذي نذر عمره لخدمة الدين والعلم والدعوة، فكان إمامًا في الفقه، عدلاً في القضاء، وخطيبًا مصقعًا يصدع بالحق من على المنابر.



أنس علي باحنان

تولى القضاء في تريم، فكان قاضيًا عادلاً، مهاب الجانب، ناصحًا للأمة، لا تأخذه في الله لومة لائم، وسخّر علمه لنشر الخير وبث الفقه والوعي في نفوس الناس، وقد ترك الشيخ الوالد علي غفر الله له إرثًا علميًا غزيراً، ومؤلفات جليلة، يأتي في طليعتها كتابه الموسوعي الحديثي النفيس "نيل المقصود شرح سنن أبي داود"، الذي امتد في تسعة عشر مجلداً ضخمة، يحوي بين دفّتيه درراً من الفقه والحديث والعلم الواسع، ويمثل إضافة رصينة للمكتبة الإسلامية.

لم يكن الشيخ الوالد تاب الله عليه حبيس الأوراق والكتب، بل كان ناشطًا في ميدان الدعوة، أسهم في تاسس بعض المنتديات العلمية، و الأندية الثقافية، والجمعيات الخيرية، أولاً ببلده عينات ثم بمهجره بصيف بدوعن من بلاد حضرموت، فكان بحق رائداً من رواد الإصلاح والتنوير، وعالمًا عاملاً بما علم نفع الله بعلمه.

وقد عُرف عن الشيخ الوالد علي نور الله قبره كثرة أسفاره في سبيل الدعوة وطلب العلم؛ إذ هاجر إلى بلاد الحرمين مرات عدة، ونهل من معين علمائها، وبث الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة هناك. ولم تتوقف رحلاته عند ذلك، بل واصل مسيره إلى قلب القارة السمراء، حيث حلّ بأوغندا في إفريقيا، وهناك أسّس مع ثلة من إخوانه من المسلمين مدرسة التقوى الإسلامية بمدينة كبيج، فكانت منارة علم وهداية، وأسلم على يديه عدد كثير من الأفارقة، متأثرين بجمال خُلقه، وعمق علمه، وصدق دعوته.

95
العدد (37)
يوليو
سبتمبر
2025م

وفي ثاني أيام التشريق من عام 1391هـ، أسلم الشيخ الوالد رحمه الله روحه الطاهرة إلى بارئها، وكانت وفاته بالمقطم بالقاهرة بمصر العربية، ففُجعت الأمة الإسلامية برحيله، وودّعت عَلَمًا من أعلامها، تاركًا وراءه أثراً خالداً، وسيرة عطرة، يَعبَق بها الزمان والمكان.

وفي ما يأتي هذه محطات من حياة الوالد تاب الله عليه بمنه:

اسمه ونسبه:

هو الإمام النحرير، والعلامة الجليل، القاضي الأجل، أبو أحمد علي بن محمد بن علي زاكن باحنان الأشعثي الكندي الحضرمي.

يرجع نسبه إلى الصحابي الجليل الأشعث بن قيس الكندي رضي الله عنه.

أسرته ومكانتها:

ينتمي لأسرة آل زاكن باحنان، وهي بطن من بطون قبيلة آل أبي حنان الحضرمية المعروفة بالعلم والصلاح.

عُرفت أسرته بحب العلم، والتربية الصالحة، والغيرة على الدين.

مولده ونشأته:

وُلد سنة 1340هـ في عينات، شرق مدينة تريم، حضرموت.

نشأ في كنف والدين صالحين؛ والده العلامة الفقيه المؤرخ محمد بن علي زاكن باحنان، ووالدته الشيخة الزاهدة فاطمة بنت سعد بن عبداللاه زاكن باحنان.

تلقى أول علومه في بيت والده، ثم التحق بمدرسة عينات الوطنية عام 1348هـ.

طلبه للعلم ومراكز دراسته:

نهل من عدد من المراكز العلمية في عينات وتريم، ومنها:

- معلامة الشيخ أبي بكر بن سالم.
- مسجد الحسن بن إسماعيل الحامد.
- مدرسة الحسين الوطنية.
- معلامة الشيخ أحمد بن عوض زاكن باحنان.



الشيخ علي بن محمد بن علي بن زاكن باحنان

قرأ العلوم الشرعية على يد والده، ثم على عدد من علماء حضرموت ومكة.

أبرز مشايخه:

- والده الإمام محمد بن علي زاكن باحنان.
- السيد العلامة الحسن بن إسماعيل الحامد.
- السيد العلامة علوي بن عباس المالكي مفتي الحرم.
- السيد العلامة عبد الله بن عمر الشاطري.
- السيد العلامة أحمد بن عمر الشاطري.
- الشيخ محمد أنور العماني.

أقرانه وتلاميذه:

تواصل علمياً مع علماء حضرموت واليمن والحرمين والأزهر الشريف.

من أبرز أقرانه: العلامة الشيخ محمد بن سالم البيحاني، والسيد العلامة محمد بن سالم بن حفيظ، والسيد العلامة عبدالله بن أحمد الهدار، والقاضي علي بن أحمد بارضون وغيرهم.

تتلمذ على يديه مئات الطلاب في حضرموت، وعدن، وشرق أفريقيا يصعب هنا حصرهم.

أنشطته الدعوية والتعليمية:

• **في حضرموت**: درّس في عينات وصيف، ومع أبيه وبالتعاون مع المحسنين من أهل صيف أسس مدرسة الفلاح بصيف بدوعن الذي ذاع صيطها وتنشر خبرها وأتت أوكلها.

• **في عدن**: عمل معلماً بالمعهد التجاري، وقدّم برنامجاً إذاعياً من إذاعة عدن بعنوان "**فتية الإسلام**".

• **في أفريقيا**: ومع إخوان له من الحضارمة أسّس مدرسة التقوى الإسلامية في أوغندا، وأسلم على يديه خلق كثير.

• **في الحرمين**: حج مراراً، ودرّس في مدرسة الرحمانية، واتصل بعلماء أمثال المالكي والعماني.

توليه القضاء:

• تولى منصب القاضي الشرعي في مدينة تريم بعد سنة 1387هـ.

• اشتهر بعدالته، وسداد أحكامه، وحفظه للأوقاف، وتطبيقه لأحاديث القضاء عن بصيرة وفهم عميق.

آثاره العلمية ومؤلفاته:

ألّف الشيخ الوالد رحمه الله تعالى في علوم شتى منها:

في الحديث:

نيل المقصود شرح سنن أبي داود (19 مجلداً) وقد تصدى لتحقيق هذا الكتاب الحديثي الموسوعي الشامل ودراسته فريق من جامعة صنعاء وحضرموت وسيئون وجامعة القرآن الكريم وعلومه كرسائل علمية لنيل درجة الدكتوراه والماجستير قوام هذا الفريق 52 طالباً وطالبة.

– ومن رسائله أيضاً الحديثية أيضاً مفاتيح الجنان في مغفرة الرحيم الرحمن.

– أوثق الصلاة (في الأدعية بعد الصلوات).

في الفقه:

– دروس في الفقه على مذهب الشافعي.

– أنور المسالك (في مذهب مالك).

– التحفة السنية شرح المقدمة الحضرمية (تحقيقاً).

في الفكر والثقافة:

– العدل الاجتماعي في الإسلام.

– المشارب الهنيئة.

– إيضاح وبيان.

في الخطابة والوعظ:

– المنح الإلهية في الخطب المنبرية.

في السيرة:

– الإعلام في فضيلة مولد خير الأنام.

– تعليق على منظومة العقد الثمين في سيرة سيد المرسلين.

في اللغة والتعليم:

– دروس في النحو.

– نجوم الطريق (في معرفة التعليم الحقيق في التهجي ورسم الحرف).

في الشعر:

– ديوان "**المنتخب من الأشعار**"، وفيه قصائد مؤثرة في الشوق والحنين والدعوة.

فمن شعره المؤثر:

يا حداة المطي نحو الحبيب	**سلّموا لي عليه وأبدوا نحيبي**
ليس لي في الحياة إلا رضاه	**فهو كل المنى بدون مريب**

صفاته وسجاياه:

كان ورعاً تقياً، خاشعاً لله، وقوراً، حسن المعشر، ذا خُلق رفيع، جمع بين العلم والعمل، الزهد والتأثير، الدعوة والتعليم، الخطابة والتأليف.

وفاته:

توفي رحمه الله تعالى في حدود الثانية والخمسين من عمره، لكنه خلف إرثاً علمياً ودعوياً يفوق الأعمار، وكانت منيّته في مصر العربية التي سافر إليها للعلاج وقبر في المقطم بالقاهرة عليه رحمة الله تعالى.

جزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، وجعل علمه صدقة جارية في ميزان حسناته.

جمعت الترجمة من أبحاث طلاب الماجستير والدكتوراه التي بعنوان نيل المقصود شرح سنن أبي داود للشيخ العلامة القاضي علي بن محمد زاكن باحنان دراسة وتحقيق ولمزيد عن معرفة سيرة الوالد الشيخ علي بن محمد زاكن باحنان عليه رحمة الله تعالى يمكن الرجوع لكتابنا والموسوم بـ"**طرفة البيان بسيرة سيدي الوالد علي باحنان**".

97
العدد (37)
يوليو
سبتمبر
2025م

صيف عاصمة دوعن التجارية

حاذر ما دوعن إلا بصيف





استطلاع/
يوسف عمر باسنبل

الموقع والتسمية:

تقع منطقة صيف العاصمة الإدارية لمديرية دوعن في قلب وادي دوعن، وتحديداً بعد ملتقى الواديين الأيمن والأيسر، اللذين يشكلان مجرى واحداً، حوالي 3 كم، بعد التقائهما تقع هذه المنطقة التي تستقبلك، وهي منبسطة على أرض سهلية، تقدّر مساحتها حوالي 12 كم مربعًا، وترتفع عن سطح البحر بحوالي 935 متراً، يحدُّها من الناحية الشمالية الغربية منطقة قيدون ومن الناحية الجنوبية الشرقية منطقة فيل، ومن ضواحي صيف حصن الجعافرة وحصن بوحسن وحصن بانخر، وتحيط بالمنطقة بساتين النخيل والأراضي الزراعية من الناحية الشرقية امتداداً من الجنوب للشمال التي تفصلها عن المجرى الرئيس لوادي دوعن، ويخترق صيف رافدان صغيران، يسمى أحدهما الصيق وتقسم مياهه على ثلاثة محاور، تقوم بريّ الأراضي الزراعية، والفائض منه يتجه إلى مجرى وادي دوعن، والرافد الآخر يسمى شِعب خذوف، الذي تُقسَّم مياهه بين الأراضي الزراعية وأشجار النخيل، وتوجد بعض الأودية المعلَّقة التي تُسمَّى (الصيقة)، ومنها صيقة باعقيل وصيقة شيخان.

وعن سبب التسمية يقول صاحب الشامل السيد علوي بن طاهر الحداد: إنها سميت باسم أحد قدماء حمير. ويذكرُ ابْنُ عبيد الله السقاف في إدام القوت في ذكر بلدان حضرموت أنها سميت باسم قبيلة من حمير يقال لها صيف، كانت تسكنها في سالف الزمان. ويشير باحنَّان في كتابه (جواهر تاريخ الأحقاف) في شرحه لقول الهمداني ما نصه... يعني بذلك في وادي دوعن فإنَّ بها قرى الحمير كصيف وفيل، وهما اسما رجلين من حمير سُمِّيَت البلدتان بهما.

سكان صيف:

يسكن منطقة صيف عددٌ من القبائل، منهم آل العمودي وبلشرف وبانخر وبادغيش وباحمدان وبادحدح وباناعمة وجمل الليل واليهري وباقطيان وبن سلمان وبخضر وباسلاسل والمسيلي وبن صويلح وباموسى والزهيري وباضاوي وقنيوي والعامري وبامهير وبن زقر وبادولة وباسعد وفقيهان وبارمضان والحضرمي وتمان وغيرهم من القبائل، ويبلغ عدد سكان صيف حوالي 3000 نسمة، يشتغلون بالزراعة خلال موسم الأمطار والسيول على وجه الخصوص؛ لأنَّ الأراضي الزراعية تعتمد على مياه السيول القادمة من وادي دوعن بشقَّيه الأيمن والأيسر، ويزرعون خلال مواسم السيول الذرة البيضاء بدرجة أساسية، إضافة إلى الدُّجر، ويمارس البعض من أهالي صيف بعض الحرف اليدوية التي امتهنوها، مثل صناعة الفخار، وظلت هذه الصناعة لسنوات طويلة حرفةً رئيسةً لأسرة آل بخضر، وهي الأسرة الوحيدة بصيف التي تتقن هذه المهنة؛ إذ كانوا يصنعون الكثير من الأواني الفخارية، منها الفناجين التي تُشرَب فيها القهوة (البن)، ويجدُ الشاربُ مذاقًا خاصًا لطعم القهوة، وما يزال البعضُ إلى الآن ممن يعرفون قيمتها وممن يلتذُّون بمذاق القهوة في هذه الفناجين يشترونها، وعند قدوم شهر رمضان على وجه الخصوص، إضافة إلى صناعة الخزب والزيار والقناني، وهي أوانٍ لحفظ الماء وتبريده، لكن هذه الحرفة اليومَ في طور الاحتضار؛ ويعود ذلك إلى هجرة مَنْ يُتقنُون هذه الحرفة إلى خارج صيف، وقلة الطلب عليها، ووفاة الأجداد الذين كانوا إلى وقت قريب يتقنون هذه الصنعة وعدم تعلق أحفادهم بها وتعلمها، ومن الحرف الأخرى الموجودة في صيف صناعة الخوص التي تعتمد على خوص النخيل وسعفه، وتصنع منها عددٌ من المستلزمات المنزلية، مثل المراوح اليدوية، والكوافي، وسفرة الطعام، وستائر النوافذ التي تُسمَّى محليًا باسم (الشجب)، ويعمل بها أسرة آل باسعد و آل بارمضان،



إضافة إلى حرفة الصياغة، ويعمل بها أسرة آل باقطيان وآل بن سلمان، إضافة إلى مهنة النجارة التي ما يزال آل فقيهان يمارسونها ويعمل البعض منهم في مهنة التجارة، ومنطقة صيف كغيرها من مناطق دوعن قد هاجر أهلها داخليًا وخارجيًا، وانتشروا في مختلف الدول، لكن حضورهم الأقوى يبقى في المملكة العربية السعودية.

صيف في التاريخ:

جاء في كتاب معجم بلدان حضرموت المسمَّى "إدام القوت" في ذكر بلدان حضرموت أنَّ الشيخ عمر بامخرمة قال لبدر بوطويرق: (حاذر على صيف، شف ما دوعن إلا بصيف). وكانت صيف في القرن العاشر الهجري مثل كثير من بلاد دوعن تحت حكم ثابت بن علي النهدي، وفي سنة 945هـ خرج أهالي صيف عن طاعته وعدلوا صيفًا للسلطان بدر بوطويرق، فأهداها للشيخ عثمان العمودي، ثم ما تزال الحرب سجالاً بينهم، ونظراً للموقع الاستراتيجي الذي تتمتع به صيف

وما تحظى به من ميزات؛ إذ كانتْ محطَّ أنظار جميع الدويلات والقبائل وأطماعها في ذلك الزمن، وآخر مَنْ حكمَها الدولة القعيطية، وذلك قبل الاستقلال من الاستعمار البريطاني، وقد ذكر صاحب كتاب الشامل بما نصه ((**وتولاَّها آلُ علي بن فارس، ثُمَّ بدر بوطويرق، ثم آل العمودي، ثم صارت إلى آل محمد بن سعيد منهم، ثم إلى السلطان القعيطي**)).

وفي أيام حكم الدولة القعيطية كانت صيف تابعة للواء دوعن، واستمرت كذلك في عهد الدولة السابقة تحت مُسمَّى المديرية الغربية منذ عام 1967م، وفي عام 1972م أصبحت صيف عاصمة مديرية دوعن، ولكن بعد أربع سنوات انتقلت عاصمة المديرية إلى مدينة (حريضة)، وفي عام 1998م صارتْ صيف مرَّة أخرى عاصمة لمديرية دوعن، التي تضم مناطق وقرى وادي دوعن بشقَّيها الأيمن والأيسر وما جاورها من قرى السَّيطَان وبعض المناطق الممتدة من صيف باتجاه مفرق المشهد مروراً بمدينة الهجرين.

ومن الذين مروا بصيف من الأوروبيين وكان له أصعب المواقف بها الرحَّالة أدولف بارون فون فريدا وذلك عام 1843م، فعرف الناسُ هُوِيَّتَهُ فأنزلوه عن ظهر الجمل عُنوَةً وجَرَّدُوهُ من سلاحه، وأوثقوا يديه خلفَه، ثم اقتادوه والدَّمُ ينزفُ من وجهه، وكاد أن يقتل على يد حاكمها محمد بن عبدالله بن عيسى أشمدي؛ إذ قرَّر أنه جاسوس إنجليزي، ثُمَّ تَمَّ التحفُّظ عليه وسُجِن ثلاثة أيام، ولكنَّ مرافقيه استطاعوا إطلاقَ سراحه ومغادرته إلى المكلا بعد تسليم كل ما بحوزته من مذكرات إلى حاكم صيف، وأخفى الأشياء المهمَّة من مذكراته، وسلَّم بعض الأشياء المدوَّنة بقلم الرصاص التي ليس لها أهمية كبرى، ثم غادر وادي دوعن بعد أن ترك صيف، التي تعد خاتمة المطاف لرحلته.

ومن الذين مروا بصيف أيضاً الرحَّالة ليوهيرش في عام 1883م، متبعاً في ذلك سير (فون فريدا)، وقد شاهد في أثناء رحلته في دوعن وحضرموت مزيداً من الآثار، غير تلك التي اكتشفها (فريدا)، وقد اتَّسمتْ رحلتُه بالاهتمام بالآثار والنقوش والأدلة التاريخية على نمط الحياة القديمة للمنطقة. أمَّا الرحَّالة دانيال فان دير مولن وهيرمان فون فيسمان فقد مرَّا بصيف في رحلتهما في عام 1931م. وقد كانت رحلتهما من أنجح الرحلات العلمية؛ لأنهما قد استفادا من تجارب الرحَّالة الذين سبقوهما. كمَّا مرَّ بصيف الرحَّالة وليم هارولد إنجرامس عام 1934م، وزوجته دورين إنجرامس في عامي 1934-36م، وكانت صيف إحدى محطات رحلتها إلى مناطق وادي حضرموت، وقد ذكرت لها وصفاً مقتضباً في كتابها (أيامي في الجزيرة العربية). كما مرَّت بصيف الرحَّالة الإنجليزية فريا ستارك في عام 1935م في أثناء قدومها من أيمن الوادي متَّجِهَةً إلى الهجرين ثُمَّ المشهد ثم إلى عدد من قرى حضرموت ومدنها. كما مرَّت الطبيبة الألمانية إيفا هويك في عام 1954م في أثناء مقدمها إلى عرض باسويد في منطقة لجرات، وصادفت في أثناء وجودها بلجرات حدوث الطوفان في أغسطس من العام نفسه.



وكان لصيف نصيبٌ من الزيارات التي قام بها السلاطين والرحَّالة والمؤرِّخون الحضارم إلى دوعن؛ إذ كانتْ إحدى البلدان المهمَّة بالوادي؛ فقد ذكر عبدالله الناخبي في كتابه (القول المختار فيما لآل العمودي من الأخبار) عن دخول السلطان بدر إلى صيف ما نصه: ((وفي رمضان 948هـ هجم بدر على قيدون وفتك بها فتكًا ذريعًا... إلى قوله: وانثنى إلى كريف قيدون فهدمه وعزم على أن يخرب قيدون جملةً وينقل أهلَها إلى صيف، وفعلاً نفَّذ عزمه...)). كما زار صيف السلطان عمر بن عوض القعيطي وذلك في عام 1934م. كما ذكر ذلك محمد سعيد الحاج في كتابه (عمر بن عوض القعيطي).

كما زار صيف الحبيب أحمد بن حسن العطاس في عام 1326هـ مصطحبًا معه تلميذه المؤرخ السيد علوي بن طاهر الحداد، كما زارها العلامة السيد عبدالرحمن بن عبيد اللاه السقاف في عام 1360هـ.

التعليم في صيف:

بدأ التعليم في صيف مثل بقية مناطق دوعن عبر العُلَم، التي كانت تقام في البيوت؛ إذ نشطت الحركة العلمية منذ منتصف القرن الرابع عشر الهجري، وقد كانت السيدة الفاضلة صفية بنت جمل الليل من أوائل من افتتح التعليم الأهلي في البلد؛ إذ كان بيتها منارة للطلاب يتعلمون لديها القرآن والحساب والخط، كما افتتح الشيخ عبد الله بابراهيم باداود ويسلم باداود عُلَمًا في بيوتهم، وظلت الحالة هذه حتى عاد الشيخ الفاضل أحمد بن سالم بامفلح من أرض



الحجاز، وكان قد تلقَّى تعليمه في مدرسة الفَلاَح التي أنشأها الحاج (زينل)، ونهل من العلوم حتى تميز عن أقرانه. وعاد ويحدُوهُ الأمل لتبديد ظلمات الجهل السائد في بلاده، فبادر مسرعًا إلى افتتاح (كُتَّاب) لتعليم الأولاد القرآن الكريم والكتابة ومبادئ الحساب، وقد اتخذ من الطابق الأرضي في بيته مكانًا لتلك المهمة العظيمة، وكان يعلِّم الأولاد في الصباح، وبعد صلاة العصر يُلقِي دروسًا على المصلين بالمسجد الجامع، ثم بادر إلى توسيع دائرة التعليم فافتتح مدرسةً للأولاد في أحد بيوت البلد (بيت العادة)، وأوكل أمرها للشيخ سالم أحمد بامحمد باحمدان وقد أسهم الشيخ بامفلح بحظٍ وافر في نشر العلم والتعليم في قريته، وكان يبذل وقته وجهده للصغار والكبار، ومن أشهر العُلَم عُلمة الشيخ سعيد سالم باحمدان في بيته، وعُلمة الشيخ محمد سالم باناعمة، وعُلمة الشيخ محمد علي باحنان، وقد استقر في صيف فترة من الزمن الإمام محسن بن علي الحداد الذي انتقل إليها من قيدون وكان إمامًا لمسجد عقبة، وعالمًا فقيهًا، قصده الطلاب ينهلون من علمه، منهم مبارك سالم بامفلح، وعبد الله باسعيد بادغيش.





في عام 1363هـ الموافق 1944م كتب أحمد بامفلح رسالة للشيخ محمد علي زاكن باحنان صاحب كتاب جواهر تاريخ الأحقاف، يطلب انتقاله من نسرة إلى صيف، فوافق الأخير على طلبه، فأقام الشيخ بامفلح استقبالاً مهيباً للشيخ باحنان، وصنع له حفلاً مشهوداً، وقد نشأت بينهما فيما بعدُ علاقةٌ أخويَّةٌ متينة، ثم واصل باحنان مشروع بامفلح التعليمي، فقام بعد زمن ليس باليسير مع ابنه علي محمد باحنان وبالتعاون مع المحسنين من أهل صيف بتأسيس (مدرسة الفلاح)، وترتيبها إداريًا ومنهجيًا وماليًا، وقد بُنيت المدرسة على أرض تقع جوار (الجابية)، وتعاون غالب الأهالي في بنائها، وكان البعض منهم ينقل الطين والآخر يجلب الماء، وتم توفير الأخشاب حتى استقام البناء، وقد ذاع صيتُها، وانتفع بها الكثير من أبناء صيف والقرى المجاورة، وكان يُدرّس فيها القرآن والفقه والنحو ومبادئ الحساب، وقد تتلمذ فيها الكثير من أبناء المنطقة.

وهنا نذكر بعض النصوص الشعرية التي قيلت في صيف ومدرستها ومديرها الشيخ محمد باحنان والمنفقين عليها من آل باناعمة وآل بامفلح وآل باصلوح وغيرهم كثير، فمن ذلك القصيدة التي أرسلها السيد علوي المالكي من مكة المكرمة بتاريخ 22 جمادى الأولى هـ الموافق 17 / 2 / 1952م، نختار منها هذه الأبيات:

تلك الفلاح بدت في صيف تزدهر وروضها مثمر بالعلم يفتخر
تسير نحو العلا والدين رائدها تقضي على الجهل لاتبقي ولاتذر
تسمو بطلابها للمجد راقية يديرها حازم أعماله غرر
أعني به الشيخ باحنان من حسنت آثار إخلاصه في القطر تنتشر

وهذه أبيات من قصيدة للسيد الفاضل الأديب الداعي إلى الله عبدالله الهدار:

زهت صيف بنشر العلم فيها وصار العلم يعرف في بنيها
ومدرسة الفلاح سمت فخاراً وتاهت وازدهت شرفا وتيها

وقال العلامة الأديب حسن بن أحمد السقاف:

ومدرسة لما نزلت بسوحها جذلت بأبناها الكرام الأماجد
لقد سرني لما نظرت نظامها فحصنَّها الرحمن من كل حاسد
فحقا ترى فيها الكمالات كلها بناء وتعليماً بكل الفوائد
هنيئاً لكم يابانيين تقرُّبًا إلى الله بالحسنى وكل المحامد

ويكتب العالم والمؤرخ علوي بن طاهر الحداد هذه الشهادة بعد دعوة تلقَّاها لزيارة المدرسة فقال: ((بمناسبة أن صديقي العلامة: محمد بن علي بن زاكن باحنان مقيم ببلدة صيف المشهورة، انتهزت في تلك الفرصة زيارته في منزله فكان كما كنت أعتقده كريماً من الكرماء، وعظيماً من العظماء، وفق للمبالغة بالاستبشار بقدومي إليه مساء يوم السبت رجب 1371هـ الموافق 11/ 4/ 1952م فقد مهَّد لي السبيل للاجتماع بتلاميذ مدرسة الفلاح الأهلية، وبمبناها الضخم الجديد الذي تكفَّل به المشايخ الكرام سالم وعبدالله أبناء أحمد سالم (العادة) باناعمة... وحدثتْ بيني وبين أهل القسم الرابع، مناقشات بصفة سبر غور لمعارفهم، فإذا هم نجباء يبشرون بمستقبل باهر لهم ولوطنهم)).

أما عبدالله الناخبي ناظر التعليم الأهلي في السلطنة القعيطية فكتب شهادته فيما يأتي: ((أما بعد، فلمَّا منّ الله عليَّ وتفضَّلَ بزيارة صيف، وهو بلد من بلاد الأحقاف، سكن فيه العلامة الكبير الشيخ محمد بن علي زاكن باحنان الكندي، وزُرنَاهُ ونزلْنا عندَهُ، وزُرنَا مدرسته وأهلَ بلده، فوجدناهم على صلاحٍ وتقوى، ورأينا تلاميذه النجباء لا يُوزَنُ بهم الجبل من الذهب من خلوقهم وآدابهم، وفق الله بهم الخير العميم لصلاح الناشئة والبلاد، وأشكر الشيخ المشار إليه شكراً جزيلاً)). وقد نشر الاحتفاء بالمدرسة في صحيفة الأيام العدنية في العدد (643) في السنة الثالثة بتاريخ 19 ربيع أول سنة 1380هـ الموافق 10 سبتمبر 1960م تحت عنوان: ((هنيئاً لبلد صيف)).

أما بواكير التعليم الحكومي في المنطقة فقد بدأت منذ ستينيات القرن الماضي، ومن أوائل المدرِّسين من أبناء ساحل حضرموت الذين أسهموا في حركة التعليم الأستاذ سعيد سنجل 1962م، وناصر جوبان 1963م، وعوض الحضرمي 1965م، وعوض سالم بوعسكر 1966م، وأبوبكر عوض الحضرمي 1966م، وسالم أحمد مسهور 1967م، وسالم أحمد بلَقدي 68م، كما أسهم في التعليم من أبناء دوعن الأساتذة جمعان أحمد باعمر 1968م، وعثمان بالعرج العمودي 1968م، وأحمد عبيد محارق 1968م، وسالم احمد العرابي الخنبشي 1968م وغيرهم.

ثم تمَّ بناء مدرسة الشهداء الموحدة بصيف عام 1969م الواقعة في وسط البلد، وافتُتحَتْ رسميًّا عام 1973م، وظلَّت منارة شامخة تخرَّج فيها الكثير من أبناء المنطقة، وفي السنوات الأخيرة تم إنشاء مبنى جديد للمدرسة على نفقة


مدرسة الشهداء للبنات


ثانوية المصموم بصيف

المرحوم سعيد بن محمد باعمر باناعمة (محيقن)، وافتُتحَ في سبتمبر عام 2003م. وتم تحويل مبنى المدرسة السابق ليكون خاصًا بالطالبات في عام 2007م؛ إذ تمَّ فصلُ البنات عن البنين، وفي عام 2010م زُوِّدَتْ مدرسة البنات بكادر من المعلّمات من ساحل حضرموت بتمويل من الشيخ عبدالله سالم باحمدان، وبعد افتتاح مجمَّع السيدة خديجة بمنطقة الجحي التحقت أوَّلُ دفعة من بنات صيف بالمجمع (التعليم الثانوي)، الذي ضمَّ عدداً من طالبات وادي دوعن، وفي عام 2014 م تمَّ فتحُ مساق دبلوم معلمات الريف، فالتحقَتْ به طالباتٌ من صيف، وتخرَّجنَ منه في العام الدراسي 2016 - 2017م؛ ليصبح كادر التدريس بمدرسة الشهداء فرع البنات من معلمات من بنات منطقة صيف.

وفي تسعينيات القرن الماضي تم افتتاح أول ثانوية حكومية في وادي دوعن؛ لتخفف عن الطلاب الذهاب إلى حريضة والمكلا لدراسة المرحلة الثانوية، وكان لأسرة آل بامعروف وعلى رأسهم عميدها الشيخ أحمد بامحمد بامعروف العمودي دورٌ في افتتاح ثانوية المصموم بصيف في عام 1992م، وكان يشرف على إدارتها الأستاذ محسن عبد الحافظ العمودي - رحمه الله - حتى إحالته للتقاعد في عام 2009م.

أمَّا التعليم الديني في المساجد المتمثل في حلقات تدريس القرآن الكريم وعلومه فقد مضى موازيًا للتعليم الحكومي؛ إذ بدأ التعليم بمسجد الجامع الأستاذ احمد سعيد حميد في ثمانينيات القرن الماضي، ثم أقام الأستاذ محمد مبارك سالم مطران حلقات تحفيظ القرآن بمسجد علي في مطلع التسعينيات،


دار القرن

وقد أنشئت أول مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم بالمنطقة في أبريل عام 1997م، وكان يُدرَّس فيها القرآن الكريم وعلوم الشريعة الإسلامية، ثُمَّ ظهرت الحاجة بعد ذلك إلى تعليم الفتاة فأُنشئَتْ مدرسة سُمَيَّة لتحفيظ القرآن الكريم في 20 / شعبان/ 1420هـ الموافق 28/ 11/ 1999م بدار الشاطري (بادغيش)، وقد افتتح بالمدرسة مركزٌ لمحو الأمية للنساء، ثم بعد ذلك نقلت إلى بيت علي باعمر باناعمة بجانب دكان المردوف باسلاسل.

معالم صيف:

تمتاز منطقة صيف ببعض المعالم التي تميزها واشتهرت بها، وتعد البيوت القديمة التي ظلت لسنوات طويلة قائمة ولا يزال البعض منها مأهولاً بالسُكَّان والآخر قد هجر، ومن معالم صيف البارزة:

دار القرن: وهي عبارة عن قصر شامخ يستقبل القادمين من جهة الشمال، يتربَّع على جبل صغير، يُسَمَّى قرن غشان، وإليه نسب هذا القصر وسُمِّي باسمه، ويعد أكبر مبنى سكني بالمنطقة، ويعود لأسرة آل العمودي أبناء محمد علي العمودي، وتم بناؤه بين 1965-1971م، وهو من تصميم المعلم صالح سالم بامهير وتنفيذه، والذي قام ببناء الطابقين الأول والثاني، ثم قام باستكمال البناء المعلم الدموني، في حين قام بأعمال الخشب من أبواب ونوافذ وأعمدة المعلم محفوظ باجحاو باطرفي وساعده المعلم عوض رجب بامدحج، وكثيراً ما يقف عنده السُيَّاح الأجانب لالتقاط الصور له، ويشتمل هذا القصر على 24 غرفة، وهو مبنيٌّ من الطين والنُّورة، ومؤخَّراً تم إعادة ترميمه وطلائه بالألوان الزاهية.

المصنعة: وهي مجموعة مبانٍ طينية، تقع على تلٍّ، وتبدو للعيان من جميع الجهات، وتعود لأسر آل العمودي. ولابن عبيد الله السقاف في كتابه معجم بلدان حضرموت إشارة إلى هذا المعلم بقوله: ((ولها - أعني صيفًا - قلعة صعبة المرتقى يسكنها الشيخ باعلي وهو شيخ شهم رحب الجناب واسع الصدر كريم الشيم من ذرية الشيخ علي بن سعيد بن عيسى العمودي)) وغيرها من المعالم.

وذكر الحداد في كتابه الشامل في حوادث سنة 937هـ قوله: ((وفي الثاني والعشرين من شهر شعبان خلع الشيخ عمر بن الشيخ أحمد العمودي نفسه من ولاية الحصون تحت نظره،


مصنعة آل العمودي

ومنها صيف وبضه، وتولّى عنه أخوه عثمان)). واليومَ أصبحت المصنعة قِبلةً للزائرين بعد إعادة ترميمها وصيانتها في 24 ربيع الأول 1438هـ الموافق 23 ديسمبر 2016م بعد تدخُّل المُلاّك من آل العمودي للحفاظ عليها؛ إذ يعود تاريخ بنائها إلى عام 1117هـ لتبقى شاهدة على تاريخ زاهر.

حصن العسكر: وهو حصن قديمٌ، مبني من الطين، يقع بالقرب من المعلم السابق دار القرن، وعلى الجبل نفسه،



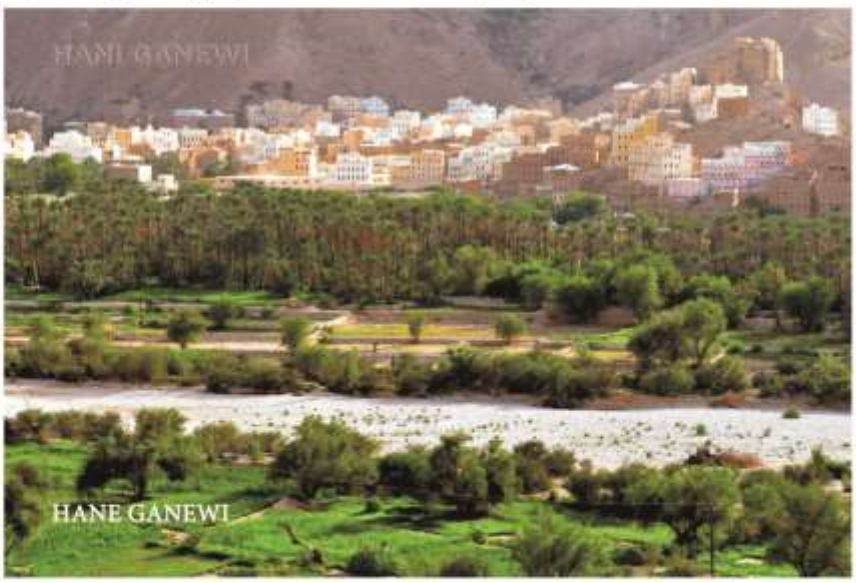
ويعود إلى زمن الدولة القعيطية، وكان بمثابة حصن للعسكر التابعين لتلك الدولة، وقد ذكره صاحب الشامل عندما بدأ بوصف وادي قيدون بعد خروجه من صيف متّجهًا صوب قيدون بقوله: ((فتمرُّ أولاً بمجرى شعب الصيق، وفوقها حصن أحدثه القعيطي لعسكره، ثُمَّ تمرُّ بساقية الهرمة، وعن يسارك الجبل، وعن يمينك جروب الهرمة، وهي لأهل صيف...))، وهذه الجروب (وهي مساحة من الأرض تستخدم للزراعة) التي ذكرها الحداد في كتابه الشامل هي اليوم قد مرَّ بها خط الإسفلت منذ عام 2005م وقطع عن الكثير منها مياه سيول شعب الصيق، وبدأ الناس ينشئون المباني السكنية والتجارية على جانبي خط الإسفلت.

جامع صيف: لا يُعرَفُ تاريخُ بنائه، غير أنه توجد مخطوطة على غلاف مصحف تحدّد تاريخ الانتهاء من عمارة حمَّامات المسجد (وهي غرفة في مقدمة المسجد يوجد بها محراب يصلى فيها أيام البرد)، إذ يتضح أنَّه تمَّ الانتهاء من عمارتها في 15 شعبان 1276هـ الموافق 8 مارس 1860م، وذكر ابنُ عبيد اللاه السقاف في كتابه إدام القوت أنه ((جامع لا يوجد مثله بوادي دوعن في حسن العمارة))، وقد شهد في النصف الأول من ثمانينيات القرن العشرين تجديداً لعمارته؛ إذ تمَّ استبعاد جميع الأعمدة الخشبية القديمة (السواري) ووضع مكانها أعمدة من الحجارة، وتمَّ رفع سقف المسجد من دون إحداث توسعة للمسجد، وفي مطلع التسعينيات شهد المسجد توسعة جديدة وإزالة ما يسمى بالحمّام وإدخاله ضمن المسجد مع توسعة من الناحية الشمالية، ثُمَّ شهد المسجد توسعة أخرى عام 2019 وترميمه.

ويوجد بالمنطقة مساجد أخرى، منها مسجد الحوطة، ومسجد جحلان، ومسجد علي، ومسجد عُقبة، ومسجد الزهرة، ومسجد الرحمة، وغيرها من المساجد الصغيرة.

الزراعة:

تعد الزراعة من الأعمال التي يمارسها سكان منطقة صيف خلال موسم الأمطار والسيول شأنهم شأن بقية أبناء وادي دوعن، ويوجد بصيف ساقية الخيس التي تستقبل مياه السيول



105
العدد (37)
يوليو
سبتمبر
2025م



القادمة من وادي دوعن الأيمن والأيسر، ويبلغ طولها 2.5 اثنين ونصف الكيلو متر، وتروي مساحةً تقدَّر بحوالي 10000 مطيرة (المطيرة تساوي 14 ذراعًا في 7 أذرع)، وتتكون الساقية من شبكة ري داخلية مكوَّنة من الحرَّة، وهي فتحة أسفل الساقية، والبداد وهي جمع بُدّ (سواقٍ فرعية)، ومناك تكون مهمتُّها تصريف المياه الزائدة، ومساقٍ، وقد حدد مُلاَّك الأراضي (الموّالة) منذ زمن بعيد نظام العمل في الساقية، ومن أهم الموَّالة بساقية الخيس: آل باحمدان، وباناعمة، وبادحدح، وبانخر، والعمودي، وبادغيش.

المياه والكهرباء:

كان الناس في صيف في السابق يستقون الماء لبيوتهم بوساطة القِرَب (جمع قربة)، والمعارص (جمع معرص، وهو سطلان يربطان بعصا يحملان على الكتف)، من الآبار والعيون، وكان أمراً شاقًا ومُتعبًا ويأخذ جُهداً ووقتًا، وكان جُلُّ الأهالي يلاقون مشقة في نقل الماء إلى بيوتهم على أكتافهم أو على ظهور الحمير من شعب خذوف أو من شعب الصيق أو من العين، إلى أن أقام الأهالي عَتم (مجرى ماء من الحجارة) من منطقة خذوف إلى داخل صيف، ويعد هذا العتم والجابية أيضًا من معالم المنطقة؛ إذ يعود تاريخُها إلى أربعينيات القرن الميلادي الماضي عندما أسهم عدد من أهل الخير من أسرة آل العادة (باناعمة) في مد مجرى للماء (عتم)، وقد بني من الأحجار والنورة، ويمتدُّ من عين خذوف، ويأخذ طريقًا متعرّجًا حتَّى يَصُبَّ في الجابية، وهي صهريج ماء كبير، تم بناؤه أيضًا بالحجارة والجص في عام 1367هـ الموافق لعام 1948م، وتقع الجابية بالقُرب من مبنى المدرسة القديمة (مدرسة الفلاح)، وقد بنيت جوابٍ صغيرة داخل البلاد؛ لتقريب الماء للناس، وزُّعَتْ حسب الكثافة السكانية للمنطقة.

وفي سبعينيات القرن الماضي تم بناء خزان كبير، يقع فوق الجابية، ومُدَّتْ منه شبكة أنابيب (مواصير) في عام م لتصل إلى جميع البيوت. وكان الشيخ أحمد بامفلح قد أوصى قبيل وفاته بحفر بئر ماء ارتوازية، وكان ثاني بئر يتمُّ حفرُه في المنطقة بعد البئر الأولى الارتوازية، التي تمَّ حفرُها على حساب الدولة، وهناك مصدر آخر للمياه التي تغذي البلدة وهو عيون خذوف والصيق، وفي عام 2015 تمَّ تزويد مشروع الماء بألواح الطاقة الشمسية؛ لغرض تشغيل مضخات الآبار، وقد جاء هذا المشروع بسبب توقُّف محطة كهرباء دوعن وانعدام المحروقات، وتوسُّع المنطقة وزيادة عدد السكان.



وبالنسبة للكهرباء فقد عرفت صيف الكهرباء في 20/ 12/ 1980م بعد أن قامت اللجنة الأهلية في البلاد ولجنة المهجر المكوَّنة من العم سعيد محمد العمودي، والشيخ عمر أحمد بادحدح والشيخ أحمد بن سعيد باحمدان والشيخ سعيد أحمد باناعمة، بالسعي لتوفير مولد كهرباء للبلاد، وأشرفت اللجنة الأهلية في صيف على مشروع ماء صيف وكهربائها وتولَّت إدارته، وكان نظام التشغيل من قبيل المغرب إلى الساعة الحادية عشرة والنصف ليلاً، وتمَّ ربط صيف بكهرباء وادي دوعن عام 2004 م.

أبرز الشخصيات في منطقة صيف:

أنجبت منطقة صيف عدداً من الشخصيات في مختلف المجالات على مر السنين، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر بعض الشخصيات:

الشيخ/ سعيد بن سالم باحمدان:

ولد الشيخ سعيد في بلدة صيف في 1286هـ - 1863 م وقد تعلم الفقه، وحفظ القرآن الكريم في تريم امتهن حرفة الحراثة - إضافة الى مهنة التعليم وأصبح حكمًا قويًا فيها حتى لقب بـ(العادة) تولى حكم صيف من قبل المقدم عمر أحمد باصرة حاكم دوعن من قبل السلطان القعيطي، غير أن باصرة عزله نتيجة الحكم الصادر ضده في قضية خلافه الزراعية مع آل بلحمر، وعين مكانه أربعة نفر هم : سعيد العمودي، وأحمد بروك بادغيش، وسعيد أحمد بادغيش، وسعيد عبدالله باحمدان، ولكن الأمور لم تسير كما كانت على عهد الشيخ سعيد، وقد حاول المقدم عمر إعادته فرفض.

كان للشيخ سعيد أيادٍ بيضاءُ في فعل الخير، وإصلاح ذات البين، وقد استمر على تلك السيرة العطرة حتى وفاته في عام 1395 هـ - 1975م.

العلامة المؤرخ/ محمد علي باحنان:

ولد في تريم في عام هـ -م بين أحضان والدين صالحين، ولم يبلغ الثانية عشرة من سنه، حتى توفي والده، فنهضت به أمه، واعتنت بتربيته وتعليمه؛ إذ أدخلته مدرسة الشيخ الحسين بعينات، وهي حينئذ أشبَهُ بكُتَّاب، فقرأ على الشيخ/ عبدالرحيم باحمود القرآن الكريم، وبعد ظهور العلامة الحسن بن إسماعيل، وقيامه بالتدريس في عينات، دفعته أمُّه إليه، وقد كان الشيخ يشجع باحنَّان على العلم ومضاعفة الجهود حتى حفظ كثيراً من المتون، وقرأ ألوانًا عدَّة من الكتب المطوَّلة والمختصرة. كما عملت أمُّه على حشد كثير من أقرانه للتعليم أناء الليل وأطراف النهار، من أجل شحذ همَّته، ولمَّا بلغ سنَّ المراهقة سافر إلى تريم، وأخذ عن علمائها في الرباط، مثل العلامة عبد الله عمر الشاطري، وعبد الباري بن شيخ العيدروس، والعلامة علوي خرد وغيرهم.

قدم في آخر شهر صفر 1334هـ - 1916م عينات العلاَّمةُ أحمد بن حسن العطاس، فطلب باحنَّان من الشيخ، أن يسمح له بصحبته إلى دوعن وحريضة، فقبل بعد موافقة أمه.

توفي العطاس في رجب 1334هـ - 1916م، بعد أن انتفع باحنان ونهل من معارف أستاذه، ولمَّا تأسَّستْ جمعيَّة الحق بتريم، وافتتحت مدرستها، وتلتْها جمعية نشر الفضائل، قدم عينات السيد/ أبو بكر المشهور، فزيَّن للشيخ باحنان إنشاء مدرسة، فتم ذلك في عام 1336 هـ - 1918م جلس فيها باحنان للتدريس.

عندما خيَّم شبح المجاعة في عام 1360هـ - 1940م هاجر إلى دوعن، وقام بالتدريس في مدرسة نسرة حتى عام 1363هـ - 1943م، إضافة إلى معاونته للأستاذ/ سالم بن طالب في إدارة المدرسة، ثم انتقل إلى صيف، وهناك استقر، وانقطع للعلم والتعليم حتى عام 1382 هـ - 1962م عندما حجَّ ثانية، وفي هذه الحجة تمكن من طباعة كتابه (جواهر الأحقاف).

فاضت روحه إلى بارئها في عام 1385هـ - 1965م، وقد أشار الشيخ/ عمر بادحدح، إلى مدى عظيم تلك الخسارة، فرحمه الله رحمة واسعة.

من أبرز مؤلفاته كتاب التحفة السنية، شرح المختصر اللطيف (فقه) وهو جزءان، وكتاب اللؤلؤة الثمينة، ونظم سفينة النجاة، وكتاب المدد الفائض في علم الفرائض، وكتاب تقويم اللسان في علمي النحو والصرف لمرحلة التعليم الابتدائي والمتوسط، وكتاب العقد الثمين في سيرة سيد المرسلين، وكتاب القول الشاف في تاريخ الأحقاف في (9) أجزاء انتخب منها (جواهر الأحقاف).

الشيخ سالم بن سعيد باحمدان:

المولود في قرية صيف، ونشأ فيها وترعرع، يتصل نسبه إلى جده بن دحدح الذي كان الوزير الأول للسلطان أبي طويرق مؤسس الدولة الكثيرية الأولى في حضرموت، ثم اختار لنفسه الهجرة مثله مثل أبناء حضرموت ممَّن سبقوه خاصة من أهل دوعن، فشدَّ الرِّحال صوب مكة المكرمة وهو يحمل بين جنبيه آمالاً وأحلامًا كبيرة وهمَّة عالية وهو لم يتجاوز العاشرة من عمره، وكان الشيخ سالم يعاود السفر بين قريته (صيف) وأرض غربته إلى أن استقر به المقام في مدينة الرياض، فزاول أعماله التجارية فيها، وقد وفَّقه الله في تلك الأعمال.

وشاء الله بأقداره أن تُحقَّقَ أمنية الشيخ سالم بأن يكون لابنه عبد الله شأن كبير؛ فقد تقلد قيادة أكبر بنك في الشرق الأوسط، وتولى منصب رئيس مجلس الإدارة والعضو المنتدب فيه، وقفز البنك قفزات كبيرة في عهده، فمن شابه أباه فما ظلم، وإن هذا الشبل من ذاك الأسد.

الشيخ أحمد بن سالم بامفلح:

من مواليد صيف عام 1329هـ - 1911م، كان له دور رائد في التعليم في بلدة صيف؛ إذ افتتح مدرسة للأولاد في أحد بيوت القرية (بيت العادة، وكان يدرس بها القرآن والفقه والنحو ومبادئ الحساب، وقد تتلمذ على يديه الكثير من أبناء القرية)، تلقَّى تعليمه في مدرسة الفلاح بجُدَّة، وأكمل التعليم وتسلم شهادته بتفوق وامتياز، وبعد أن علا صيتُه طلبه محمد علي زينل، الذي كان ينفق على المدرسة، وهو تاجر لؤلؤ بالهند ليعمل معه في مكتبه بالهند، وهناك تمرَّس في التجارة وفنونها ليعود إلى صيف بعد خمس سنوات في الثلاثينيات من القرن الماضي ليفتتح المدرسة، وكان بعد العصر يلقي دروسًا في المسجد.

كان بامفلح شخصيةً مهمةً في منطقته، وله دور بارز في كثير من القضايا في المجتمع، وقد اقترح عليهم فكرة تشكيل مجلس بلدي فوافق الجميع على طلبه، وتم إرسال طلب للقائم بأعمال السلطنة القعيطية في دوعن بهذا المقترح. توفي في مدينة جدة في عام 1991م عن عمر قارب 83 عامًا.

الشيخ عمر أحمد السبيع بادحدح:

المولود في أجواء عام 1340هـ في حضرموت، وكانت مدرسته الحياة، وكان أول عمل مارسه بالأجر في أحد البيوت، وكان مردوده لا يزيد على 4 جنيهات في السنة، ثم تحوَّل إلى العمل في أحد الدكاكين بالأجرة نفسها، واكتسب الخبرة من خلال أعماله التجارية ومعرفة الناس والثقة بنفسه كرجل.

رأى في نفسه أنَّه قادر على تحمل المسؤولية والدخول في معترك الحياة في سن مبكرة جداً، وواصل تدرجه في هذا العمل حتى فتح محلاً تجاريًا صغيراً لبيع مختلف أنواع المواد الغذائية برأسمال 15 ألف ريال، ساعده في توفيرها الشيخان أحمد بن سعيد بقشان وعلي بن عمر باكرام، كان ذلك في عام 1367هـ حتى غدا من كبار التجار ورجال الأعمال في المملكة العربية السعودية.

وكان الشيخ عمر ممَّن أسَّسوا لجنة مساعدة السجناء المعسرين برئاسة صاحب السمو الملكي الأمير فواز بن عبد العزيز أمير منطقة مكة المكرمة حينها.

والشيخ عمر له أيادٍ بيضاء في فعل الخير، وخدمة طلبة العلم في التدريس العام والجامعي والمبتعثين، وله نشاط كبير في إصلاح ذات البين، وبذل الصلح بين المختلفين في مجال التجارة.

وكان الشيخ عمر بادحدح يفرح بانتشار دعوة الإسلام وتعاون أهله على الخير، توفي - رحمه الله - يوم الأحد 16 محرم 1433هـ الموافق 11 ديسمبر 2011م، ووري جثمانه الطاهر فجر اليوم التالي بمقبرة الفيصلية بجدة.

الشاعر الشعبي صالح بن صويلح:

من مواليد 1901م تقريباً، هاجر إلى السعودية صغيراً، ثم عاد إلى صيف للزواج، ثم تزوج في المهجر، ويعد ثاني مدير للبنك الأهلي التجاري فرع الرياض، وهو من مؤسسي مدرسة الفلاح بصيف والداعمين لهيئة التدريس فيها، وكان من المقرَّبين من الملك عبدالعزيز وأبنائه سعود وخالد وفيصل وفهد وسلمان، الذين كانوا أمراء في حياته، توفي عام 1376هـ الموافق 1956م عن عمر ناهز 55 عاماً.

وكان يعد أحد شعراء صيف ومن روائع قصائده التي قال فيها:

هاجس معي عامد غبب سيلان مبعد دخل جاوه ولا المالان
جز حياته راس قاره
يطلع ويندر لا حجل يفعان شارح ويتميح كما الشرحان
للفائدة ولا خسارة
قال للذي هو يبدع القيعان وان غاص جاب اللول والمرجان
من بحر مافيه النماره
ذكرت لي في دقم باغيلان بمات قلعة دحوا الجيلان
كيف قد ضيع سيارة

* * *

أبوبكر بن عمر باناعمة:

ولد ونشأ في صيف، وكان الخامس والأصغر في إخوته، أشرفت أمه على تربيته هو وإخوته؛ إذ توفي أبوه وهو صغير فنشأ يتيماً، تلقى تعليمه في كتاب صيف، وكان صاحب همَّة وعزيمة قوية، وكان طموحه أكبر من حقول القمح وبساتين النخيل التي كانت تمتلكها أسرته، ورغب في أن يشق طريقه بنفسه فهاجر إلى الحجاز في أواخر حكم الأشراف، وعمل فيها بجهد إذ كان يُعينُ نفسَه وأهلَه، وبعد سنوات عدَّة من الاغتراب عاد إلى حضرموت، ولكن ظل هاجس الهجرة يُلِحُّ عليه فلمْ يحقّقْ بعد طموحه، فهاجر إلى الحبشة حيث طالت سنوات الغربة والجهد والتعب من أجل أن يبني نفسه ليعود مرة أخرى إلى وطنه ويستقر به المقام في مدينة المكلا عاصمة السلطنة القعيطية، التي كانت في أوج نشاطها التجاري، فمارس فيها عدداً من الأعمال التجارية، وكان وكيلاً لعدد من الشركات العالمية، وفي عام 1962م تمكن من خلال الاقتراع المباشر من دخول المجلس البلدي (النُّوَّاب) في الدولة القعيطية، وكان ذلك أول مجلس نواب منتخب في السلطنة القعيطية.

له إسهامات خيرية وثقافية ورياضية عدَّة، مثل عضوية اللجنة التي أشرفت على بناء مسجد الشهداء في حي الديس، وكان أحد المؤسسين لنادي الشعب الرياضي بالمكلا، وكان أول رئيس للنادي؛ إذ عقد في منزله الاجتماع التأسيسي للنادي في أبريل 1964م، وبعد عام 1968م تغيرت الأحوال السياسية في حضرموت بعد تولي الجبهة القومية زمام أمور الحكم، وكان أحد المستهدفين إذ اعتُقِلَ مرَّات عدَّة وأُفرِج عنه، فقد كان رجلاً نزيهاً بعيداً عن الشبهات، ثُمَّ صودرت الكثير من ممتلكاته كغيره من التُجَّار، وفي ظل هذه الأوضاع هاجر كغيره إلى المملكة العربية السعودية لأجل العمل مرة أخرى، وهناك بدأ حياة عملية، توفي - رحمه الله في 30/ 3/ 1404هـ الموافق 4/ 1/ 1984م بمدينة جدة ودفن بمقبرة الأسد.

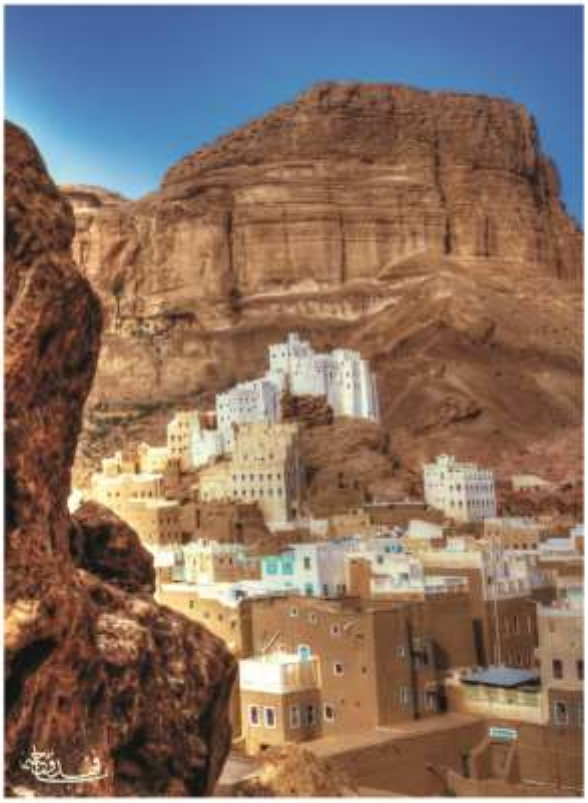
الطابع المعماري في صيف:

يقيم غالب أهل دوعن مبانيهم في سفوح الجبال، بحيث تكون مرتفعة عن مجرى السيول في الوادي، وعادةً ما يكون التوسع باتجاه الجبل؛ لتغطي تلك المساحة من الجبل الواقعة بين حافته الدنيا (السفح) وحافته العليا، وهذا الاختيار تمَّ من أجل تجنُّب خطر السيول، إضافة إلى أنه شكلٌ من أشكال التحصين والحماية ضد الهجمات التي تحدث بين حين وآخر في زمن الصراعات القبلية، وللحفاظ على الأراضي الصالحة للزراعة؛ للاستفادة منها لزراعة النخيل والحبوب.

ومنطقة صيف كغيرها من البلدان القديمة لم تقم على مخطط حضري ينظم مبانيها، ولكن كان البناء يتماشى مع الظروف الطبيعية للمكان؛ إذ إنَّ مجاري السيول أثرت كثيراً في تشكيل المنطقة، وفي الوقت نفسه كانت مباني بلدة صيف تتخذ شكلاً شبه دائري، تلتفُّ حول محور رئيس لها هي مبنى المصنعة.

كما أن امتدادات الشوارع الرئيسة القديمة لصيف باتجاه الشرق - الغرب، جعلت أهالي صيف يحرصون على أن تكون واجهة مبانيهم إمَّا إلى الشرق وإمَّا إلى الجنوب، وتؤكد البحوث العلمية التأثير القوي لأشعة الشمس في خط العرض الذي تقع فيه منطقة جنوب الجزيرة العربية من أجل التقليل من سخونة المبنى أو مجموعة المباني الساخنة؛ فإنها يجب ان تمتد في اتجاه الشرق - الغرب بنسب 1 : 3 . 1 ويعود السبب في ذلك إلى أن الواجهة الشمالية والجنوبية ذات السخونة الأقل بكثير من الواجهات الشرقية الغربية بنسبة أربع إلى خمس مرات.

وقد اتسعت بلدة صيف وامتدت باتجاه الشمال والجنوب، ولكن ما يزال غالب الأهالي يتخذون الجهة الشرقية أو الجنوبية واجهة للبيوت، وقد تميَّزت واجهات المباني في منطقة صيف بتعدد الطراز المعماري، وتنوع الملامح؛ حيث إنها دمجت بين البساطة والجمال في الوقت نفسه، أمَّا ارتفاعات



المباني فإنها تختلف من مبنى لآخر وغالب المباني الموجودة في صيف متقاربة من حيث الارتفاعات؛ إذ يتراوح ارتفاعها من دورين إلى خمسه أدوار، ويعد كل بيت مسكن لعائلة واحدة.

تفصيل المبنى:

يميل حجم البيوت في صيف إلى الاتساع، فكل بيت يحتوي على ملحقات، وهي عبارة عن أحواش تسمَّى باللهجة المحلية أوصار مفردها (وصر)، وتقسَّم هذه الأحواش، فمنها ما يخصص للحيوانات من أغنام وحمير، ومنها ما يخصص لتجفيف المحاصيل الزراعية كالحبوب والتمور، ويقال لهذه المخازن (معاقيب) ومفردها (معقاب)، وقد توضع مطاحن الحبوب التي يسمونها (مراهي) ومفردها (مرهى) في أحد هذه المستودعات، حيث تثبَّت في الأرض، وتقوم النساء بطحن الحبوب فيها، كما يخصص جزء من مساحة المبنى للدرج، وتسمى باللهجة المحلية (رقد)، والتي ترتكز على عمود كبير مبني من الطوب الطيني (المدر)، يعتمد عليه كل المبنى في ارتفاعه وقوته، ويُعرَف محلياً "العروس".

وفي بعض المنازل القديمة وغالبية المباني الحديثة تقام في الجزء الأسفل من المنزل الطابق الأرضي غرفة تحت أركان المنزل، وتُسمَّى (طاق)، هذه الغرفة تخصص عادة للضيوف من الرجال؛ لكي تعزلهم طيلة فترة الإقامة عن غرف بقيَّة المبنى، التي تخصص فيها الطوابق العليا للنساء، كما أنَّ لغالبية المباني مدخلَيْن: أحدهما أساسي ويسمى "سدَّة"، وآخر فرعي ويسمى (عرق)، والذي غالبًا ما يفتح على حوش للمبنى أو على جانب المبنى والممر الأرضي في المبنى يسمى "سقيفة"، وهو مما يلي المدخل الرئيس (السدة) مباشرة، أمَّا الممرَّات الداخلية في الطوابق العليا فتسمى محليًا السطوح (جمع سطح) وهو الجزء الذي يقع بين الدرج ومداخل الغرف.

وفي الطابق الثاني في المباني القديمة غالبًا ما يتكون من غرف صغيرة تسمى "أوسطة" (جمع وسوط)، وهي أيضًا تعد مخازن للمواد الغذائية وبعض المستلزمات الأخرى. أمَّا الطوابق الأخرى (الثالث والرابع) فهي مخصصة للسكن، والمطبخ يكون في بعض البيوت في الطابق الأخير.

أمَّا طريقة البناء في صيف فمتميّزة؛ إذ يتكون الطابق من غرف عدَّة، ولكن كل غرفة أشبه بالشقة الكاملة، حيث تكون منعزلة عن بقية الغرف الأخرى بفضل وجود جدار ساتر يُبنَى على مدخل الغرفة يسمى (رقبة)، وغرف المنازل في صيف وعامة دوعن لها تصميم خاص يميّزها عن بقية الغرف في وادي حضرموت، فالغرفة بها ما يعرف بـ(المحار)، يخصص له فتحة في الغرفة، ويعمل لها باب خشبي تستخدم للتخزين، وفتحة أخرى يُبنَى نصفها السفلي ويسقف، ويعمل لها باب خشبي يغلق عليها، في حين يظل الجزء الأعلى منها مكشوفًا، ويوضع فيه الفرش والأغطية والمخدَّات، ويسمى (صورع). كما يوجد في الغرف ما يسمى (بالمغاسج) مفرده (مغسج)، وهي عيدان من الخشب، تُثبَّت في الجدار، و"السارية" عمود وسط الغرفة أو في مدخل الغرف، ويوضع فوقها بعض الفرش الذي لا يستخدم إلا عند قدوم الضيوف.



وتُزَيَّنُ غرف البيوت بنوافذ خشبية، نُحتَتْ بنقوش متنوعة، بعضها بسيط وبعضها الآخر هندسي بديع، ويقال للنافذة (لهج)، وتستر هذه النوافذ "بالشجب" (وهي عيدان صغيرة، يتمُّ ربطُها بخيط من جانبيها؛ حتَّى تحجب النظر من الخارج)، كما يُعمَل فوق النوافذ "رفوف"، تستخدم لحفظ بعض المستلزمات، ويتم تغطية الجدران بالنورة قبل ظهور الطلاء، كما تزين الأبواب بمسامير تسمَّى نجومًا، وتزيَّن السواري الخشبية (الأعمدة) بنقشات منحوتة، في حين تُزَيَّن القواسم وأبواب المحرة والصوارع بالنقوش المنحوتة أو مسامير الزينة التي تطلى بالزئبق.

وقد اختلف نمط البناء في البيوت الحديثة عن ما كان عليها في البيوت القديمة؛ فقد ظهرت أشياء واختفت أشياء تماشيًا مع تطور نمط الحياة، فمثلاً أصبح الطابق الثاني بل وجزءٌ من الطابق الأول يستخدم كغرف للسكن، واختفت من الطابق الثاني الأوسطة.

المراجع:

1) الحداد، علوي بن طاهر، الشامل في تاريخ حضرموت، تريم للدراسات والنشر، 2005م.

2) السقاف، عبدالرحمن بن عبيد الله، معجم بلدان حضرموت، مكتبة الإرشاد، صنعاء، 2002م.

3) باحمدان، محمد سالم، التعليم الأهلي في دوعن، 2008م.

4) صيف معالم وأعلام، تقديم صالح عمر باناعمة، 2019م.

5) مجلة شعاع الأمل، العدد 123 يوليو 2012م.

6) دوعن الوادي الجميل، سالم بن سلمان، الطبعة الأولى 2006م.

111
العدد (37)
يوليو
سبتمبر
2025م

سقطرى



مفيد فهد نبزو - سورية

مجاراة الشاعر الدكتور عبدالعزيز الصيغ الذي حرّضَ عذارى الخيال، وعرائس الإلهام، فأوحت بهذه القصيدة:

نظمتُ اللؤلؤَ المنضودَ شعرا ... ولا عجبًا إذا ما فاضَ شعري
وصغتُ جواهرَ الألماسِ نثرا ... لمن في حضرموتَ تفيضُ سحرا
فأيُّ قلادة أحلى وأغلى ... عروسُ البحر ترفلُ بالأماني
من العقد الذي إنْ ذابَ تبرا؟! ... وتنفحُ من لبانِ العطرِ عطرا
سأهدي العقدَ من مَلكتْ فؤادي ... طبيعتها التي تسبي عيوني
وصارَ بعشقها التصريحُ جهرا ... إذا اكتملَ الهلالُ، وصارَ بدرا
سأهدي من تفوقُ الحُسنَ ليلى ... وأبدعُ لوحة زرقاءَ فيها
وعبلةَ ثمَّ بثنةَ ثمَّ عفرا ... ترى الأعشابَ والأشجارَ خضرا
أزيِّنُ جيدَها عقداً تلظَّى ... ومن كل الزهور بكلِّ لونٍ
ليوقدَ في ضلوعِ الصبِّ جمرا ... بها، وخدودها كالورد حمرا
يشعُّ كما النجومِ الزُّهرِ ليلا ... سقطرى قبلة العشاق وجهًا
وقطراتِ الندى والطلُّ فجرا ... إذا افترَّتْ بها البسماتُ ثغرا
أزيِّنُ صدرَ فاتنة الغواني ... وإنْ رفَّ الحنينُ بجانحيها
ومن بجمالها العشَّاقُ أسرى ... فقلبُ الأمِّ عاطفةً سقطرى
ومن بلبانها، والمرُّ يحلو ... بعاطفة من الوجدان باحتْ
مذاقي حين يغدو الصبرُ صبرا ... بما أوحى، وللشعراء أغرى
عروسُ البحرِ والشطآنِ تروي ... شرارات بسقط الزند طارتْ
أساطيرَ الهوى سطراً، فسطرا ... لتصهرَ إن تمسَّ الصخرَ صخرا
تُزَفُّ لها الطيورُ بمهرجانٍ ... فما زركشتَ بالإبداعِ فنٌّ
يناغمُ صوتُها موجًا وبحرا ... وما رفرفتَ بالأحلامِ أطرى
فلا تسألْ دمَ العنقاء عنها ... لئن نظمتْ قلادتكَ اللآلي
وما قد خصَّها الخلاَّقُ دهرا ... فأنتَ بعشقِ مَنْ تهوى لأدرى
وأنتَ بعشقِ من تهوى قريبٌ
ومالي في الهوى والبعد مسرى
جرى ينبوعكَ الشعريُّ عذبًا
لينسجَ من خيوط الحبِّ ذكرى
ويطلقَ من بنات الفكرِ سربًا
تزفُّ أميرةَ الشطآنِ بشرى
بناتُ الفكرِ لو زارتْ سقطرى
وذاقتْ من كؤوسِ النورِ فجرا
لعادتْ بالبيانِ السحرِ نشوى
وعادتْ بالجمالِ البكرِ سكرى
عروسُ الشاطئِ الذهبيِّ حقٌّ*
لها لو خلَّدَ التاريخُ نصرا



112
العدد (37)
يوليو
سبتمبر
2025م

قصة قصيرة

على السلالم



صالح بحرق

أعتاد السيد محسن أن يقرأ صحيفة الصباح وهو على السلالم، ويتصفح مجمل الصفحة الرئيسة، قبل أن يتلقى التحية من جارته زينب.

هذا كان ديدنه كل يوم، ويطلع كذلك على صفحة الإعلانات، حتى وقعت عينه ذات يوم على إعلان طلب حارس ليلي بأجر كبير، فحفظ العنوان وانطلق.

وعندما مرت جارته زينب لم تجده على السلالم، فطرقت الباب فلم يرد عليها أحد.

كان محسن رجلاً قد شارف على الخمسين، في عينيه حَوَلٌ ظاهر، وجبهته كانت ناتئة، ويمشي بطريقة تثير السخرية، ويظنه الظان إنه سيقع على الأرض.

من كثرة تعثراته وتقلباته في الطريق، كانت جارته زينب تشفق عليه وتدعو الله أن يشفيه.

ها هو الآن قد قطع الشارع الكبير بصعوبة قبل أن يصل إلى موقع الإعلان، قرأ اللائحة بتمعن: محلات بيع الأخشاب لصاحبه أبو مازن.

ودخل المحل بانكسار، وقابله المحاسب بفتور، قائلاً:

- أهلاً.. اجلس
- شكرًا
- ما قضيتُك
- قرأتُ الإعلان
- حارس ليلي
- نعم
- ألدَيكَ القدرة على السهر
- نعم



- ألا تخافُ من اللُّصوص

- ليس كما تعتقد

- والأُجرة أنت موافق عليها

- نعم

- إذا احترقت هذه الأخشاب مَنْ هو المسؤول؟

- لا أعلمُ سيِّدي

- كُلُّكُم يقول ذلك

- نعم، سيّدي

- المهم أن تكون يقظًا، فقد سرق هذا المستودع الذي أمامك ثلاث مرات

- لعله كان بدون حارس

- لا يا ذكي، سُرِق في ظل وجود الحارس

- كيف حدث ذلك؟

- الانشغالُ بالجوّال

- أنا لستُ منهم سيّدي

- ولهذا قبلناكَ حارسًا عندنا

- أشكركم سيّدي

وذهب محسن إلى منزله ليأتي في المساء، كان طول الطريق يتعثر في مشيه، تدفع به قوى غريبة إلى اللحاق بأمل منطفئ فيه، وتهاجمه أصوات لبدء فتح بيت جديد، والعثور على امرأة صالحة.

كان يسرع الخطى، وعلى السلالم قابل جارته زينب، فقالت له بلهفة:

- من أين أتيت؟

- أتيتُ من الشغل

- أيُّ شغلٍ؟

- حارس على مستودع للأخشاب

- الله يوفقك يا سيّد محسن

- إن شاء الله

ودخل غرفته وهو يفكر في عدد السرقات التي تعرض لها مستودع الأخشاب.

وفكر في طريقة أو خطة يبدأ بها عمله... وبعد تفكير عميق اهتدى إلى طريقة جمع البيانات أولاً عن الحي، وهل يُوجَد فيه لصوصٌ ومجرمون، ونام تلك الليلة على خوف شديد.

ومضى النهار أيضًا وهو يفكر، وفي المساء حمل مصباحًا وذهب لتسلُّم العمل، وكان الليل قد بسط رداءه على الأرجاء، وبدت له المساكن مستودعات يختبئ فيها المجهول، ولمحتْه جارتُه زينب بمحاذاة العمارة، فأسرعتْ إليه قائلة:

- إلى أين يا سيد محسن؟

- إلى العمل.. ألمْ أُخبِرْكِ

- نعم.. ومعك العنوان

- نعم هاك العنوان

وأخذت زينب العنوان وانطلقت إلى شقتها في البساتين، وبعد جهد وصل محسن إلى مستودع الأخشاب والشكوك والظنون تحيط به، وهو لا يدري كيف يتعامل مع اللصوص وليس معه إلا هذه العصا.

وجلس على كرسي الحراسة خائفًا يترقَّب، وينظر إلى أبسط حركة تصدر من الحوش، وإذا به يرى شبحًا يقدم نحوه، وأخذ يتفحصه وهو يقترب منه، حتى تبيَّنتْ له ملامحه.. إنها امرأة تتهادى وسط الطريق، حتى وقفت بالقرب منه فكاد يغمى عليه من شدة الفرح، فقد كانت تلك المرأة جارته زينب، فجلستْ بجانبه على الكرسي، والظلام يلفهما، والتصق محسن بها من شدة البرد، وأسند رأسه إلى صدرها، وغفا. والليل لا ينتهي.

114
العدد (37)
يوليو
سبتمبر
2025م

حياة الريف.. كنز معرفي



أحمد بن عبداللطيف باوزير

ماذا يعني لك أنك تعيش في الريف؟ في قرية صغيرة؟

يعني لي الكثير، القرية الريفية عالم صغير ينقلك إلى العالم الكبير!

كنت في الخامسة من عمري حين لسعتني النحلة، ثم أُعطي لي شيءٌ من عسلها للشفاء، فما بين لسعتها وشهدها ينبثق كَمٌّ كبير من الأسئلة والخيال المعرفي!

ما هي المواد التي تتفاعل في بطنها لتخرج السم من جهة، والشفاء من الجهة الأخرى؟ وكيف تتفاعل؟ وكيف تتوزع النواتج وكل قد عرف سبيله ومخرجه!

هذه الحشرة الصغيرة داخلها عالم كبير من المعرفة، وإن خروج الداء والدواء من بطنها يخبرك بأن هذا العالم الواسع يتداخل فيه الخير والشر، وقد ينبثق أحدهما من موطن آخر، ويخبرك أيضاً بأن كل شيء في هذا العالم له معنى وقيمة مهما كان صغيراً بحجم هذه النحلة أو أصغر.

أخبرتُني أُمِّي حينها بأن هناك سورة في القرآن تسمى سورة النحل، ولم أكن أُحسنُ القراءة والكتابة في ذلك الوقت، فانتابني فضول كبير، وأصبحتُ متحمّساً لتعلم القراءة مبكّراً؛ حتى يتسنَّى لي معرفة العلاقة بين كتاب الله المنظور وكتابه المسطور، هنا يتبين للجميع أنَّ بيئة القرية بما تحويه من مظاهر مثيرة تقدحُ شرارة الفكر وتحفّزُ النشء لتعلُّم القراءة والكتابة من خلال عرض المشاهد التي تثير الفضول المعرفي.

في حياة القرى حين تراهم ينثرون رَوْثَ الحيوانات لتسميد التربة؛ ليكون المحصول وفيراً بالحبوب والعلف (طعاماً للإنسان والحيوان مرَّةً أخرى)، فأنتَ هنا أمام دورة بسيطة من دورات الطبيعة؛ لتعلم فيما بعد أن الحياة كلَّها عبارة عن دورات، ومنها دورة الماء والأكسجين وثاني أكسيد الكربون والنيتروجين... إلخ؛ ليخبركَ القرآنُ بالدورة الكبرى للكون كله ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ سورة الأنبياء: 104.

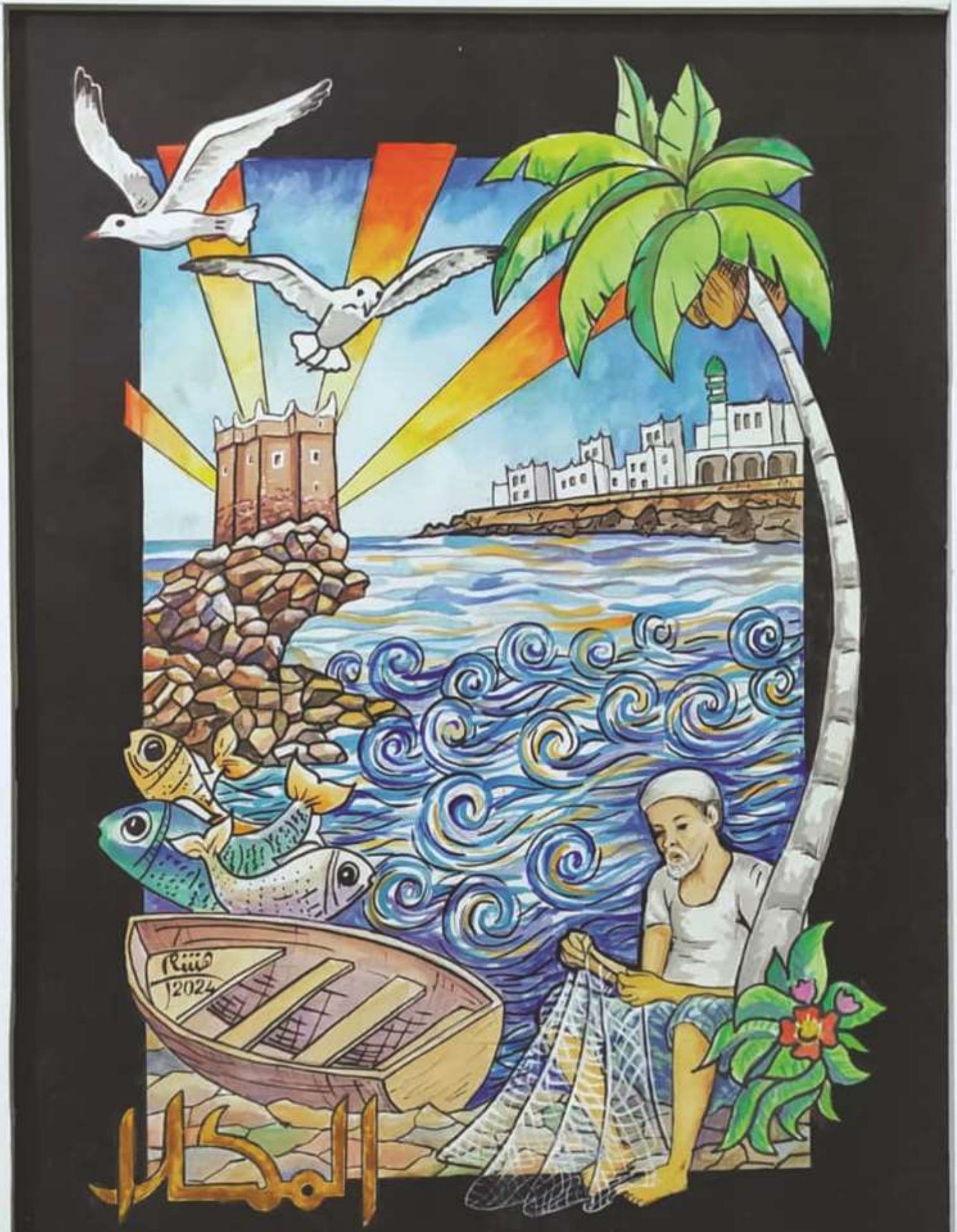
حينها تدرك بأنك في هذه القرية لستَ في عالمك الصغير بقدر ما أنت في نقطة من هذا الكون تُعلِّمُك أبجديات التفكير السليم والحروف الأولى للمعرفة والتي تنقلك إلى عالمك الكبير الفسيح غير المتناهي في تناغُمٍ وتوازٍ مع كتاب الله العظيم، وأنت تسيرُ مع السائرين في هذا الموكب المهيب تصاعُدِيًا في سُلَّمِ المعرفة تسمع على جنبات الطريق صيحات هافتةً وخافتةً من صيحات الإلحاد، والتي تخلق ميتة مثل الفراشات الزائفة التي تحاول الاقتراب من الشمس!

الحياة في القرية مليئة بالمشاهد المثيرة، كم هو جميلٌ أن تشرب كأساً من الحليب الطبيعي، ولكنَّ الأجمل من هذا كله أن ترى أحدَهم يحلبُ شاتَه ليخرُجَ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ ودَمٍ لَبَنٌ خالصٌ سائغٌ للشاربين!

لا أظنُّ أنَّ الأمر يقتصر على حياة الريف فقط، فأيُّ نقطة في هذا الكون تقفُ عليها ستجد فيها ما يربطك معرفيًا بالكون كله، ما عليك إلاَّ أن تنظر وتتأمَّل.

مرَّت علينا سنون الحياة بسرعة، ومما يؤسفني أنَّنا لمْ نَعشْ لحظاتها الجميلة كما يجبُ؛ لأنَّنا كُنَّا نتطلَّع إلى الأفضل دائماً، وننشغل عن الموجود بالمفقود.

وفي الختام، كمْ أتمنَّى من مؤسسات التعليم في بلادنا أنْ تهتمَّ بوسائل التحفيز والإثارة في مراحل التعليم الأولى؛ حتَّى تكون مخرجاتهم ذات جودة عالية.



لوحة للفنان التشكيلي هشام بن يحيى

مركز حضرموت
للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر



مُنتدى عميدِ الوفاءِ الثّقافي

Ameed Alwaffa Cultural Forum